فكر علمي ... ثقافة تقدمية

الثقافة الجديدة

438

تموز 2023

مقالات

صالح ياسر
محمد مستقيم
طالب عبد الأمير
مصباح كمال
حاكم محسن محمد الربيعي
أحمد نصيب علي حسين

نصوص قديمة

زبيير هينتجس

نصوص مترجمة

سيدريك دوراند

أدب وفن

حسب الله يحيى
عماد جاسم
آرليت الكائيم- سارتر
ايمان المحمداوي
حسينة بنيان
تماضر كريم
شميسة غربي
منال الأخرس
علوي الهاشمي
هاشم شفيق
فاروق فياض
علاء حسن
معتز عناد غزوان
ليث الصندوق
رهبة أسودي حسين
شكيب كاظم
إيرينا ستريلكوفا

الثقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية
تأسست عام 1953

رئيس التحرير : صالح ياسر

مجلس التحرير

ابراهيم اسماعيل جـــــواد الزيدي
رضـــــا الظاهر علي إبـراهيـــم
كـــــاوة محمود مظهر محمد صالح
هـــــادي عزيـــز علي

هيئة التحرير

زهيـر الجـزائـري
هـــاشـم نعمـة
سوران قحطـان
حسب الله يحيى
محرر "أدب وفن"

العدد: 438
تموز: 2023

المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها

السعر داخل العراق: 2000 دينار للنسخة الواحدة
الاشتراك السنوي خارج العراق: للأفراد (50) دولاراً أو ما يعادلها، وللمؤسسات (100) دولار، أو ما يعادلها.
يحول المبلغ نقدا على الحساب الآتي:

بالدينار:	بالدولار:
مجلة الثقافة الجديدة	Althakafa Aljadida Magazine
مصرف المنصور للاستثمار – بغداد	Mansour Bank for Investment- Baghdad
رقم الحساب: 11153	Account No:30721
سويفت كود: MBIVIQBA	SWIFT CODE: MBIVIQBA

ايميل رئيس هيئة التحرير: thakafajadida@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير: thakafajadida4u@gmail.com
يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي: hassab1944@yahoo.com
عنوان الموقع على شبكة الانترنت: **althakafaaljadeda.net**

عنوان المجلة: بغداد – ساحة الاندلس.
والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.
رقم الايداع: 781
رقم الاعتماد: 1288

شروط النشر

ترجو هيئة التحرير من المساهمين في الكتابة الى المجلة مراعاة ما يأتي فيما يرسلون للنشر:

- أن تكون المقالة أو الدراسة أو الشعر... الخ مستوفية شروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
- ان لا يتجاوز حجم المادة عن 4000 كلمة، وبالنسبة لباب قراءة في كتاب، ألا يزيد عدد كلمات المادة عن 3000-2500 كلمة.
- ان لا يزيد عدد كلمات باب ترجمات عن 4000 كلمة ويمكن لهيئة التحرير أن تنشر أكثر من ذلك إذا رأت ان هناك ضرورة.
- باب نصوص قديمة، تعتمد كلماته على النص المختار.
- وبالنسبة لباب أدب وفن، لا يزيد عدد كلمات المادة عن 2500 كلمة.
- ان تكون المادة معدة اصلاً للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن اخرى أو على صفحات المواقع الالكترونية.
- ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج. وارتباطا بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير فيما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو ان ترسل مع المقال او الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود سطر ونصف الى سطرين إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال او الدراسة.
- لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة اعلام صاحبها بذلك.
- بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الالكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
- للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي ترد‌ها.
- يجوز للباحث/الباحثة اعادة نشر بحثه/بحثها المنشور في المجلة شريطة ان يشير/تشير الى المصدر عند اعادة النشر.
- بالنسبة لتوثيق المصادر خصوصا في المقالات يفترض أن يكون موحدا وهو يتوافق مع شخصية وأسلوب المجلة، وهنا يكون في الهامش وليس في داخل المتن بدون قوس، وهناك عدة طرق للتوثيق ولكن الأكثر استخداما ما يأتي، راجين من الباحثين والكتاب اعتماد ذلك:
- بالنسبة للكتب: اسم المؤلف أو المترجم أو المحرر، رقم الطبعة، مكان النشر، الناشر، تاريخ النشر، رقم الصفحة. (لا تذكر الشهادات العلمية في توثيق المصادر، مثلا دكتور...)
- بالنسبة للدوريات أو المجلات: اسم الكاتب، «عنوان الدراسة أو المقالة»، اسم المجلة، المجلد و/أو رقم العدد، سنة النشر، رقم الصفحة. (لا تذكر الشهادات العلمية في توثيق المصادر، مثلا دكتور...)

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5 - كلمة العدد
7 - تعزية " الثقافة الجديدة " بوفاة الدكتورة سعاد محمد خضر

مقالات

9 - "عاصفة الصحراء"..
بعد 32 عاما، حسابات الحقل لا تطابق حسابات البيدر !..... صالح ياسر
20 - نقد الحداثة عند إدغار موران.....محمد مستقيم
31 - علم الفن أم - فن العلم .....طالب عبد الأمير
43 - استدراك حول إدارة الخطر والأشكال الأولية لها في الحضارة السومرية...مصباح كمال
49 - استثمار الفوائض المالية في تأهيل القطاعات الاقتصادية.... حاكم محسن محمد الربيعي
60 - قراءة في كتاب "التنمية .. الأسئلة الكبرى" ..... أحمد نصيب علي حسين

نصوص قديمة

66 - الثورة الروسية الأولى وكومونة باريس .....زبيير هينتجس

نصوص مترجمة

72 - نهاية الهيمنة المالية؟ لـ سيدريك دوراند.....ترجمة: سوران قحطان

أدب وفن

90 - العراقيون. عشاق الثقافة.....حسب الله يحيى
91 - مظاهر الاستياء، من الفوارق المجتمعية والاقتصادية في الشعر العراقي.....عماد جاسم
97 - التخّيل عند سارتر، آرليت الكائيم- سارتر ..... ترجمة: كامل عويد العامري

اقلام قصصية نسوية (ملف خاص)

105 - تعاسات من ورق.....ايمان المحمداوي
110 - أوراق أمرأة.....حسينة بنيان
112 - إيلا.....تماضر كريم
116 - زمن الشُّرْفة.....شميسة غربي
119 - الوجه الثاني.....منال الأخرس

*****

124 - الجمهور منتجا ثقافياً ومصدرا للابداع.....علوي الهاشمي
126 - دموع النجوم.....هاشم شفيق
127 - بقايا موعدين ونصوص.....فاروق فياض
129 - مسرحية (خيبة زفاف).....علاء حسن
139 - دفاتر ضياء حسن.. قراءة جمالية.....معتز عناد غزوان
142 - ألمفقود والموجود
من المهيمنة الفردوسية في قصائد الشاعر عبود الجابر.....ليث الصندوق
148 - تأسيس المتحف العراقي بين رسائل المس بيل والوثائق العراقية....رهبة أسودي حسين
153 -(موت المعري..الفيلسوف الاعمى الذي نقل الفلسفة الى الشعر).....شكيب كاظم
156 -ادانة الحرب في رواية فيكتور أستافييف
"الراعي والراعية" إيرينا ستريلكوفا.....ترجمة: تحسين رزاق عزيز

لوحتا غلافي العدد: الفنان يـوسف الناصر
التدقيق اللغوي: مصطفى عبـــــــــاده
التصميم والاخراج الفني: علي العـــــتابي

إقرار الموازنة العامة يفاقم المشكلات الاقتصادية والاجتماعية

نشرت (الوقائع العراقية)، الجريدة الرسمية لجمهورية العراق، في عددها الذي يحمل رقم 4726 في 23 حزيران 2023، قانون الموازنة العامة العراقية للسنوات 2023، 2024، 2025. ولأن الموازنة ليست تلك الجنبة القانونية الشكلية فقط، اي ليست ذلك القانون الذي يحدد وينظم موارد الدولة ونفقاتها فحسب. وانما هي أساساً ذلك المضمون السياسي والاجتماعي الذي يعكس موازين القوى السياسية والاجتماعية في لحظة تشريعها. خصوصا بكونها تمثل مصالح تلك القوى المتنفذة والمسيطرة، وهي قوى متصارعة ومتناحرة بحكم طبيعتها. بالتالي فإن دراسة الموازنة وتمحيصها، وتحليلها لا ككل واحد فقط، وانما ايضا دراسة كل مفصل من مفاصلها على حدة، دراسة عميقة وشاملة، من قبل المختصين والسياسيين، وعلى وجه الخصوص من قبل القوى التي تحمل شعارات التغيير، لا يعد رفاهية فكرية، ولا هي ايضا من قضايا الترف المناكد. لا بل إن الاخيرين بحاجة كذلك الى معرفة طبيعة ونوعية المساومات والتنازلات والصفقات، بل وحتى "الخروقات الدستورية"، التي جرت في شأن كل فقرة منها والكيفية التي اقرت بها.

وإن كنا لا نرغب في تعداد كل ما في الموازنة من مثالب، ولا ان ندخل في تفاصيل ما وجه لها من نقد. فلكل مقام مقال. لكن هذا لا يمنعنا من الإشارة الى بعض معالمها الأساسية. ومن بينها: كونها موازنة ثلاثية؛ وكونها اعدت مثل سابقاتها، دون حسابات ختامية، حسابات تقوّم إنجازات الدولة في العام السابق؛ وكذلك ما فيها من عجز هائل وغير مسبوق، والذي سيزيد من تكبيل الحكومة الحالية والحكومات القادمة؛ وأيضا كونها تعكس الطبيعة الريعية للدولة والاقتصاد العراقيين، من خلال تخمينها لإيرادات الدولة اعتمادا على مصدر واحد هو النفط فقط، بل وتعتمد على سعر للبرميل ومعدلات للتصدير مبالغ فيهما. يضاف الى ذلك كله الحجم الهائل للنفقات التشغيلية فيها، وكذلك كبر حجم الاخيرة النسبي، سواء نسبة الى النفقات الاستثمارية، او ما بين الوزارات والقطاعات المختلفة. كما وتسم الموازنة، كمثيلاتها في الأعوام السابقة، بضعف واضح في الاهتمام بالقطاعات الإنتاجية، الصناعية والزراعية. وأخيرا، يجب ان لا نغفل أيضا عن انها اقرت زيادة غير مبررة في نفقات ومصاريف رئاسة الوزراء ومجلس النواب.

هنا نود تسليط الضوء قليلا على معلم مميز للموازنة العراقية. لأنه غاب عن الكثير من

المراقبين. وهو ترسيخ ذلك التناقض الواضح منذ سنوات، بين الاستمرار الواعي، بل وربما حتى المدروس، في اضعاف وتغييب دور الدولة القيادي او التوجيهي، في القطاعات الاقتصادية الإنتاجية، عامة كانت ام خاصة، وما يرافقه من نشوء رأسمالية تابعة مشوهة وسوق مشرعة الأبواب، وما يتطلبه كل ذلك، بحكم منطق اللبرالية الجديدة، من سياسة مالية انكماشية؛ وبين سياسيات الحكومة التي ترفع باستمرار من النفقات التشغيلية -لغايات ليست بريئة على الاطلاق- سواء عن طريق زيادة النفقات التشغيلية، بصورة مبالغ فيها، في قطاعات لا يمكن أصلا ان تحفز الاقتصاد، او عبر التوظيفات الكبيرة والمستمرة في وزارت الدولة ومؤسساتها المختلفة. وما يستلزمه كل ذلك من ضخ للأموال، أي سياسة مالية توسعية. وحجم هذا التناقض لا يمكن ادراكه الا إذا وضعنا في الحسبان تخبطات السياسة النقدية في السنوات الثلاث الأخيرة.

وكما جرت عليه العادة، استندت الحكومة، ومن تمثلهم من قوى متنفذة، في دعايتها لتمرير موازنتها هذه شعبيا، على حجج واهية ومبررات زائفة. معولة على حلول ترقيعية، هي في ذاتها تعد توكيداً على غياب تام لأي رؤية استراتيجية تنموية للنهوض بواقع البلاد الاقتصادي والاجتماعي المتردي. فحل مشاكل البلاد، وتحسين مستويات معيشة المواطنين بالنسبة للحكومة، يكون عبر زيادة إيرادات الدولة "التخمينية". والأخير يأتي من: زيادة - تخمينية أيضا- في سعر برميل النفط، ومن العجز المالي "المخطط". والعجز "يُغطى" من الوفرة المالية التي قد تأتي من زيادة أسعار بيع النفط! او زيادة صادراته! او من المبالغ المدورة في حساب وزارة المالية. وإن لم يكن، فـ "يُغطى" بالاقتراض الداخلي والخارجي. والأخير، فلا يعني الحكومة الحالية. أنه مشكلة معلق حلها برقاب الاجيال القادمة. اما البطالة، فعلاجها سهل، وذلك عبر التوظيف في مؤسسات الدولة المدنية والعسكرية. ومشاكل بسيطة، من قبيل ترهل أجهزتها وارتفاع مستوى البطالة المقنعة فيها، فتعد مسائل يمكن التغاضي عنها. اما حل مشاكل الزراعة والفلاحين، ومعهم كل الكادحين والفقراء والمهمشين، فلا تعني الحكومة. فأمرها وأمرهم موكول الى السماء. ربما لأن غالبيتهم قاطعوا الانتخابات؟! وربما لأنهم سيقاطعونها مرة أخرى!!

ان أي حديث عن مزايا للموازنة الحالية، هو حديث غير سليم. فأي ايجابية فيها ستختفي تحت الضغط الكاسح لسلبياتها التي ستتنامى مع الوقت. فكما تحمَل العراقيون اعباء ما اقترفته الحكومات المتعاقبة منذ 2003، سيقع على كواهلهم وابناءهم عاجلا ام آجلا وزر ما اجترحته وما ستجترحه الحكومة الحالية.

إن حصيلة الملاحظات والتعليقات الانتقادية التي وجهت الى الموازنة طيلة الأشهر الماضية، منذ كانت مشروعا وحتى إصدارها كقانون، يمكن تلخيصها بفقرة واحدة: ان معدي مشروع الموازنة ومشرعيها، يفتقرون الى العمق الفكري ليتعلمو من دروس الاقتصاد، ويفتقدون كذلك الى القدرة على استخلاص العبر من دروس التاريخ. والويل كل الويل لمن يتغافل عن حضور حصص الاقتصاد و يتناسى مواعظ التاريخ... وهذا ما ستثبته الأيام.

تعزية

وداعاً.. زميلتنا وأستاذتنا الجليلة

د. سعاد محمد خضر

بأسى عميق تلقينا نبأ رحيل الدكتورة سعاد محمد خضر، أحد مؤسسي مجلتنا «الثقافة الجديدة» عام 1953.

لقد عرفنا، وسائر المثقفين والوطنيين العراقيين، في الدكتورة سعاد محمد خضر، التي ودعتنا يوم الاثنين، السادس والعشرين من حزيران الحالي، مثالا ساطعا للباحثة القديرة والانسانة المناضلة، التي قاومت عسف واضطهاد السلطات الدكتاتورية.

عملت الراحلة، اخصائية الأدب الفرنسي وعلم الجمال، في مواقع عديدة بينها، الجامعات والمراكز البحثية والصحافة. وكانت، أينما حلت وفي أي موقع عملت، تجسد التواضع والدأب، وتقدم صورة جريئة في الدفاع عن قيم التنوير والتقدم.

وكانت حياتها مع رفيق دربها الراحل الدكتور صلاح خالص (الذي كان أحد أبرز مؤسسي «الثقافة الجديدة») صفحة مضيئة في تاريخ الثقافة العراقية.

نعبر، في مجلس وهيئة تحرير مجلة «الثقافة الجديدة»، عن عميق مشاعر المواساة والتضامن مع ولديها سعد وأمل، والعائلة الكريمة، وكل محبي الفقيدة الغالية.

تظل ذكرى الدكتورة سعاد محمد خضر عطرة في قلوب وضمائر من عرفها وعمل معها وقرأ لها.

وداعاً زميلتنا وأستاذتنا الجليلة ..

مجلس وهيئة تحرير
مجلة «الثقافة الجديدة»
27 حزيران 2023

مقالات

«عاصفة الصحراء».. بعد 32 عاما
حسابات الحقل لا تطابق حسابات البيدر!

د. صالح ياسر
باحث اقتصادي

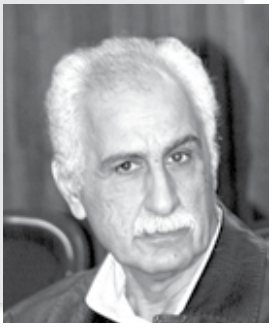

على عكس ما روّجت له إيديولوجيا النظام العراقي حينذاك من أن "ضم الفرع الى الأصل" سيفتح الأفق نحو تحول أو "انعطاف ثوري" على المنطقة كلها، شكّلت الحرب وتداعياتها محطة بنيوية في مسار تراجعي في نمط التفكير والممارسة. فمثلا، على الصعيد الثقافي أحدث الغزو ونتائجه المدمرة هزّة في أوساط المثقفين على اختلاف تلاوينهم الفكرية ومرجعياتهم النظرية والسياسية. هكذا أنتج اندلاع الحرب الجوية ولاحقا البرية قراءات سياسية وثقافية مختلفة قادت الى مواقف متنوعة، وحدثت انشطارات وانقسامات وكذلك نشوء ائتلافات جديدة لم يكن بالإمكان تفسيرها لغرابتها. ويمكن هنا ادراج ثلاثة مواقف متمايزة تمثلت في: أما الانحياز الكامل مع النظام الدكتاتوري، وأما الانحياز الكامل مع الكويت، او "الموقف الوسطي" الذي حاول أنصاره التوازن المتحرك في سياق لا يسمح آنذاك بطبيعته بـ "أنصاف الحلول" [1].

ولا بد من الاعتراف بان أزمة الخليج الثانية قد وفّرت مصدرا مثاليا لتشويش والتباس المفاهيم. بل كان هناك الكثير ممن أغرتهم لعبة الخلط بين المعطيات المباشرة والمسبقات المتوارثة، وبين صلابة الواقع وهلامية الخيال [2].

لقد كانت تتدحرج اجوبة سهلة على قضايا معقدة وأسئلة مرتبكة مرتبطة بها، أجوبة لا تنتج معرفة صادقة بما حدث، بل على العكس من ذلك كانت نظرية المؤامرة حاضرة تغذي الأوهام بأوضاع تتمرد على "صنّاعها"!

لماذا وقعت الحرب؟

لن يرهق المرء نفسه بالسعي لإعمال العقل للإجابة على السؤال: لماذا وقعت الحرب؟ فقد كنا شهود الآثار التدميرية لما سمي بـ"عاصفة الصحراء" التي كان هدفها الظاهري إخراج القوات العسكرية للنظام الدكتاتوري من الكويت، وقد تحقق هذا الهدف بعد 45 يوما من القصف المدمر و 100 ساعة من الحرب البرية، ولكن الأهداف الفعلية للحرب اتضحت في ما بعد.

ويبدو أن دوي المدافع وقصف الطائرات وتدفق الصواريخ بعيدة المدى كان ذا صلة وثيقة بمسعى أمريكي حثيث الى إجراء ترتيبات سياسية جديدة في ''النظام العالمي'' تفرض بقوة المدفع، وتترجِم مجمل الحقائق المستجدة التي أسفرت عنها حقبة ما بعد ''الحرب الباردة''. وفي قلب تلك الحقائق كان هناك المسعى الحثيث لضمان انفراد الغرب الأطلسي - ومركزه الأمريكي - بإدارة الشؤون العالمية على مقتضى احتكار القوة والهيمنة في ''التوازن الإستراتيجي الجديد''.

ومن دون الدخول في الكثير من التفاصيل يمكن الإشارة الى أنه من بين أعرض عناوين هذه الترتيبات، التي كان من المزمع إجراؤها ما يلي:

• الحاجة الى إعادة تعريف مفهوم ''الشرعية الدولية'' ليعكس حقيقة التغيرات في المشهد السياسي العالمي منذ نهاية الثمانينات ومطلع عقد التسعينات من القرن العشرين [4]. فكما هو معروف فإن ''الشرعية الدولية '' السابقة قد خرجت من رحم نتائج الحرب العالمية الثانية، وكانت شرعية المنتصرين في الحرب ضد المحور النازي - الفاشي، وجاءت - بسبب ذلك - تعبر عن مصالح القوى التي كسرت شوكة تحالف ''دول المحور''. وكانت تلك ''الشرعية'' مدفوعة الى الكينونة في صور وفاق: معلن أو مضمر، بين قوى الاستقطاب الأساسية في ''الحرب الباردة''. وكان عليها أن تعّرف نفسها رسمياً - بل قل شكلياً - بوصفها ''الشرعية'' التي تنتهل من القانون الدولي، ومن مرجعية الأمم المتحدة ....الخ. غير أنه كان عليها في الواقع أن تنتظم تحت سقف التوازن الدولي (توازن الرعب النووي) بين القوتين العظميين حينذاك (الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة) ومعسكريهما، وقد مثل ذلك التوازن محصلة لعلاقات القوة بين المعسكرين على الصعيد العالمي. غير أن علاقات القوة على الصعيد العالمي تغيرت بانهيار جدار برلين وتفكك الاتحاد السوفيتي، القطب الثاني في معادلة توازن الرعب النووي الذي استندت إليه ''الحرب الباردة''، والذي تُوج بتفكك المعسكر الاشتراكي وحل حلف وارشو. وتلك اللحظة كانت تؤرخ لحصول تحولات جذرية في المشهد السياسي العالمي لصالح الرأسمالية العالمية، ولو الى حين.

وارتباطا بذلك فإن مفهوم ''الشرعية الدولية'' الذي كان يمثل محصلة لعلاقات القوة السائدة آنذاك لا يمكن له أن يشتغل في الظروف الجديدة، بل يتعين إعادة صياغته ليتناسب ويعكس علاقات القوة الفعلية والاستقطاب السائدة، على المستوى العالمي، في اللحظة الجديدة، أي يعكس مصالح المنتصرين الجدد، وعلى رأسهم الولايات المتحدة. طبعا، كانت هناك حاجة ماسة لانتصار عسكري ''ساحق'' للولايات المتحدة، بعد هزائمها المذلّة في جنوب شرقي آسيا التي توجت بالانتصار الباهر للشعب الفيتنامي في ربيع عام 1975.

•إنجاز عملية واسعة لنقل ''الشرعية الدولية'' من مؤسساتها الفعلية الى أخرى تفرض نفسها بوصفها ممثلة لحقبة المنتصرين فقط. أسفرت حرب العقود الأربعة الباردة عن غالب ومغلوب واستحقاقات! وإضافة لذلك فإن للحروب الساخنة استحقاقاتها التي يتعين على المهزومين دفعها. حرب الخليج

الثانية كانت تمريناً دولياً تعبوياً بالذخيرة الحية لفرض أسس ما سمي بـ"النظام العالمي الجديد" والذي حقق انتصارا عسكريا مدفوع الأجر للولايات المتحدة وحلفائها. لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو الاتي: إذا كانت افتتاحية "النظام العالمي الجديد"، الذي كان مزمعا تشييده على أنقاض "الحرب الباردة" وبلبنات "الديمقراطية" و"حقوق الإنسان"، هي حرب تكنولوجية مدمرة الى هذا الحد، فكيف ستكون فصوله اللاحقة؟ الاحداث اللاحقة بينت العديد من النتائج الفعلية/ الفصول التي تفقأ العين.

معالم تقسيم عالمي جديد للعمل يفرض بقوة المدفع!

لا يمكن فهم جوهر القضايا السابقة من دون ربطها بالتحولات الحاصلة في التقسيم العالمي الجديد للعمل في تلك الفترة حيث نُذُر العولمة بطبعتها الرأسمالية تغزو عنان السماء والأرض، تفرض منطقها دون هوادة. ومن دون الدخول في تفاصيل إضافية يمكن الإشارة الى أن التقسيم هذا يقوم على ثلاثة مستويات [5]:

المستوى الأول وهو المستوى الكوني/ العالمي ومحوره الجديد (شمال - شمال، شمال - جنوب) ويحل محل التقسيم السابق (شرق - غرب، غرب – جنوب). يتخذ هذا المستوى صيغة تنافس حاد بين الولايات المتحدة واليابان وأوروبا الغربية والصين، وتعبر عن نفسها بآليات مقاربة للآليات التي سادت في بداية القرن العشرين، خاصة وأن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تسقط من حساباتها سلاحين: النفط ومبدأ القوة في العلاقات الدولية، عند مواجهة خصومها الكبار.

والذي يهمنا هنا التأكيد عليه، بقدر تعلق الأمر بالمنطقة العربية في ارتباطها بهذا المستوى، هو أن النفط ومبدأ القوة، جزء لا يتجزأ من المعادلات الإقليمية في هذه المنطقة حيث يتركز الجزء الأعظم من إنتاج النفط واحتياطاته المكتشفة [6].

ومما لا شك فيه أن الولايات المتحدة تحتاج الى "شرق أوسط" هادئ يحيط بمستعمراتها النفطية كجزء من برنامج التركيب في المستقبل، وليس في برنامج التفكيك في حينه، حيث كان التوتر (ولا يزال طبعا) في هذه المنطقة سلاحاً أمريكياً مهماً لعرقلة مشروع "البيت الأوربي" والحد من النمو الياباني المتعاظم. وإضافة لذلك فإن هذا التوتر كان يتجاوب مؤقتاً مع مسألتين هامتين:

الأولى: تعارضات المصالح داخل الاحتكارات الأمريكية، وخاصة حاجة المجمع العسكري - الصناعي حينذاك لفترة تكييف ملائمة من أجل إعادة إنتاج أدواته، وموقعه في الاقتصاد الأمريكي، فالاقتصاد العالمي.

الثانية: الحاجة الى فترة انتقال إقليمية كافية لإعادة صياغة الدور الإقليمي الإسرائيلي طبقا لمتطلبات المرحلة الجديدة وبشروط جديدة تدمجه في الحياة الاقتصادية الاجتماعية الشرق أوسطية، كعنصر إقليمي مقرر.

المستوى الثاني وهو الإقليمي، ويتعلق الأمر هنا بالملموس بمنطقة الشرق الأوسط - كإقليم - ومحورها الرئيسي البلدان العربية - إسرائيل. إن عملية تفكيك وإعادة

تركيب المنطقة هذه يجب أن تكون مرهونة، باستمرار، بالقدرة على تطويع الجغرافية السياسية التي تعادل هنا الأهمية التي تلقيها الأسواق ودوائر المجال الحيوي في مناطق أخرى. ضمن هذه الإستراتيجية، على الصعيد الإقليمي، يجب أن تكون إسرائيل بمثابة المفتاح الإقليمي والركن الثابت في كل هذه السياسات وتجديدها من مطرقة عسكرية، حسب الاحتياجات الإقليمية للحرب الباردة المنتهية، الى إمبريالية فرعية/ إقليمية، حسب الاحتياجات الإقليمية للخارطة الدولية الجديدة وموقع الولايات المتحدة فيها.

تنص هذه الإستراتيجية على هدف مهم هو استبدال الدور السياسي للأطراف العربية بدور أمني في إطار الدور السياسي - الاقتصادي الإسرائيلي. غير أن هناك مفارقة صارخة في هذا المجال لا بد من الإشارة إليها، وتتمثل في حقيقة أن إسرائيل قادرة داخل هذه الإستراتيجية الأمريكية الجديدة، على تعويض دورها السابق، من خلال التمدد داخل أسواق المنطقة، وبالتالي الحفاظ على قدر كاف من الانسجام مع قاعدتها الاجتماعية التي تخلفت على صورتها السياسية الإقليمية. أما "الدولة القطرية" التي تشكلت وعاشت على الريوع النفطية وتحويلات دورها الإقليمي شرقاً وغرباً وتمكنت من رشوة أقسام واسعة من قاعدتها الاجتماعية [7] فهي غير قادرة على توفير شروط التعويض الداخلي عن هذه المساعدات والتحويلات، بعد أن فقدت الشروط البرانية لدورها الإقليمي، وبالتالي لاحتياجاتها الاجتماعية.

المستوى الثالث، المحلي، وهو تقسيم يجري فيه تهميش جوانب الدولة الريعية البيروقراطية الاستبدادية [8] التي انتجتها متطلبات "الفورة النفطية" في أواسط السبعينات لصالح قوى السوق الطفيلية التي شرعتها السياسات النيوليبرالية، التي تنتعش في ظروف خاصة (لنأخذ العراق مثالاً - لقد انتعشت هذه القوى تحت ظروف الحصار الاقتصادي وعاشت على "مزاياه") وليعاد إنتاج بنية بيروقراطية طفيلية ريعية جديدة. إذا كانت بنية الدولة الرسمية لا تسمح لها موضوعياً بالانكفاء، حيث تشكلت هذه البنية وتطورت بالاعتماد على لعبة الجغرافيا السياسية والريوع النفطية، فإن هذه البنية البيروقراطية – الطفيلية - الريعية لا تساعد في إعادة إنتاج وظيفة جديدة بمعزل عن لعبة الجغرافيا السياسية واستحقاقاتها المتجددة.

ضاعف ذلك وارتبط به تفاقم الأزمة البنيوية الشاملة الناجمة عن سياسات النظام السابق وإجراءات الحصار الاقتصادي الظالم، الذي أدى الى اتساع الفجوة بين الدولة وقاعدتها الاجتماعية واضمحلال "الطبقة الوسطى" التي سحقتها مطرقة الحصار وسندان/ ممارسات السلطة معا، وهذه تستدعي تحليلا آخر ليس مكانه هذا المقال.

ولا بدّ هنا من الإشارة إلى ان السلطة في بلادنا منذ قيام الدولة العراقية في عام 1921 لم تكن عاملاً لاستيعاب النزاعات أو إطاراً مهدئاً لها بل كانت في معظم الأحيان غاية في حد ذاتها. وكان لهذا المفهوم للسلطة مضاعفات عطلت الجدلية الاجتماعية وجنحت الى القمع للإمساك بالسلطة وإعادة إنتاج عموم النظام الاجتماعي استنادا الى طابع القمع في النسق الإيديولوجي. وهذه

سمة تشترك فيها الأنظمة الأبوية الجديدة حيث تتم خوصصة السلطة التي اعتادت على "تشريك الخسائر" و"خصخصة النجاحات".

ترتب المرحلة (موضوع حديثنا) من التطور العالمي السائر تحت حراب العولمة النيوليبرالية من جهة وأزمات النسق الرأسمالي المعاصر والمحاولات الحثيثة للخروج منها بأقل التكاليف [9]، حيث يتداخل المحلي بالكوني على درجة بالغة التعقيد، المزيد من الاستحقاقات الجديدة. ولهذا فإن الفهم السليم لطبيعة القضية العراقية آنذاك ومحدداتها كان يستحث النظر إليها من خلال ارتباطاتها العالمية والإقليمية وديناميكياتها المحلية. ولا بد من الإشارة هنا الى الخطأ الذي وقع فيه العديد من قوى المعارضة العراقية في حينه والمتمثل بتبسيطها أو قل تسطيحها للمفهوم الأمريكي لـ"التغيير" في العراق الذي كان مطروحا آنذاك وعدم فهمها لجوهر الإستراتيجية الكونية للولايات المتحدة وأولوياتها الإقليمية المتغيرة باستمرار، وبالتالي رهانها (أي تلك القوى) على مشاريع وطبخات ملتبسة وغير جادة إلا في مظهرها المتأنق وانبهارها بالكلام الذي كان يقدمه موظفون من الدرجة الثانية او الثالثة في الإدارة الأمريكية، الذين تعودوا أن يطرحوا الأمور بصيغة أن العم سام قادم لتحرير البلاد اليوم قبل غد [10]!.

نتائج الحرب.. حسابات الحقل لا تطابق حسابات البيدر!

وكما جرت الإشارة أعلاه فإنه على عكس ما روجته ايديولوجيا النظام العراقي السابق من أن "ضم الفرع الى الأصل" سيفتح الأفق نحو "تحول أو انعطاف ثوري" على المنطقة كلها، شكلت الحرب وتداعياتها لحظة مهمة في مسار تراجعي سلكه الوضع في العالم العربي، وأفضت الهزيمة العسكرية للنظام الدكتاتوري الى مجموعة من النتائج هي بمثابة استحقاقات اعتاد أن يفرضها المنتصرون في الحروب، ويمكن تلمس البعض منها في ما يأتي:

- باتت القوات الأمريكية في قلب المواقع التي تنام على بحار من البترول، العصب الحيوي للاقتصاد الأمريكي والأوروبي والياباني، في حين بدأت تذرع أساطيلها البحرية المنطقة ذهابا وإيابا وكأنها في نزهة. هكذا إذن تحولت أحلام راسمي الإستراتيجية الأمريكية في أن يكون للولايات المتحدة موطئ قدم على مقربة من المنطقة العربية، الى أكثر من حقيقة. فالقوات المسلحة الأمريكية، البرية والجوية والبحرية ايضا لا تقف على مقربة من المنطقة العربية، بل إنها اصبحت تقف فوق المنطقة ذاتها. كما استعادت الإمبريالية وقواها المسيطرة العديد من الامتيازات التي فقدتها في معارك سابقة مع حركة التحرر الوطني في البلدان العربية في أكثر من موقع. ومنذ لحظة توقيع "خيمة صفوان" المذلة استأنف الهجوم الإمبريالي على المنطقة العربية زخمه العسكري والسياسي، مستفيدا من الاختلال الذي نشأ في ميزان القوى الفعلي على الأرض ليملي شروط المنتصرين.

هكذا إذن بدأت نتائج الاختلال في ميزان القوى تنتقل ضغطا على الوضع السياسي في العالم العربي وتملي عليه المزيد من

التنازلات المعلنة والمكشوفة. هكذا إذن تم تنظيم الهجمة الإمبريالية المتجددة ليتم تدجين السياسات العربية وانخراطها في مدار السياسة الأمريكية. ويمكن القول أنه تم تنظيم عملية "مصالحة عربية" مع الإستراتيجية الأمريكية في المنطقة العربية وأتت "ثمارها" لاحقا في جملة من التغييرات في تناسبات القوى.

ويتعين التأكيد هنا ـ منعا لأي التباس ـ على أن الهجوم الإستراتيجي الأمريكي لم يكن هدفه مجرد استعادة المواقع القديمة التي افتقدتها الولايات المتحدة والدول الرأسمالية المتطورة الأخرى في المنطقة في عقود سابقة، بل كان هدف الولايات المتحدة الذي لم تكن تقبل بأقل منه هو فرض هيمنتها كاملة وغير منقوصة عبر الإمساك بمفاتيح الوضع السياسي في العالم العربي وتوجيهه بتلك الطريقة التي تكفل إعادة إنتاجه ضمن متطلبات الإستراتيجية الكونية الجديدة للولايات المتحدة.

لم تكن استعادة الإمبريالية لمواقعها دون نتائج سلبية طبعا على "النظام العربي" بشكل عام أو بين مكوناته، وتجلى ذلك بنشوء تحالفات جديدة وتحولات جديدة في نهج التنمية بهدف أن تكون تلك التحولات بمثابة مسببات للجنوح بعيدا عن "العاصفة المدمرة" و"الانحناء" أمام رياحها التي لا ترحم! هكذا إذن ولج التاريخ السياسي – الطبقي للعديد من الأنظمة العربية طور الارتداد التدريجي عن مكتسبات فترات تاريخية سابقة، لينخرط في طور الوضع السياسي السائد الذي تم تدجينه تحت حراب انتصار "قوى التحالف الدولي" في "حرب الكويت". وباستثناء جذوة المقاومة اللبنانية التي ظلت متقدة لفترة لأسباب عديدة، فإن أخطر ما حملته التداعيات التي تلت انتهاء الحرب هو الرهانات المفرطة واللامشروطة للحلول الأمريكية للعديد من قضايا الصراع، وفي مقدمتها الصراع العربي ـ الإسرائيلي.

ـ في ظروف هذا الاختلال الكبير في تناسب القوى الجديد الناتج عن عوامل عدة، نضجت على "نار هادئة" كل الشروط لتطويع القرار السياسي العربي للتصديق على الحل الأمريكي بوصفه الحل الممكن، والتسليم بدور الولايات المتحدة في إخراج قضايا المنطقة العربية من مأزقها المزمن (قبل "عاصفة الصحراء" بعقد تقريبا كان الرئيس المصري الاسبق محمد انور السادات قد صرح قائلا ان 99% من الحل بيد أمريكا). وفي مثل هذه الأجواء المختلة، حدث تحول جذري في "الإجماع العربي" تمثل بالانتقال من سياسة المواجهة الى سياسة "السلام"، وتنادى "العقلاء" للترويج للحلول الانفرادية، وساد الهدوء معظم جبهات المواجهة باستثناء الجبهة اللبنانية التي بقيت جذوة المقاومة فيها متقدة حتى توجت بانتصارها الباذخ في أواسط عام 2000.

ـ أشار د. برهان غليون [11] الى ملاحظة قوامها أن الولايات المتحدة قد نجحت من خلال المبادرة بالحرب ورفض التفاوض، في إعادة تأكيد السيطرة الأمريكية المطلقة على المصادر النفطية في الخليج. ويعطي هذا التحكم للولايات المتحدة، في صراعها من أجل تحقيق المنافسة مع التكتلات الصناعية الكبرى، هامشا أو أداة مناورة إستراتيجية لا تقدر بثمن. كما نجحت

الولايات المتحدة في تأكيد هيمنتها، أو قيادتها السياسية على العالم، بعد أن وجهت من خلال الحرب ضربة إجهاضية حقيقية للوحدة الأوربية، بما هي مشروع تكتل سياسي فاعل وليس مجرد سوق اقتصادية، كما نجحت في وضع اليابان وألمانيا الصاعدتين اقتصاديا تحت ضغط الحاجة النفطية التي تتحكم بها أمريكا. وفي ما يتعلق بالمستوى الإستراتيجي الإقليمي، ساهمت الحرب في تعزيز التفوق العسكري الإسرائيلي.

- انهيار "النظام الإقليمي العربي" في حرب الخليج التي جعلت من الولايات المتحدة تدعم سياستها الإستراتيجية في هذه المنطقة بنصف مليون جندي تحت مظلة الأمم المتحدة! وفي ظل التفكك العربي من جهة، وغياب الحليف الإستراتيجي من جهة أخرى، أصبحت الولايات المتحدة طليقة اليدين في رسم إستراتيجية طويلة المدى على هذه المنطقة التي تنام على بحيرة من النفط والموارد الطبيعية الأخرى.

وحسبنا اليوم، وبعد مرور 32 عاما على ما سمي بـ "حرب الخليج الثانية"، وعلى أساس التأمل، ولو بسرعة، في الإستراتيجية التي اعتمدها الولايات المتحدة لإدارة "الأزمة العراقية"، أن نستخلص عدة حقائق هي:

الأولى: تتمثل بالطبيعة المتغيرة للسياسة الأمريكية. ويعني ذلك أنه إذا كانت الولايات المتحدة تعتبر النظام السياسي الراهن في بلد ما مفيدا لها اليوم فإن هذا لا يعني أنها ستستمر على نفس السياسة في المستقبل بسبب أولوياتها التي تتغير بحسب الأهمية الإستراتيجية لمنطقة ما، في لحظة محددة، في إطار استراتيجيتها الكونية. لفترة طويلة ظلت الولايات المتحدة تنظر للأزمة العراقية بكونها "بؤرة توتر" تستخدمها لـ "تسخين الجو السياسي" في المنطقة، بين حين وآخر، وإجبار الآخرين على دفع مستحقات حمايتهم من عدوان النظام العراقي في حينه، من خلال الشفط الدائم للريوع النفطية.

الثانية: باتت الولايات المتحدة تنظر لمصادر التهديد في منطقة الخليج من "منظور عالمي" أي أنها لا تنظر إليها بمعزل عن التأثيرات المتبادلة بين بؤر التوتر التي توجد في أقاليم مختلفة في العالم، وبالتالي فإن الولايات المتحدة قد تسعى - من وجهة نظرها - الى تهدئة إحدى بؤر التوتر، بينما تسمح بقدر من التوتر أو السخونة في بؤر أخرى، وفقاً لتقديرات صناع القرار وراسمي الاستراتيجيات الكبرى في الإدارة الأمريكية لحجم وإلحاح "التهديدات" القائمة في كل بؤرة، أو مدى تأثير تفاعلاتها على المصالح الأمريكية.

والخلاصة أن الجهد الإستراتيجي للولايات المتحدة كان، بعد كل ما حدث، يتركز على محورين هما:

الأول: يتعلق الأمر بمقومات وأسس الترتيبات في وسط وجنوب آسيا والمحيط الهادئ. وهنا يجب أن نتذكر ما تحدث به لاحقا الرئيس الأمريكي الأسبق جورج دبليو بوش عند تسلمه الرئاسة في كانون الثاني 2001 وهو يحدد أولويات السياسة الخارجية للإدارة الجديدة، فقد أشار في حينه الى أن الأولوية رقم واحد للسياسة الخارجية للإدارة الأمريكية... وخياراتها الاستراتيجية هي المحيط الهادئ ووسط وجنوب آسيا. وعلينا أيضا ان نتذكر

هنا التحولات "العاصفة" التي شهدتها الاستراتيجية الأمريكية بعد 11 أيلول/ سبتمبر 2001 وفي مقدمة ذلك الانتقال من استراتيجية الردع والاحتواء الى استراتيجية "الهجوم الوقائي"، وهو تحول خطير في التفكير الاستراتيجي الأمريكي منذ أربعينيات القرن العشرين.

الثاني: يتعلق باستكمال الترتيبات في الشرق الأوسط لقيام تواصل يمتد من المغرب الى حدود الصين وجنوباً الى جنوب شرق آسيا والمحيط الهادئ.

والأهداف الآنية والبعيدة المدى التي كانت (ولا تزال طبعا) تسعى الاستراتيجية الأمريكية لبلوغها عديدة، ومن بينها على ما اعتقد:

- مراقبة تحركات الصين باعتبارها منافسا اقتصاديا وسياسيا وعسكريا حقيقيا، وقطع الطريق عليها لإقامة أية تحالفات تتيح لها الإطلال منها على دول أسيا الوسطى وإيران وبلدان الخليج الاخرى. إذ أن ذلك - بحسب الرؤية الاستراتيجية الأمريكية - يشكل تهديدا لهيمنتها على مكامن النفط في هذه المنطقة من جهة، ووأد طموحاتها في السيطرة على دول أسيا الوسطى والوصول إلى الاحتياطي الهائل القابع في بحر قزوين، من جهة أخرى.

- قطع الطريق على روسيا الاتحادية وتحجيم دورها في دول آسيا الوسطى، وبخاصة تلك التي تطل على بحر قزوين. والهدف من سيطرة الولايات المتحدة (إن تحققت) سوف تمكنها كذلك من تحجيم مشروع التحالف بين روسيا الاتحادية والهند، الذي يمكن أن يتنامى بوتائر قد تهدد الخطط الأمريكية الرامية إلى التواجد السياسي والاقتصادي والعسكري القوي للولايات المتحدة في أسيا الوسطى وجنوب أسيا والمحيط الهادي. ويظل منع تبلور محور دولي في هذه المنطقة أعمدته الأساسية الصين وروسيا أحد أهم أهداف الاستراتيجية الأمريكية وتواجدها الملموس في أفغانستان.

- مراقبة النشاطات النووية التي تجري في منطقة المصالح الحيوية للولايات المتحدة والتي تجري في بلدان عدة ومن بينها الهند وباكستان وإيران عن كثب. ولا شك أن التواجد في هذه المنطقة سيعين الولايات المتحدة على احتواء تلك النشاطات بحيث لا تشكل خطرا على ما تسميه "الأمن القومي الأمريكي".

ويعكس هذا التواصل جوهر الفكرة/ الأطروحة الملتبسة التي أطلق عليها في حينه "النظام الدولي الجديد" الذي كان يراد به أن يكون "الإنجيل الجديد" الذي يضبط "نظام الأحادية القطبية" ويفتح الأفق لانتقال الرأسمالية المتعولمة الى مرحلة جديدة يتم فيها تنميط الجميع وفقا لمقاسات المنتصرين في الحروب المكشوفة، أو في "حرب الأشباح" التي يجري الإعداد لها بين حين وآخر.

ولا بد من الاشارة هنا الى الحوار الثري والمتشعب الذي دار في مطلع التسعينات حول طبيعة خارطة العلاقات الدولية الجديدة، وقد افضى الى رؤيتين متضاربتين:

- تذهب احداهما الى ان القرن الجديد سيكون قرنا امريكيا آخر، بالنظر لما تجمع للولايات المتحدة من عناصر قوة اقتصادية واستراتيجية، مستمدة من طبيعة النموذج الأمريكي.

- في حين ذهب البعض الآخر الى تصور مضاد قوامه ان العالم سائر نحو نمط من التعددية القطبية لا يمكن ان تختزل في الأبعاد العسكرية والإستراتيجية. بل ان اركانها اما اقتصادية او حضارية، داخل العالم المتقدم ذاته (التباين بين المركز الأوروبي الموحد والقطب الآسيوي الصيني - الياباني) او على خطوط التصدع بين ''الشمال'' و''الجنوب''.

ولا شك ان الرؤيتين ظلتا اسيرتي البراديغم Paradigm ذاته، اي نموذج الصراع القطبي بخلفيته المحصورة في عنصر الدولة القومية ذات السيادة والمجال الحيوي، وهو نموذج استنفد أغراضه، ولم يعد صالحا لضبط الخارطة الجيوستراتيجية.

فما كشفت عنه لاحقا احداث 11 ايلول/ سبتمبر 2001 هو ان هذه الخارطة تضم مكونات ثلاثة متعايشة وان كانت متنافرة ومتمايزة وهي: الدولة القومية التي لا تزال لاعبا اساسيا رغم ما يقال عن نهايتها او انتكاستها [12]. والسوق الدولية التي غدت خارج كل رقابة وسيطرة وان لم تفرز بعد آليات دقيقة لتنظيم اطر اشتغالها والعلاقات التي تحكم عناصرها. و''الشبكات الرمادية'' المنفلتة من قبضة الاجهزة المركزية للدولة من دون ان تعبر بالضرورة عن مصالح ونوازع قوى اقتصادية كونية (الشركات العابرة للقارات)، وإنما تتخذ صيغا اكثر بروزا في السياق الاثني/ القومي او الديني. ان تعايش وتصادم هذه المكونات الثلاثة، هما اللذان يشكلان المحدد الأبرز للخارطة الدولية الجديدة.

والخلاصة، كانت حملة ''عاصفة الصحراء'' حربا فعلية وليست فقط ''تمريناً تعبوياً بالذخيرة الحية'' لوضع معالم الإستراتيجية الكونية الجديدة للولايات المتحدة موضع التنفيذ الفعلي. وقد شكلت هذه الإستراتيجية لاحقا قاعدة أو أساسا للعقيدة الجديدة لحلف الأطلسي التي تم إقرارها في ''احتفال بهيج'' أثناء انعقاد قمة حلف شمال الأطلسي في واشنطن خلال الفترة 23 - 25 أبريل (نيسان)/ 1999، وفيها تم تحديد المهمات الجديدة التي يتعين على الحلف توليها خلال القرن الحادي والعشرين. هذا مع العلم أن هذا الاحتفال انعقد في وقت كانت فيه طائرات وصواريخ حلف الناتو تعربد فوق سماء دولة عضو في الأمم المتحدة هي يوغسلافيا التي تقع في وسط أوروبا، والتي تم كذلك تدميرها ومعاقبة شعبها بجريرة دكتاتور آخر هو سلوبودان ميلوشيفيتش Slobodan Milošević (1941- 2006) الذي كان قابعا في بلغراد، بحجة الدفاع عن ألبان كوسوفو! المفتتح هنا هو ان ثمة سؤالا يطرح نفسه: لماذا أقدم حلف الناتو على هذا العمل العسكري في هذه اللحظة بالذات، وهل كان ذلك ضرورياً؟

ظاهرياً، يبدو أن السبب المباشر للحرب هو رفض الرئيس اليوغسلافي آنذاك (سلوبودان ميلوشيفيتش) التوقيع على اتفاق رامبويه. فهذا الاتفاق كان يمنح إقليم كوسوفو حكماً ذاتياً جوهرياً، ويبقيه تحت السيادة الشكلية لبلغراد، ويدعوها الى سحب قواتها، وينص على تجريد جيش تحرير كوسوفو من أسلحته، ويتحدث عن عودة الى درس الموضوع بعد فترة انتقالية من ثلاث سنوات. والشق الثاني من الاتفاق يوكل الى حلف شمال الأطلسي، عبر قوة

من حوالي ثلاثين ألف جندي، أمر الإشراف والرعاية على التطبيق.

وعلى الرغم من أهمية السبب أعلاه (رفض الرئيس اليوغسلافي) فإنه غير كاف، بمفرده، لتفسير الخطوة التي أقدم عليها حلف شمال الأطلسي بشن حربه على يوغسلافيا.

ظاهرياً كانت الأهداف الحقيقية لحرب البلقان هي حماية سكان كوسوفو ومنع حصول كارثة هناك، وتقليص القدرات العسكرية للجيش اليوغسلافي لإجباره على العودة الى طاولة المفاوضات. غير أن تطور الحملة العسكرية والقصف الجوي الواسع يتيح الاستنتاج بأن هذه هي الأهداف المعلنة وليس بالضرورة هي الأهداف الحقيقية لتلك الحملة الواسعة، أي أن الأهداف العسكرية للحملة تجاوزت بكثير الأهداف المعلنة. ولا يمكن فهم أهداف الحملة العسكرية الأطلسية على كوسوفو بمعزل عن ربطها والنظر اليها ضمن أهداف الإستراتيجية البعيدة المدى للولايات المتحدة التي كانت تسعى لفرضها مستفيدة من الأوضاع العالمية الجديدة، خصوصاً بعد انهيار الاتحاد السوفيتي واختلال التوازن الدولي الذي كان قائماً.

ويكمن جوهر هذه الإستراتيجية في مسعى الولايات المتحدة لإعادة رسم الخارطة الجغراسياسية العالمية ومحاولة تكريس الهيمنة الأمريكية الشاملة والتحكم بالنظم السياسية للدول وتهميش سيادتها لفرض السيطرة والتبعية على الشعوب، لكي تخضع للمركز الإمبريالي وسياساته بشكل صارم.

ومن هنا يمكن فهم مغزى العمل الذي قامت به الإدارة الأمريكية ومسعاها المحموم لتوسيع حلف الناتو الذي تكلل لاحقا بضم ثلاث دول من دول حلف وارشو السابق (بولندا، جيكيا، المجر) لهذا الحلف في محاولة لتكريس ما يمكن تسميته، بحسب بعض الكتاب [13]، بالعولمة العسكرية المرتبطة بالبنتاغون والذي بات يلعب دور الدركي العالمي.

الهوامش:

1- قارن: السيد يسين، «التحليل الثقافي لأزمة الخليج»، المستقبل العربي، العدد 6/1991، ص 30 ولاحقا.

2- لمزيد من التفاصيل قارن: كامل شياع، «ثلاثة أسئلة عن حرب الخليج الثانية»، «الثقافة الجديدة»، العدد 326 – 327/ 2008، ص 30.

3- لمزيد من التفاصيل حول مفهوم الشرعية الدولية قارن: لطفي حاتم، التشكيلة الرأسمالية العالمية والشرعية السياسية للدولة الوطنية، ط 1، كوبنهاغن، الاكاديمية العربية ألمفتوحة، 2012، ص 42 ولاحقا.

4- لمزيد من التفاصيل قارن: موفق محادين، «الاقتصاد السياسي للتسوية»، «دراسات اشتراكية»، العدد 153 – 154، ص 19 ولاحقا؛ كذلك: صالح ياسر حسن، «الاقتصاد العالمي كمستوى للتحليل النظري – ملاحظات منهجية ونظرية»، «النهج»، العدد 35 – 36 /1999، ص 189 ولاحقا؛ كذلك: صالح ياسر حسن، «موضوعات حول الاتجاهات والآليات الجديدة في القسمة الدولية الرأسمالية للعمل»، «دراسات عربية»، العدد 4/1985، ص 34 ولاحقا؛ كذلك: فؤاد مرسي، الرأسمالية تجدد نفسها، سلسلة «عالم المعرفة»، (147)/ اذار 1990؛ كذلك: بيتر روسلي، «نماذج النسق العالمي الحديث». في: «ثقافة العولمة». القومية والعولمة والحداثة، اعداد مايك فيذرستون، ترجمة عبد الوهاب علوب، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 1999، ص 85 – 98.

5- شكلت حصة البلدان العربية 55.2% من اجمالي الاحتياطيات النفطية العالمية المؤكدة في عام 2021، في حين شكلت 27.4% من اجمالي الانتاج العالمي من النفط الخام. لمزيد من التفاصيل قارن: صندوق النقد العربي، التقرير الاقتصادي العربي الموحد 2022، ص 5.

6- لمزيد من التفاصيل قارن: صالح ياسر حسن، الريوع النفطية وبناء الديمقراطية – الثنائية المستحيلة في اقتصاد ريعي، بغداد: مركز المعلومة، 2013).

7- لمزيد من التفاصيل حول الدولة الريعية التسلطية قارن على سبيل المثال لا الحصر: خلدون حسن النقيب، الدولة التسلطية في المشرق العربي المعاصر: دراسة بنائية مقارنة، ط 2، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1999؛ كذلك: صالح ياسر حسن، الريوع النفطية وبناء الديمقراطية...، مصدر سبق ذكره؛ كذلك: حازم الببلاوي، «الدولة الريعية في الوطن العربي»، ورقة مقدمة الى: الامة والدولة والاندماج في الوطن العربي (ندوة)، تحرير غسان سلامة وآخرون، ج 2 ، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1989؛ كذلك: عبد الله جناحي، «العقلية الريعية وتعارضها مع مقومات الدولة الديمقراطية»، المستقبل العربي، السنة 25، العدد 288 (شباط/فبراير 2003)، ص 52 – 68؛ كذلك: النفط والاستبداد. الاقتصاد السياسي للدولة الريعية، مجموعة مؤلفين، ط 1، بغداد – بيروت – أربيل: معهد الدراسات الاستراتيجية، 2007.

8- عالجت بالتفصيل في عمل مستقل الاقتصاد السياسي لهذه الازمات. لمزيد من التفاصيل قارن: صالح ياسر حسن، الاقتصاد السياسي للأزمات الاقتصادية في النسق الرأسمالي العالمي، محاولة في فهم الجذور، بغداد: دار الرواد المزدهرة 2011.

9- كنت قد عالجت سابقا هذه المشاريع بشكل انتقادي ومفصل وصدر في عددين متتاليين في مجلة «الثقافة الجديدة». لمزيد من التفاصيل قارن: صالح ياسر حسن، «مساهمة في قراءة مشاريع ملتبسة لحل القضية العراقية»، «الثقافة الجديدة»، العدد 289 (تموز – آب 1999)، ص 68 – 85 و العدد 290 (ايلول – تشرين الاول 1999)، ص 11– 20.

10-قارن برهان غليون، «حرب الخليج والمواجهة الاستراتيجية في المنطقة العربية»، «المستقبل العربي»، العدد 6/1991، ص 8.

11-لمزيد من التفاصيل حول هذه الاشكالية قارن على سبيل المثال: بول هيرست، غراهام تومسون: العولمة والدولة القومية. (في:) ما بعد الماركسية. إعداد فالح عبد الجبار، دمشق، دار المدى للثقافة والنشر، 1998؛ كذلك:

Robin Murray : The International Lisation of Capital and the Nation State, New Left Review, May June 1971, pp 84 –108؛

Leo Panitch : Globalisation and the State (in:) Beteen Globalism and Nationalism. Socialist Register 1994, pp.60 – 91

12-السيد مصطفى أحمد ابو الخير، تحالفات العولمة العسكرية والقانون الدولي، القاهرة: إيتراك للنشر والتوزيع، 2005.

13- The Guardian, 9/2/1991

نقد الحداثة عند إدغار موران *

محمد مستقيم
باحث من المغرب

في نقد الحداثة أو الحداثة البعدية

إنّ خطاب نقد الحداثة كما ظهر في المجتمعات الغربية والذي يكشف عن أعطابها وتأثيراتها السلبية على الإنسان والمجتمع والبيئة، خطاب مألوف عند المثقفين والمفكرين الغربيين، وهذا شيء طبيعي ما دامت الروح النقدية تشكل إحدى الخصائص الكبرى للعقل الحديث. فمنذ عصر التنوير أصبح النقد شاملا لكل شيء، يطال الفكر والدين و العلم والمجتمع والدولة، بل إن المشروع الفكري للفيلسوف الألماني "إيمانويل كانط" شكل منعطفا حاسما في تاريخ النقد عندما أصبح العقل نفسه معرضا للمساءلة والمراجعة وإعادة النظر في مبادئه وطريقة إنتاجه للمعارف المختلفة، (نقد العقل الخالص - نقد العقل العملي - نقد ملكة الحكم - الدين في حدود مجرد العقل). فالنقد إذن ليس أداة للنفي والهدم والقطيعة النهائية بل هو إعادة بناء على أسس جديدة تسعى إلى تحريك الإبداع والتغيير في كل مجالات الحياة البشرية. لذلك ينبغي الانتباه إلى جوانب التضليل التي تتضمنها عبارات مثل: "نهاية الحداثة" أو "ما بعد الحداثة". إن الأمر ليس بهذه البساطة، لأن التحولات الكبرى التي تعرفها المجتمعات الغربية المعاصرة تجعل من المشاريع الفكرية كلها أشياء غير مكتملة، خاصة وأن الثقافة الغربية تُسائل ذاتها باستمرار وتعمل على تجاوز العناصر التي لا تتلاءم مع تلك التحولات، وهو ما يؤدي بين الفينة والأخرى إلى ظهور مصطلحات وتوصيفات جديدة مثل ما بعد الحداثة، ما بعد الإيديولوجيا، ما بعد البنيوية، ما بعد الكولونيالية، ما بعد الفلسفة، ما بعد الدين... إن خطاب الما بعد يشتغل داخل فضاءات العقل الحديث وليس خارجها وهو لا يعني تصفية حساب تامة مع ما قبل، بل يتعلق الأمر بظواهر ناتجة عن المنعطفات الكبرى التي تعرفها المجتمعات الأوروبية، فالثورة والنقد والتجاوز هي من خصائص هذا العقل الذي تظافرت الكثير من الشروط التاريخية على بروزه.

إدغار موران والابستمولوجيا المعاصرة

يعد الفيلسوف الفرنسي "إدغار موران" أحد أعلام الفكر الإنساني المعاصر بالنظر

إلى أعماله المتعددة التي جمعت بين البحث السوسيولوجي والفكر الفلسفي والدراسات السياسية. وهو من المنادين بتكسير الحدود بين أنماط المعرفة الإنسانية. من أهم العناوين التي يتشكل منها المشروع الفكري والنقدي لإدغار موران عنوان: الفكر المركب الذي أراد من خلاله إعادة النظر في منطلقات الأبستمولوجيا الكلاسيكية القائمة ذات النسق الدوغمائي المرتكز على منطق التبسيط والاختزال والثنائيات الإقصائية والعقل المنغلق المرتكز على مبادئ مطلقة. الشيء الذي أدى إلى إنتاج معرفة مشوهة كانت وراء الأزمة التي عاشها العقل الكلاسيكي منذ عصر النهضة. لقد سعى موران إلى طرح بديل يتجلى في اقتراح نموذج معرفي جديد يقوم على التفكير المركب القائم على براديغم الانفتاح والحوار النقدي. فعالم اليوم عالم مركب ولانهائي وديناميي متحول باستمرار، لذلك فإن الطريق الأنسب لتمثل هذا العالم في تحولاته هو تبني الابستمولوجية المركبة.

يتجلى البعد الابستمولوجي في فلسفة إدغار موران في انخراطه في النقاش الذي يسعى إلى بناء تصور جديد للعقل يستند إلى نتائج الثورة العلمية المعاصرة، وهذا ما أدى إلى بروز عقلانية جديدة أطلق عليها نعت العقلانية المنفتحة، التي تجاوزت الأطر التقليدية للعقل الكلاسيكي المرتكز على المبادئ المنطقية التي وضع أسسها الفيلسوف اليوناني أرسطو مثل مبدأ الهوية ومبدأ عدم التناقض ومبدأ الثالث المرفوع ومبدأ السببية. وقد تعززت هذه العقلانية الكلاسيكية مع فلسفة ديكارت وامتدت إلى حدود القرن التاسع عشر. وقد تميزت العقلانية المعاصرة بمجموعة من الخصائص من بينها رفض التصور الذي يعتبر العقل واحدا وكونيا يتميز بالثبات والاكتمال، لأن العقل طبقا لهذا التصور المعاصر هو ظاهرة تاريخية ونسبية يحتاج دوما إلى المراجعة النقدية لمبادئه ووسائله في إنتاج المعارف. بالإضافة إلى ذلك فليس هناك حدود فاصلة بين العقل واللاعقل كما تبين العقلانية الكلاسيكية، فالعقل العلمي ينطوي على اللاعقل، وقد تتسرب إلى عقول العلماء أفكار خاطئة بصورة لا واعية تكون بمثابة تشكل عوائق في وجه تقدم المعرفة العلمية كما بين ذلك غاستون باشلار، واكتشاف هذه الأخطاء وتصحيحها يساهم بالفعل في هذا التطور فتاريخ العلم ليس تاريخا للحقائق المتراكمة بل هو تاريخ أخطاء التي يرتكبها العلماء السابقون ويكتشفها اللاحقون عليهم. كذلك أصبحت العقلانية العلمية المعاصرة منفتحة على التجارب العلمية وليس متعارضة معها كما كان يعتقد من قبل، فالعلم التجريبي علم معقلن لأنه لا يستغني عن البعد الرياضي في صياغة نظرياته العلمية. ما فتئ إدغار موران يدعو باستمرار إلى الاستفادة من الدرس الأبستمولوجي المعاصر خاصة مع رواده الكبار أمثال باشلار وكارل بوبر وتوماس كون، فالعلم لا يستمر إلا عن طريق الجدل والنفي والقطائع وليس عبر التراكم وتبني الأفكار اليقينية فليست هناك حقائق ثابتة ومطلقة في مجال المعرفة العلمية. إن النظرية العلمية الصالحة والصادقة هي التي تترك مكانها لنظرية علمية أخرى بعدما يتم تكذيب فرضيات النظرية الأولى وهذا ما يجعل العلم يتقدم ويتطور باستمرار. كما أن العلماء يتخلون عن النموذج الذي كانوا يستظلون تحته عندما يعجز عن الإجابة على

التساؤلات التي يطرحها راهنهم العلمي، فيستبدلونه بنموذج جديد أي أنه يدخلون براديغم جديدا حسب تعبير توماس كون.
انطلاقا من هذا الفهم الجديد للعقل البشري وللمعارف التي ينتجها يتحدث إدغار موران عن أهمية اعتبار التعقيد أو التركيب مبدءا أبستمولوجيا لتجاوز التصور التقليدي للمعرفة والأحكام المسبقة والمعرفة اليومية، ثم قيمة اللايقين في قراءة ظواهر الواقع.

نحو أبستمولوجيا للتعقيد

1 - لا يقين المعرفة ولا يقين العالم

يرى إدغار موران بأنه ليست هناك معرفة بدون أخطاء وأوهام، بل إن المنظومات المتحكمة في العلم قد تساهم في إنتاج أوهام متعددة، ولا وجود لأية نظرية علمية بعيدة عن الخطأ بشكل مطلق، لكن تطور العلوم والمعارف الإنسانية هو الكفيل بالكشف عن تلك الأخطاء ومحاربة الأوهام الناتجة عنها، وهذه من المهام التي ينبغي أن تقوم بها التربية[1]. من هنا تأتي أهمية العقلانية في الحماية ضد الأخطاء والأوهام، شريطة أن تكون عقلانية منفتحة ولا تتحول إلى مذهب منغلق خاصة عندما تصبح عقلانية تبريرية قائمة على أسس مشوهة، فيتسرب إليها الخطأ والوهم، والتبرير العقلاني يحدث عندما يوظف مذهب ما نموذجا آليا وحتميا في قراءة العالم [2]. مؤكدا في نفس الوقت بأن العقلانية ليست حكرا على الحضارة الأوروبية كما كان يعتقد لمدة طويلة، وأن باقي الشعوب والثقافات حاملة للأخطاء والأوهام والتخلف، والسبب في هذا الحكم الجائر هو الانطلاق من معيار الإنجازات التكنولوجية. في حين أننا نجد، في كل مجتمع، بما في ذلك المجتمع البدائي، حضورا قويا للعقلانية في طريقة صياغة الأدوات وتقنيات الصيد ومعرفة النباتات والحيوانات والمحيط، بالموازاة مع حضور الأسطورة والسحر والدين. وفي المقابل فإن المجتمعات الغربية ذاتها حبلى بالأساطير والسحر والدين بما في ذلك أسطورة العقل وأسطورة التقدم. لذلك فإن إدغار موران يرى بأن العقلانية هي الاعتراف بوجود أساطيرنا الخاصة. من هنا تنطلق الضرورة الملحة للاعتراف بمبدأ اللايقين العقلاني ما دام أن العقلانية تظل مفتوحة دوما على احتمال تحولها إلى وهم التبرير العقلاني إذا لم تمارس على ذاتها نقدا ذاتيا دائما. "إن العقلانية الحقيقية ليست فقط نظرية وليست فقط نقدية ولكنها تقزم أيضا بنقد ذاتي مستمر"[3].

من هنا، فإن إدغار موران يعتبر الرؤية التجزيئية في مجال المعرفة العلمية ظلت مسيطرة على العقل الغربي منذ العصر الحديث إلى منتصف القرن العشرين، حيث كانت أغلب العلوم تشتغل وفقا لمبدأ الاختزال الذي يقوم على فكرة الحتمية ويؤدي إلى اختزال ما هو مركب في البسيط، مع إقصاء كل ما لا يقبل التكميم والقياس، وتهميش الأهواء والعواطف والمعاناة والفرح وقمع الصدفة والجديد الشيء الذي يضع سدا منيعا ضد الإبداع والابتكار البشري [4]. إن هذه الرؤية تشتت مركب العالم إلى قطع منفصلة، فتتجزأ المشاكل ويتم اختصار الأبعاد المتعددة إلى بعد واحد، الشيء الذي يقتل مهارات الفهم والتأمل ويؤدي إلى بناء الأحكام قصيرة المدى، يقول إدغار موران: "بقدر ما تصبح المشاكل متعددة الأبعاد بقدر ما يتعذر تمثلها في تعدد أبعادها، وبقدر ما تستفحل الأزمة

بقدر ما تكبر صعوبة التفكير في الأزمة، وبقدر ما تكون المشاكل كوكبية بقدر ما يتم غض الطرف عنها نهائيا. إن عجز الرؤية العمياء عن تمثل السياق والمركب الكوكبيين هو الذي يجعل كل واحد غير واع وغير مسؤول تماما"[5].

يردد موران باستمرار بأن العصر الذي نعيش فيه هو عصر اللايقين في مقابل العصور القديمة التي كانت تركن إلى اليقينيات من خلال فكرة وجود زمن دوري يتعين علينا أن نضمن حسن سيره. إن انهيار اليقينيات جاء نتيجة لانهيار أسطورة التقدم، والتقدم كما يقول موران "شيء ممكن ولكنه غير يقيني. وعلاوة على لا يقينية المستقبل، تنضاف كل أنواع اللايقين الناجمة عن السرعة الفائقة، وعن تسارع السيرورات المعقدة والعشوائية التي شهدها عصرنا الكوكبي، والتي ليس في مقدور الفكر الإنساني، ولا في مقدور حتى أقوى حاسوب ولا أي مارد - كما قال بذلك لابلاس - أن يتحكم فيها" [6]. من هذا المنطلق فإن المعرفة الإنسانية تصبح بدورها مغامرة لا يقينية مادامت معرضة دوما للخطأ والوهم. لكن الوعي بهذه الخاصية اللايقينة للفعل المعرفي هو الذي يسمح لنا ببلوغ معرفة ملائمة بعد رحلة طويلة من الفحص والتحقق وتجميع المؤشرات. المعرفة إذن إبحار في محيط من اللايقينيات، مرورا بأرخبيلات من اليقينيات. وإذا كانت الأفكار والنظريات لا تعكس الواقع بل تترجمه أحيانا بطرق مغلوطة، فإن الواقع ليس في النهاية سوى فكرتنا عن الواقع من خلال تأويلنا له، وهذا دليل على تعقده ولا يقينيته وهو ما يجعل قراءته ليس مسألة بديهية [7]. علينا إذن أن نتعود على الاعتراف باللايقين والتسلح لمواجهته باستمرار مادام التخلص منه يبقى مسألة مستحيلة بل يدخل في باب الوهم. ومن أجل التشبث بأمل الوصول إلى عالم أفضل ينبغي أن ندرك كذلك أن الانطلاق من فكرة اللاحتمال والمراهنة على ما هو غير محتمل الذي قد يتحقق أكثر من المحتمل [8].

2 - الإنسان المركب والفكر المركب

الإنسان المركب عند إدغار مروان هو الكائن الذي يعكس طبيعة النسيج الإنساني بامتياز فهو كائن طفولي وعصابي، هذياني وعاقل في نفس الوقت. والسبب في ذلك هو طاقته الوجدانية المكثفة التي تجعله يضحك ويبكي، جاد، ومتهور، عنيف وحنون، كائن يتحلى بالخيال بقدر ما يرتبط بالواقع، ينتج الأسطورة والمعرفة العلمية والفلسفية، يعبد الآلهة وينتقد الأفكار، يخلط بين الذاتي والموضوعي وبين الأوهام والعقل. لذلك يرى موران بأن الجنون هو قضية مركزية عند الإنسان وليس مرضا أو شيئا زائدا، ولم يحدث أن تسبب الجنون في انقراض النوع البشري بينما التقنية العقلانية يمكن أن تكون قادرة على اقتياد البشرية إلى نهايتها. لذلك فعملية التعقيد تتطور من خلال هذه العلاقة الحوارية بين العقل والجنون، بل إن الإنجازات البشرية تقع دوما، تحت قبضة القيادة المزدوجة للعقل والجنون [9].

يعرف موران التعقيد على المستوى الاصطلاحي بأنه مشتق من الكلمة اللاتينية complexus التي تعني ما هو منسوج مع بعضه البعض، فالأحداث ليست منعزلة بل تقع ضمن سياق ما يتواجد هو بدوره ضمن سياق أكبر. التعقيد إذن هو "نسيج من المكونات المتنافرة المجمعة بشكل يتعذر معه التفريق بينهما، إنه يطرح مفارقة

الواحد والمتعدد. فالتعقيد هو نسيج من الأحداث والأفعال والتفاعلات والارتدادات والتحديدات والمصادفات التي تشكل عالمنا الظاهراتي" [10]، لذلك يرى بأن كل محاولة تسعى إلى إقصاء أي عنصر من عناصر هذا التركيب فإنها تصيب العقل بالعمى. هذا الأخير الذي أصبح يشكل جزءا من بربريتنا ويجعلنا نفهم بأننا ما زلنا نعيش في عصور ما قبل التاريخ، لكن الفكر المركب وحده من سينقذنا من هذه البربرية ويمكننا من تحضير معرفتنا [11]. بالإضافة إلى البعد الفلسفي للتعقيد الذي عبر عنه الفيلسوف الألماني فرديريك هيجل بمفهوم الجدلية حين أقحم التناقض والتحول في قلب الهوية.

وعلى الصعيد العلمي ظهر التعقيد في العلم قبل الإعلان عن اسمه في القرن العشرين في مجال الميكروفيزياء والماكروفيزياء. بالإضافة إلى ثورة السيبرنطيقا وعلاقتها بظواهر التنظيم الذاتي [12]. تبين العلوم الفيزيائية بأنه يستحيل التفكير في الكون بلغة بسيطة، حيث اصطدمت الميكروفيزياء بمجموعة من المفارقات تتعلق بطبيعة المادة في علاقتها بالتناقض الداخلي للذرة، ثم اكتشاف أن ذرات معينة تتواصل بسرعات لا نهائية، وهذا دليل على أن هناك أشياء تنفلت من الزمان والفضاء [13]. أما المبادئ التي تساعدنا على التفكير في التعقيد فقد حصرها موران في ثلاثة مبادئ وهي:

المبدأ الحواري: تؤكد العلوم الكيمائية المتعلقة بجسم الكائن الحي أن الحياة على مستوى الخلايا تتراوح بين الاختلال والاندثار وبين التوالد والاستمرار، فكل طرف يلغي الآخر لكنه يتكامل معه في نفس الوقت بل يتعاونان وينتجان التنظيم والتعقيد، وهذا هو مبدأ الحوار الذي يحافظ على التعارض داخل الوحدة. الشيء الذي يسمح للفكر بالتعامل مع هذه التناقضات في إطار الجمع بين الحدود المتكاملة والمتعارضة في نفس الوقت [14].

مبدأ الارتداد التنظيمي، ويقصد به مبدأ السببية الدائرية حيث يمكن أن يحدث داخل المنظومات المعقدة تبادل للأدوار فتصبح الأسباب نتائج والنتائج أسبابا، وهذا ما يحدث مثلا على المستوى السوسيولوجي فالأفراد مثلا ينتجون المجتمع الذي ينتج الأفراد. لقد تجاوز هذا المبدأ مفهوم السببية الكلاسيكي المعتمد في النموذج الاختزالي، حيث التفاعل يتم بشكل بسيط بين السبب والنتيجة، فعندما تحدث زوبعة ما في الطبيعة فإن كل لحظة من لحظاتها في الوقت ذاته علة ومعلول[15].

المبدأ الهولوغرامي، المقصود بالهولوغرام هو الاحتواء المتبادل بين الكل والأجزاء، فالكل داخل الجزء والجزء داخل الكل. فمثلا من الناحية البيولوجية نجد أن كل خلية في جهازنا العضوي تضم مجموع المعلومة الجينية لهذا الجهاز ككل. عكس النزعة الاختزالية التي لا ترى سوى الأجزاء والنزعة الكلية التي لا ترى سوى الكل. وعلى المستوى السوسيولوجي نجد كذلك أن الفرد يوجد في المجتمع وكذلك المجتمع يوجد داخل الفرد، من خلال قنوات اللغة والثقافة والتقاليد التي تترسخ في الفرد ويصبح حاملا لها منذ طفولته. ومن هنا فإن الهولغرام مرتبط بالارتداد التنظيمي وكذلك بالمبدأ الحواري [16].

هذه هي الأسس الابستمولوجية لفكر التركيب عند إدغار موران والتي تساعد الباحث على إدراك مبدأ التعقيد في الظواهر الطبيعية والإنسانية عبر إدراك أبعادها المعرفية

المتعددة والمتداخلة وهو ما يؤدي إلى بناء رؤية شمولية ومنفتحة، تسهل عملية فهم العالم الداخلي والخارجي للإنسان في هذا العالم بصورة موضوعية.

أزمة الحداثة الغربية

من هذا المنطلق يمكن إدراج النقد الذي ما فتئ إدغار موران يوجهه للحضارة الغربية من خلال الكشف عن تناقضاتها وأساطيرها ضمن خانة نقد الحداثة أو ما يسمى بالحداثة البعدية التي هي تطور للحداثة وتجاوز للكثير من هفواتها وأخطائها وأوهامها. يعرف موران الحداثة بأنها ظاهرة مركبة ومعقدة، ويصعب تحديدها من خلال عنصر واحد أو عامل واحد. فقد ظهرت الحداثة استجابة لعدة شروط تاريخية وسياسية واقتصادية وفكرية تراوحت بين سقوط الإمبراطورية البيزنطية أو سقوط القسطنطينية واختراع المطبعة واكتشاف أمريكا وظهور نظريات جديدة في علم الفلك وتطور الفكر الفلسفي الحديث متأثرا بالثورة العلمية في هذه العصور الحديثة، يقول: "وعليه فلكي نعرف هذا التنوع المضطرم، المتمثل في الحداثة ليس علينا أن ننطلق من عنصر وحيد، أو من مجرد تاريخ للميلاد لأنه في الحقيقة مفهوم كبير غامض الحدود. وعليه فإن جوانب الحداثة متكاملة ومتعارضة" [17]. إن هذه الوضعية المعقدة تتجلى في أن العلم أصبح يعيش عدة مفارقات ويرتبط أكثر بالتقنية والاقتصاد، ويتطور عن طريق المنافسة، كما أن تقدم الدول القطرية أصبح يمر عبر الصراع، ومع ذلك فإن هذه الحضارة تزداد انتشارا رغم أن مفتاحها الأساس هو الفردانية، لكن أبرز مفارقة تقوم عليها الحداثة هي أن هذا العهد الكوكبي الذي يسعى إلى أن يجانس بين كل سيئ قد أفرز ظواهر أخرى مثل البلقنة والانكماش ومقاومة هذه الهيمنة الغربية والاحتجاج ضدها [18].

يرى إدغار موران أن إحدى أهم خصائص الفكر الحديث كما ورثه عن الديكارتية هو الفصل بين الفكر والمادة الشيء الذي أدى إلى تطور كل واحد منهما على حدة، الشيء الذي أدى إلى الفصل كذلك بين ثقافة النجاح والمال والسلطة من جهة وثقافة الإحساس والروح والشعر من جهة أخرى، رغم أن الفكر الحديث لا ينفي هذه الازدواجية بين القطبين المذكورين، بل هو يمدها بأسباب وجودها وهذا دليل على أن الحداثة تنتج نقيضها وتكبته في نفس الوقت [19].من جهة أخرى يحدد موران ثلاثة عناصر يعتبرها بمثابة أساطير للحداثة وهي التقدم والتحكم والسعادة. لقد انهارت فكرة التقدم أمام الحربين العالميتين وظهور الفاشية والستالينية بل إنها تعرضت للتفكك بعد سقوط جدار برلين وأصبح الأمر يتعلق بفرضيات أو سيناريوهات لا غير. أما بخصوص الأسطورة الثانية فكلما زاد تحكمنا في القوى المادية زدنا انحطاطا بالمجال الحيوي، وقد برهن العلم على أن النظام الشمسي لا يخص سوى ضاحية صغيرة من العالم، وأننا بعيدون عن كل سيطرة شاملة على العالم. وبخصوص السعادة فإن أزمتها بدأت عندما أدرك الناس أن المنتجات الإيجابية للسعادة تتبعها منتجات سلبية مثل التعب والتلوث والإفراط في استعمال المهدئات والمخدرات، وما نتج كذلك عن النزعة الفردانية التي تهدم كل أشكال التضامن والتكافل، الشيء الذي خلق مخاطر جديدة أصبحت تهدد وجودنا

[20]. إن هذه الأزمة حسب موران هي التي أدت إلى ظهور مفاهيم مثل "الحداثة المتأخرة" أو "ما بعد الحداثة"، فما هو الاسم الجديد الذي سنطلقه على ما سيحدث مستقبلا من تطورات وتحولات، لكن موران لا يكترث بأمر التسمية لأن المهم هو أن نتبع السيرورات، لذلك ينبغي في نظره أن نستمر في فهم الحداثة بما هي سيرورة زوبعية أو تكرارية، يشترك كل عنصر من عناصرها في صنع العناصر الأخرى. كما ينبغي المراهنة على اللامحتمل حتى نزداد ثقة في بعض قدراتنا التوالدية الفردية والجماعية يقول: "إن الكائن البشري ينطوي على استعدادات للتحول الذاتي تتنبه في حالات الأزمة، عندما تأخذ الأشياء المتصلبة في التفكك في مواجهة المخاطر. ولذلك فأنا أومن بإمكانية توليد كلية جديدة عن طريق إدماج مختلف حضارات الشمال وحضارات الجنوب وحضارات الشرق وحضارات الغرب في بعضها" [21] حتى نتمكن من استثمار القدرات الخلاقة في الكائن البشري وهذا هو السبيل من أجل الخروج من هذا الوضع الكارثي والشروع في بداية جديدة.

في نقد البربرية الأوربية وثقافتها

أبرز كتاب خصصه إدغار موران لبربرية الحضارة الأوربية هو كتاب "ثقافة أوروبا وبربريتها" الذي يضم ثلاث محاضرات قدم فيها قراءة جديدة لتاريخ الثقافة الغربية من خلال تحليل مظاهر البربرية التي طبعت هذا التاريخ والمفارقات المصاحبة له، فالتقنيات التي أنتجها الإنسان هي مثل الأفكار أحيانا تصبح مضادة له. وقد كشف في المحاضرة الأولى التي تحمل عنوان "بربرية أوروبا" بأن الأزمنة الحديثة تقدم لنا تقنية تنفلت من عقالها بتخلصها من الإنسانية المنتجة لها. الشيء الذي يجعلها تجلب لنفسها بربريتها الخاصة، التي تتميز بالبعد الحسابي والبرودة التي تجهل الوقائع العاطفية المميزة للبشر. لقد أنتجت هذه الثقافة مجموعة من التناقضات المركبة مشكّلة نوعا من الأنثروبولوجيا البربرية الإنسانية، حيث الإنسان العاقل ينتج الفكر والهذيان والجنون في نفس الوقت، والإنسان الصانع ينتج التقنية والأساطير والإنسان الاقتصادي البراغماتي يلعب ويبذر[22].

يقارن إدغار موران بين المجتمعات المعاصرة والمجتمعات القديمة، مبينا أن المدن الكبرى التي يتجمع فيها عدد كبير من السكان قد أفرزت ظواهر مختلفة مثل سيطرة الأسياد والاستعباد المعمم وانتشار الجريمة والانحراف، في حين نجد في المجتمعات السحيقة نوعا من الاندماج الاجتماعي بسبب سيطرة الأنا الأعلى الجماعي على الأفراد، بالإضافة إلى هيمنة أسطورة الجد المشترك التي تشجع على رابطة الأخوة بين جميع الأعضاء، وبالتالي تبقى أقل إنتاجا للعنف والبربرية. الحضارة البشرية إذن تولد البربرية انطلاقا من الغزو والسيطرة، فالغزو الروماني مثلا أنتج أكبر حضارة في التاريخ، وقد تعزز هذا الموقف البربري المتمثل في إلغاء الآخر وهزم العدو بظهور الأديان التوحيدية التي حاربت آلهة اليونان والرومان واعتبرتها مجرد أصنام مدنسة، وبالتالي تم إغلاق الباب أمام التعايش بين مختلف الآلهة التي ارتبطت بالحضارات القديمة. ومع ذلك يقول إدغار موران إن المجتمعات الكبرى أنتجت إلى جانب

البربرية ازدهار الفنون والثقافة وتطور المعرفة وظهور النخبة المثقفة، فالبربرية إذن تشكل جزءا مكونا للحضارات الكبرى، وهذا ما يؤدي إلى صعوبة تحديد ما ينتمي إلى الحضارة وما ينتمي إلى البربرية [23]. ففي سنة 1492 ظهرت محاكم التفتيش وتم احتلال غرناطة وطرد اليهود والمسلمين من الأندلس في إطار تطهير ديني غير مسبوق، كما تمكن الرحالة الأوروبيون من اكتشاف العالم الجديد الذي سيلعب دورا كبيرا في النهضة الكبيرة التي عرفها الغرب الأوروبي في العصور الحديثة [24]. هكذا فالحضارة التي أنتجت السم القاتل والمدمر أنتجت في نفس الوقت الترياق المضاد له، فالثورة الفرنسية أدت إلى تصور جديد لمفهوم الأمة من وحي فكر الأنوار باعتبارها تعبيرا عن إرادة مشتركة وقد تمت ترجمة ذلك إلى واقع ملموس بواسطة التعليم اللائيكي ووسائل الاتصال وتطوير الطرق والسكك الحديدية، بالإضافة إلى الحروب التي سرعت عملية الاندماج لبعض الإثنيات داخل الجماعات المحلية [25]. في نهاية هذه المحاضرة يشير موران إلى أننا اليوم في عصر تعرف فيه البربرية الأوروبية تراجعا كبيرا، حيث يمكن للترياق الثقافي الأوروبي الذي لعب دورا في هذا التراجع أن يسمح بتحديد هوية جديدة لأوروبا[26].

في المحاضرة الثانية التي تحمل عنوان ''الترياقات الأوروبية'' انتقل إدغار موران إلى القرن السادس عشر للكشف عن التحولات الجديدة التي عرفتها أوروبا الغربية، حيث ازدهر الاقتصاد ونمت المدن، بل تكونت المدن الحديثة. واستعادت النهضة من جديد الإرث اليوناني واللاتيني. كذلك عرف هذا العصر ازدهارا للفكر الفلسفي والعلم الحديث الذي ارتكز على النزعة التجريبية والعقلانية النظرية والتحقق والخيال. لكن أبرز مظهر للثقافة الأوروبية في هذا العصر هو تطور النزعات الإنسانية مع دمج الثقافة اليونانية والرومانية في نسيج الفكر الأوروبي الحديث كما أن جذور هذه النزعة تعود حسب موران إلى اليهودية والمسيحية حيث تم اعتبار الإنسان في هاتين الديانتين بمثابة صورة عن الله الذي يتجسد باستمرار في الإنسان، وهذا ما أدى إلى احترام الحياة الإنسانية [27]. كما أن النزعة الإنسانية لا تقتصر على الإنسان الأوروبي كما ادعى بعض علماء الأنثربولوجيا الكلاسيكية بحجة تخلف المجتمعات السحيقة التي نعتوها بأنها بدائية وتعيش ما قبل مرحلة العقل والمنطق. إن العقل حسب إدغار موران موجود في كل الحضارات البشرية، موجود حتى في صناعة الأدوات واستعمال الأسلحة وممارسة الصيد، بل إن الفكر السحري الأسطوري متزامن مع الفكر العقلاني التقني في كل المجتمعات بما فيها المجتمعات المعاصرة [28]. من جانب آخر يربط موران النزعة الإنسانية بتطور العقلانية النقدية التي تمارس النقد الذاتي أي أنها تجمع بين النقد الذاتي والعقل والمعرفة، كما أن أمراض العقل لا تعود إلى العقلانية ذاتها، بل إلى انحراف هذه الأخيرة وتحولها إلى عقلنة وتمتعها بما يشبه التأليه. إن إضفاء الطابع الذاتي على العقل يجعله في خدمة غايات لا عقلانية وبربرية مثل الحرب. يقول موران: ''إلى جانب هذا فإن معظم الغربيين يعتقدون أن العقلانية هي امتياز يخصهم وأمر يستأثرون به. نصل بذلك إلى فكرتين معقدتين وهما: أولا، أوروبا الغربية التي هي

مقر أهم سيطرة لا مثيل لها في العالم، هي أيضا مقر الأفكار التحررية التي ستقوض هذه السيطرة. هذه الأفكار التحررية حملها الذين يستلهمون النزعة الإنسية الأوربية الحديثة: المثقفون المناضلون، وبشكل أوسع رجال ونساء ذوو إرادة حسنة ينتمون لمختلف الطبقات الاجتماعية" [29].

نفس الأمر ينطبق على ظاهرة العولمة حيث يتم إضفاء الطابع الكوني على المنجزات التقنية الحديثة وفي نفس الوقت تظهر مقاومات لذلك، بما في ذلك عودة الديانات والشعائر المفرطة في الخصوصية. الشيء الذي قد يؤدي إلى انحطاط الحضارة الإنسانية والكوارث التي يصعب التحكم فيها ما لم تتمكن أوروبا من إنتاج مضمدات واقية تنبع من ثقافة الحوار والانسجام بعيدا عن السيطرة والهيمنة "ألا يمكنها أن تنهل من النزعة الإنسية العالمية التي كونتها في الماضي؟ ألا يمكنها أن تعيد خلق النزعة الإنسية من جديد؟" [30].

اعتبر موران في المحاضرة الثالثة "التفكير في بربرية القرن العشرين" أن العولمة بدأت رمزيا سنة 1492 وعبرت عن نفسها أساسا بممارسة الرق والعديد من الاستعبادات الأخرى. ثم اضاف بأن عولمة ثانية انطلقت في نفس الوقت تقريبا تتعلق بحقوق الإنسان وحقوق الأمم والديموقراطية. وأخيرا نحن اليوم في عولمة متناقضة: التقدم الرائع للعولمة التقنية - الاقتصادية تتسبب في تكون العولمة المواطنة والإنسانية وخنقها أيضا. بعد هذا التمهيد كشف مروان عن بروز ظاهرة التوتاليتارية باعتبارها ظاهرة أوروبية حديثة لا تستند إلى فكر كما هو الأمر مع فكر الرأسمالية وفكر الديموقراطية وفكر الديكتاتورية. لقد برزت التوتاليتارية بصورة مفاجئة لجميع التوقعات لأنها جاءت كنتيجة تاريخية بسبب خطأ هائل تمثل في الحرب العالمية الأولى التي وصفها بأنها كانت اندفاعا هائجا للبربرية القاتلة وفعلا انتحاريا لأوروبا في نفس الوقت[31]. في هذه الصفحات نجد عرضا مفصلا وشيقا حول ظهور المنظومة الشيوعية في الاتحاد السوفيتي التي انحرفت عن مبادئ الفكر الماركسي الذي ما زالت له راهنيته اليوم. لكن ممارسات قادة الثورة البلشفية وصولا إلى المرحلة الستالينية التي افرغت الثورة من محتواها الإنساني وجعلتها أداة في خدمة الحزب الواحد الذي سعى إلى السيطرة على الدولة والمجتمع يقول: "إن سبب فشل الثورة الروسية هو ثقافي بالأساس لأن الثقافة الاشتراكية آنذاك كانت منعدمة، ولم يكن هناك وجود أيضا لثورة عالمية. هذا النقص سمح بنجاح الستالينية. تخلت الستالينية بصفة تامة عن المنظور الثوري العالمي، ولم تعد تهتم إلا ببناء الاشتراكية في بلد واحد بواسطة التطور الصناعي" [32]. هكذا ظهر نظام توتاليتاري قائم على مراقبة حزبية صارمة لكل مكونات المجتمع المدني والسياسي والاقتصادي والثقافي والبيداغوجي، إضافة إلى الشرطة والجيش والشبيبة. وأصبحت الدولة أداة في يد الحزب الذي يراقب كل شيء. هكذا تظهر التوتاليتارية باعتبارها تنظيما شاملا انطلاق من حزب واحد على رأسه قادة يعرفون كل شيء، ويمتلكون الحقيقة التي تتكون على أثرها سلطة مطلقة تفرض نفسها كمعرفة حقيقية بصفة مطلقة[33]. نفش الشيء ينطبق على النازية والفاشية الإيطالية باعتبارهما تنظيمين يجسدان التوتاليتاريا في بعدها

القومي، بالرغم من جذورهما الاشتراكية. إن النازية هي منتج كارثي للبربرية الأوروبية، وقد وجدت مصدرها في الأمة الأوروبية الأكثر ثقافة. والدليل على ذلك لم يتمكن كبار المفكرين والأدباء والفنانين أمثال غوته وبتهوفن من احتواء البربرية. إذن حسب موران فإن السبب الرئيس وراء ظهور الشيوعية والنازية والفاشية هو الحرب العالمية "إن الحرب والأزمة (أزمة 1929) هما اللذان حملا هتلر إلى السلطة. فالنازية هي منتج متأخر للحرب العالمية الأولى مثلما الشيوعية هي منتج مباشر لها" [34]. كما أن الاتفاق بين التوتاليريتين هو الذي تسبب في اندلاع الحرب العالمية الثانية، فهما ينتهيان رغم اختلاف مصدريهما إلى التلاقي على مستوى البربرية. ويتجلى ذلك في قمع المعارضين والتنكيل بهم وبث العنصرية والتطهير العرقي ومعاداة السامية كما حصل في ألمانيا النازية. يختم إدغار موران هذه المحاضرة بأنه ينبغي على أوروبا اليوم أن تشرع في ممارسة إنسية جديدة تتمثل في التعرف على البربرية كما هي دون تبسيط أو تشويه. فالطريق إذن هو المعرفة الصحيحة وإدراك كل ما جرى من خلال القدرة على التفكير في البربرية الأوربية لتجاوزها. "إن التفكير في البربرية هو المساهمة في إحياء الإنسية، وإحياء الإنسية يعني مقاومة البربرية" [35].

خاتمة

تقوم ابستمولوجيا التعقيد على رؤية جدلية تجمع بين القديم والجديد، فليس هناك تعارض مطلق بين فكر التبسيط والفكر المركب الذي لا يقصي مكونات الابستمولوجيا الكلاسيكية القائمة على الاختزال واليقين، بل يعمل على إدماج تلك المبادئ في نسقه الجديد عبر الكشف عن حدودها وقدراتها غير الكافية بسبب نزعتها إلى تشتيت المعرفة بحجة الوصول إلى اليقين. وهذا في حد ذاته نوع من الحوار الجدلي الذي يسعى إلى المساهمة في إعادة تشكيل خريطة المعرفة الإنسانية على قاعدة ابستمولوجية تركيبية منفتحة على كل الاحتمالات واللايقينيات.

إن الرؤية التركيبية تقتضي اعتبار المعرفة نتيجة للتداخل بين الذات والموضوع في إطار وحدة تركيبية منفتحة على العلاقات الأكثر تعقدا.

من هنا فإن هذا النموذج الذي طرحه إدغار موران دفع الكثير من الباحثين إلى اعتباره بمثابة براديغم جديد يستمد مشروعيته من واقع التطور العلمي المعاصر وما أفرزه من تفرعات وتخصصات متعددة على مستوى النظريات العلمية، انعكست بصورة سلبية على المعرفة البشرية الشيء الذي يدعو إلى مقاومة هذا الوضع من خلال التسلح بابستمولوجيا جديدة تعترف بالأبعاد المتعددة للظواهر وفي نفس الوقت تسعى إلى بناء تصور منفتح وتكاملي بين مختف فروع المعرفة خاصة منها العلمية استنادا إلى فكرة التعقيد باعتبارها العمود الفقري التي تقوم عليه كل معرفة.

---

* هذه المادة هي جزء من كتاب للأستاذ محمد مستقيم سيصدر لاحقا

الهوامش

1- إدغار موران، تربية المستقبل، المعارف السبع الضرورية لتربية المستقبل، ترجمة عزيز لزرق ومنير الحجوجي،ط 1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2002، ص23.
2- نفس المرجع، ص 24.
3- نفس المرجع، ص 25.
4- نفس المرجع، ص 41.
5- نفس المرجع، ص41.
6- نفس المرجع، ص 74.
7- نفس المرجع، ص 79.
8- نفس المرجع، ص 85.
9- نفس المرجع، ص 56.
10-إدغار موران، الفكر والمستقبل، مدخل إلى الفكر المركب، ترجمة أحمد القصوار ومنير الحجوجي، ط 1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2004، ص 17.
11-نفس المرجع، ص 19.
12-نفس المرجع، ص 37.
13-نفس المرجع، ص 63.
14-نفس المرجع، ص 74.
15-نفس المرجع، ص 75.
16-نفس المرجع، ص 76.
17-إدغار موران، هل نسير نحو الهاوية؟ ترجمة عبد الرحيم حزل، ط 1، دار افريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2012، ص 22.
18-نفس المرجع، ص 23.
19-نفس المرجع، ص 25.
20-نفس المرجع، ص 29.
21-نفس المرجع، ص 33.
22-إدغار موران، ثقافة أوربا وبربريتها، ترجمة محمد الهلالي، ط 1، دار توبقال، الدار البيضاء، 2007، ص 5 – 6.
23-نفس المرجع، ص 8.
24-نفس المرجع، ص 12.
25 نفس المرجع، ص 14 – 15.
26-نفس المرجع، ص 21.
27-نفس المرجع، ص 23.
28-نفس المرجع، ص 25.
29-نفس المرجع، ص 32.
30-نفس المرجع، ص 38.
31-نفس المرجع، ص 40.
32-نفس المرجع، ص 42.
33-نفس المرجع، ص 44.
34-نفس المرجع، ص 48.
35-نفس المرجع، ص 58.

علم الفن أم فن العلم

طالب عبد الأمير

باحث وإعلامي، ماجستير في الإعلام والاتصالات وبكالوريوس هندسة

بماذا سيسمي وليد إندماج العلم بالفن؟ بعد هذا الانحياز الرزن والمؤكد بشكل قطعي من قبل المهتمين الذين يتزايد عددهم باستمرار، بضرورة فهم هذه العلاقة التاريخية، التي قد تبدو مخالفة لواقعها النمطي، الا أنها باتت واقعاً. بل هناك من بدأ يستخدم مصطلح ''علم الفن'' الذي يرتكز على مفهوم قديم للفن، اسماه اليونانيون القدامى ''تيكني'' ''بمعنى ''تكنو''، فيما ورد باللغات الرومانية والانجلو سكسونية بمصطلح ''أرت'' أو ''آرتس''، إذ لم يفرق المرء في تلك الفترات بين العمل اليدوي والفن [1].

قد يكون العنوان والمقدمة كشفاً مبكراً لما يريد أن يصل اليه هذا المقال. لكننا لو طرحنا السؤال بشكل مغاير لماهيته في سبيل الوصول الى مبتغاه بشكل استقرائي استدلالي من خلال، على سبيل المثال، رصد المشترك ما بين اينشتاتين وبيكاسو. يبدو السؤال غير المألوف، للوهلة الأولى على الأقل، بعيداً عن المنطق. غير أن قراءة متأنية فيه نجده يدور ضمن المدار الذي يتحرك فيه. وقد يكون مسعى الى الافصاح عن المبررات التي تقف مشرأبة لغواية القارئ، واستدراجه الى هذه المساحة من الضوء التي تحاول بالدلالات إبراز عمق العلاقة الجدلية والجذرية في آن واحد التي تربط عالم العلم وواحة الفن.

قبل عشرين عاماً ونيف، نشرتُ على صفحات مجلة ''الثقافة الجديدة'' [2] الغرّاء نصاً موجزاً لمقال كنت كتبته باللغة الصربوكرواتية وقدمته خلال دراسة الماجستير، عن العلاقة بين العلم والفن. وخلال سنوات العقدين الأخيرين عزز عدد من الدراسات المهتمة بهذه الموضوعة عمق هذا الترابط وامتداداته بين هذين العالمين، اللذين رغم إختلاف أدوات كل منهما في التعبير عن جوهر ما يسعيان اليه، والأمثلة كثيرة، والدلالات متشعبة، تؤكد على وجودها النزعة العلمية لدى الكثيرين ممن يمتهنون الفن، كما أن هناك عديداً من المشتغلين بالعلم ممن لهم صلة ما في عدد من المجالات الفنية.

ولو قمنا باستقراء سريع للتاريخ لعثرنا على

أدلة واسعة على وجود عديد من الناس الذين اهتموا بكلا الميدانين، العلم والفن. هناك أطباء ومهندسون، وحتى فلاسفة على سبيل المثال جمعوا بين العمل المهني الميكانيكي والابداع الأدبي والفني. ابتداء من افلاطون وأرسطو مروراً بابن سينا وابن رشد، وابن شبل البغدادي الملقب بشاعر المشيب والبديع والاسطرلابي حتى يومنا هذا، مثل يوسف إدريس وإبراهيم ناجي صاحب قصيدة الأطلال وشاكر آل سعيد. وعلى الصعيد العالمي الطبيب والروائي الإنجليزي «توبياس سموليت» وجون كيتس الذي ترك مهنة الطب ليصبح شاعراً. وفي فرنسا عرف جورج وهامير والطبيب الروائي فرديناند وتيوش وغيرهم.

مثال آخر للدلالة على هذا الترابط العملي بين الفن والعلم هو الرسم الهندسي او الصناعي، الذي يعتبر "بمثابة اللغة التي تمكن المهندس من التعبير عن أي تصميم بطريقة تمكن الآخرين من فهمه وتطويره وتصنيعه ويكون هذا الرسم وفقا لمعايير متفق عليها بالنسبة للشكل والتسمية والمظهر والحجم وما إلى ذلك. ويهدف إلى استيعاب كافة الخواص الهندسية لكيان أو منتج ما بشكل واضح بما لا يدع مجالا للبس. والغاية الأساسية من الرسم الهندسي هي توصيل المعلومات الأساسية التي تمكن المصنع من إنتاج المكون المعني" [3].

من خلال هذا التشابك بين الهندسة والرسم، على اعتبار أن الهندسة، نظام تقني يجمع الفن والعلم من خلال تطبيق النظريات العلمية، ومن طبيعة الدراسة التي تجمع بين الفنون والعلوم الانسانية مثل الاعلام والصحافة، يمكننا تلمس مفاصل هذه العلاقة وتشعبات دروبها التي لم تتوقف عند محطات التلاقي بين هذين المفهومين اللذين انطلقا مختلفين، وفق ما كان سائداً من أن للعلم إمبراطوريته، إن صح التعبير، وللفن واحته الريانة بالأحاسيس الذاتية. وقد عاش الفنان زمناً طويلاً في واحته الرحبة بعيداً عن مملكة العالم، رغم أنهما يشتركان في استخدام المواد المؤسسة لدوافع الابداع في كل منهما. ورغم ازدياد البحوث التي تتناول علاقة العلم بالفن في السنوات الأخيرة، لكن ما زال الخلاف قائما حول تحديد دوافع الابداع سواء للعالِم او الفنان. فمنهم من يقول انه الانفعال الخلاق، ومنهم من يرى دوافعه من اعلاء الرغبات الجنسية المكبوتة، كما ذهب فرويد، او في الشعور بالنقص، او في اللاشعور الجمعي، وهناك من يربط الإبداع بالجنس والبيئة والزمن، للوصول الى فكرة مفادها بأن الفن ليس نتاجا فرديا، والابداع فيه يعود الى واقع اجتماعي، بكل ما فيه من عادات وتراث وتقاليد.

هنالك عشرات النظريات التي تتناول موضوعة الابداع من جوانب مختلفة، لكن وبغض النظر عن ذلك، فثمة ترابط وثيق بين الابداع العلمي والابداع الفني، ولنا بمثال دافنشي دليل ناصع، فلم يكن دافنشي رساما عظيما فحسب، بل وقد كان عالما في مجالات مختلفة، في ميكانيكا السوائل، والطيران، مثلاً. فيشار اليه بالمبدع في كل هذه الانشطة. كما كان العالم غاليلو مهتماً بالرسم الهندسي في فن العمارة، شغوفا بدراسة الظلمة والضوء والظل وتوزيعها على اللوحة، الامر الذي حدا به الى دراسة الاجسام ثلاثية الابعاد.

تمتد أواصر العلاقة بين العلم والفن، الى

أزمنة وعصور موغلة بالقدم، بل وتوصلنا دالاتها الى اولى الحضارات الإنسانية القديمة، حيث تخبرنا الإكتشافات الأثرية عن الرسومات والمنحوتات، التي حاكى فيها الانسان القديم الطبيعة، لإيجاد نوع من العلاقات اليومية معها، وفهمها والتآلف معها. وهذه الشواهد التاريخية التي وجدت في بلاد ما بين النهرين وفي مصر القديمة، ولاحقاً في مناطق مختلفة من العالم، عززت فهم هذه الرابطة، التي تطورت لتصبح أكثر وضوحاً، في عصرنا الراهن، في ما يتعلق بإدراك وجودها. ومنذ بواكير تاريخ البشرية، شرع الإنسان بدراسة الطبيعة ومحتوياتها الملموسة، كالصخور والمعادن والأخشاب، والظواهر الطبيعية ومن ثم الاستفادة منها لبلوغ مستويات فنية وعلمية عليا في الهندسة والعمارة والفلك والطب وما الى ذلك في الفنون المختلفة، فبرز في هذا السياق علماء فنانون أمثال ليوناردو دافنشي الذي جسد حقيقة الفنان والمهندس، والعالم الذي صهر تلك الفروع وغيرها في كينونة واحدة يشهد عليها الإرث العظيم الذي خلفه من لوحات ومخطوطات. "لم يكن ليوناردو مهتما فقط بجمال جسم الانسان، ولكنه كان يبحث أيضاً عن الجمال في المالك الثلاث للطبيعة وترك وراءه كثيرا من الرسوم التخطيطية لحيوانات ونباتات وقواقع وصخور. وتصنف بعض بحوثه اليوم في مجالات الجغرافية الطبيعية وعلم المعادن والجيولوجيا" [4].

لقد شهد الفن وعبر مراحل تاريخية عديدة مرت بها البشرية، تطورات تسامى معها، كنتيجة منطقية لتفاعل الإنسان مع الطبيعة والتعبير عنها من خلال انشطته الحياتية المتعددة، والتي جسدها الانسان بأشكال فنية مختلفة، معتمدا على ادوات تطورت هي الأخرى على مدى العصور. وثمة العديد من نماذج فنون الرسم التي استدلت عليها الاكتشافات الاثرية القديمة، والتي قدمت دلائل على هذا التطور. ومثال ساطع على هذا رسومات الكهوف، التي نلمس فيها مدى استفادة الانسان من الطبيعة، ليس في الفن فحسب، بل وايضا الهندسة، رغم بدائياتها ودون إدراك الانسان بها. فكان الفن في تلك الازمنة عبارة عن تركيب هندسي مجرد، تحول في ما بعد، بفضل تطور انماط تفاعل الانسان مع الطبيعة ليصبح شكلا ماديا محسوساً. وقد تطورت مدارك الفنان ليصبح منتجا لأفكار وخيالات، بعد ان كان مقلداً لمظاهر الطبيعة الفوقية. وخلال فترة مكوثه في الكهوف تحولت ادوات التعبير لدى الانسان من رسم الاشكال والاوصاف الى كلمات مجردة، من خلال الرسم، فمثلا يرسم طيرا للدلالة عليه، ثم تحول من استخدام مسلمات الظواهر الجاهزة، الثابتة، الى التفكير المنطقي بمكنوناتها. وان وجودها في الطبيعة جاء على اساس حركتها وتفاعلاتها والتغيرات التي رافقت صيرورتها. ثم انتقل الانسان الفنان الى مرحلة اعلى من التفكير. فبعد ان كانت الفنون تنظر الى اشياء الطبيعة في ظاهرها المرئي، باعتبارها (كتلة ذات شكل ولون)، أصبح ينظر لها (طاقة ذات لون وبناء داخلي)، بمعنى الولوج الى جوهر الاشياء ومتابعة حركاتها وتفاعلاتها. وهذا جاء بفضل تطور العلم.

تاريخية العلاقة

إنّ تسليط الضوء على جذرية العلاقة بين العلم والفن يعيدنا إلى العصور التاريخية،

التي ظهرت فيها الفلسفة كأقدم علم عرفته البشرية، بل وبأكثر دقة إلى بداية العصر الإغريقي، حيث السؤال التاريخي الكبير الذي جلبته الفلسفة: هل يمكن معرفة العالم؟ لنواصل بعد ذلك الغوص في مكنونات هذا العالم، وفهم طبيعة عناصره وتفاعلاتها عبر العصور. وقبل ظهور الفلسفة كانت علاقة العلم بالفن تبدو وكأنها علاقة بين الأدب والعلم، باعتبار أن الأدب أكثر الفنون شيوعاً وأسرعها تأثراً بالواقع الاجتماعي وأغناها في ما يتعلق بتعدد مواده التعبيرية التي تشحن أحاسيس الناس من أجل توصيل رسالته الإنسانية. والعلم من هذه الزاوية أيضاً يخدم حاجات الناس العملية وهو الذي يتربع على مكانة ذات شأن رفيع المستوى، بل وأكثر أنواع المعرفة رقياً، يُعد الدافع الأساسي لاستنباط الحقائق، من خلال سلسلة العمليات المتواصلة التي ترافقها ويرطب من حرارة صيرورتها بُعد التفكير والعوم في فضاءات الخيال الملهم والدافع للابداع. إذن فهدف الفن والعلم بهذه الصيغة واحد، وهو تطوير مدارك الإنسان ورفع مستواه الثقافي والاجتماعي، وبالتالي تغيير العالم، وذلك على الرغم من اختلاف الموقعين، ففي حين تعبر فنية الأدب عن إدراك حسي انفعالي خيالي، يفصح العلم عن إدراك عقلي ملموس.

وفي طوفان هذا التفاعل، كان الجدل حول علاقة الفن بالعلم يتجلى في محاولة فهم جوهر المعرفة. واستيعاب طبيعتها وارتباطها بالعلم، ومقدار قوة الأواصر التي تربط المعرفة بالفن في ذات الوقت.

وكانت الخلافات التاريخية إزاء هذه العلاقة ترسو قبالة ضفتين: ففي حين شقت اتجاهات تقليدية طريقها بنفي وجود أية علاقة بين الفن والمعرفة وحددت ارتباط المعرفة بالعلم فحسب، برزت في سياق التعمق في فهم عملية المعرفة مدارس تحاول التأكيد على قوة هذه العلاقة. وبين هذين التيارين، وكنتيجة منطقية للعملية الجدلية عندما يبرز الصراع بين فكرين مختلفين حول قضية ما، هنالك التيار الثالث الذي أخذ يراوح في مكانه وهو يعلن تشككه بعلاقة الفن بالمعرفة تارة، ويبدي الاقتراب من استيعابها تارة أخرى، حتى أخذ اقترابها وبعدها في هذه العلاقة أشكالاً شتى، بل وتوقف الحديث عنها، في فترة زمنية امتدت عقوداً.

ولو تتبعنا في بحث استقرائي لتاريخية هذه الظاهرة لتوصلنا إلى أن النزعات والاتجاهات التي انحدرت من أصول الفكر الميتافيزيقي، المثالي هي التي ظلت متمسكة بثنائية العلم والفن وعدم التقائهما، رغم أن ثمة توجهات، داخل هذا الفكر، كانت تتوكأ على سند التحليل المثالي للظواهر، حاولت استيعاب هذه العلاقة ولكن بفهم مثالي. ولعل الفيلسوف الإغريقي سقراط هو أول من توصل إلى وحدة الفن والعلم، ولكن بفهمه الميتافيزيقي، حيث رأى، من خلال التجريد المنطقي للصفات المشتركة للأشياء، أن المفهوم هو جوهر المعرفة. وهذا الاستنتاج قاده إلى المفاهيم المتعلقة بحياة الإنسان ونشاطه العقلاني، وبشكل خاص نشاطه على صعيد معرفة الذات. وعلى أساس هذا الاكتشاف جاء بموضوعته الشهيرة «اعرف نفسك» التي انطلقت من معرفته المثالية لمفهوم الجمال وفكرته، التي صاغها استناداً على هذا الفهم وجملته الشهيرة «إن كل ما هو معقول جميل». فالإحساس بالجمال، حسب رأي سقراط، لا يمكن تلمسه إلا بالعقل،

ومعرفة الجمال هي معرفة الحياة. وسقراط ينظر إلى الفن بمقدار معرفته بالحياة، وبما أن للحياة هدفا «معقول»، فللفن، بالضرورة، وظيفة معقولة وهدف معين. وبما أن الفن بجماليته لم يكن في يوم ما تهريجاً بهلوانياً. فمن هنا لا يجد سقراط في الرقص، على سبيل المثال، فناً إلا من خلال كونه أداءً جميلاً هادفاً إلى تنمية الجسد. والفن من هذه الزاوية يعادل المعرفة في سياق سعيها نحو بلوغ هدفها وأداء رسالتها في الحياة.

ثم يجيء أفلاطون ليقلب بمفهومه المميز للجمال فهم سقراط له، ليشير إلى أن الجمال ليس في الفن، بل هو في الحياة ذاتها. كما يرى في علاقة الفن بالمعرفة ثنائية وترابطاً في آن واحد. الجمال، حسب، أفلاطون يوجد موضوعياً وبشكل مستقل في وعينا. وعلى هذا الأساس فالجمال الحقيقي لا يكمن في العالم المادي، بل في الأفكار الغيبية. إن هذه النظرة لعلاقة الفن بالعلم تجد جذورها في النظرة المثالية نحو العلم وفي أساليب البحث ودراسة الظواهر الطبيعية والتاريخية التي تنكر دور عملية الصراع والحركة وأسبقية المادة على الوعي وما إلى ذلك.

من جانبها جاءت المادية الديالكتيكية لتدلي بتفسيرها حول الطريق الذي تراه مناسباً لمسير البشرية نحو النمو والتقدم، الخ، باكتشافها قوانينها الخاصة المتعلقة بتطور العالم المادي. فقد ربطت المادية الديالكتيكية والتاريخية بين أهم ظاهرتين في سياق المعرفة وهما العلم والفلسفة، مؤكدة على أن تطور العلوم الطبيعية من شأنه توثيق علاقتها وتأثيراتها المتبادلة على الفلسفة. وقد تبنى الفكر الماركسي هذه العلاقة لشموله قوانين الصراع والحركة والتطور. واستخدمت أسس هذا الفكر كأدوات لمعرفة ظواهر العالم المادي، ولفهم مجمل النشاط الإنساني في سياق العملية التاريخية، إذ أكدت الماركسية على جدلية العلاقة بين العلم والفن، متخذة من نظرتها لعلم الجمال منطلقاً لتحليلات هذه العلاقة، عندما تربط بين الفن والواقع بعلاقة معرفية تشكل شرطاً ضرورياً لحياة الفن ذاته.

إن اهتمام علم الجمال الماركسي بعلاقة العلم والفن، من جهة، وعلاقة الفن بالواقع من جهة أخرى، جعل العلم يرى في هذا الترابط استجابة للاستقلالية النسبية للنشاط الفكري في إنجاز عملية الخلق الفني. وذلك بالرغم من تأكيد هذه النظرية على أن الدور الرئيسي في تشكيل الطابع التاريخي للفن يعود إلى القاعدة المادية الاقتصادية، وأن الفن والعلم يشكلان جزءاً من البناء الفوقي الذي يخدم القاعدة. بمعنى اذا كانت البنية التحتية لوسائل الانتاج متطورة، فبالضرورة ستتطور الفنون والعلوم وغيرها وبالعكس. ولكن هناك استثناءات. إذ يُنقل عن كارل ماركس قوله حول وجود مراحل معينة في تطور العلوم والفنون لا تخضع للتطور الاقتصادي والاجتماعي العام، ولا تتطابق مع أسسه المادية. وقد لاحظ ماركس أن الفن قد ازدهر في عصور لم تكن وصلت إلى درجة راقية من التطور المادي العام، بل ان أساليب إنتاجها كانت بدائية. والفن الإغريقي وروائع شكسبير المسرحية، وموسيقى المؤلفين الروس الساحرة في القرن التاسع عشر، ورسوم فناني النهضة وغيرها نماذج حية تدل على عدم حتمية ارتباط الفنون بتطور القاعدة المادية لاقتصاد المجتمع.

من ناحية أخرى، لو اختزلنا التوصيفات

التقليدية للعلم التي أطلقها مختلف الباحثين باعتباره مجموعة معارف الإنسان عن الطبيعة والمجتمع والتفكير، وجمعاً منظماً ومثبتاً بالبراهين العملية والأدلة لمختلف الأبحاث المادية التي تدرس ميادين محددة من هذا العالم، فإننا نجده بهذا الوصف قريباً إلى حد ما من الفن الذي نلخص توصيفه بأنه يمثل شكلاً من أشكال انعكاس الواقع المادي في وعي الإنسان، يستمد مادته من العالم المحيط ومن الظواهر والأحداث التي تعصف في المجتمع والطبيعة ويعكسها عبر أساليب وقنوات مختلفة.

هنا، إذاً، يلتقي العلم بالفن من ناحية صيرورتهما التي يستمدانها من منبعين يشاركان معهما، هما الطبيعة والمجتمع. فللعلم فروعه المتعددة وكذا الفن، وكل منهما يؤدي وظيفة تتلاءم وتعدُّدَ وظائفِ النشاط البشري، ذلك رغم تباينهما في طريقة عكس الظواهر، ففي حين يبرز العلم الظاهرة على شكل مفاهيم وقوانين محددة، يجسدها الفن بشكل حسي ملموس، كنموذج فني تتجلى فيه ميزات فردية خالصة.

العلاقة على ضوء تطور التقنية الرقمية

علاقة العلم بالفن، أخذت تتجلى أكثر بعد تطور ادوات المعرفة، واستخدام التقنيات الحديثة في البحث عن المعلومات، وتنامي شبكات الاتصالات المعرفية المتطورة، التي اسهمت في بلورة مفاهيم جديدة معاصرة ونسجت أواصر علاقات مؤسسة على خلفيات حديثة الاكتشاف، بين مختلف ظواهر النشاط البشري وميادينه المتعددة. كما أننا نلمس في عصرنا الراهن تعددية مجالات النمط العلمي الواحد وتنوع ارتباطاته بالأنشطة الإنسانية المختلفة أو بالأحرى يجري دمج تخصصات فروع مختلفة، سواء أكانت ضمن نطاق الميدان الواحد، أم بين عدة ميادين وفروع متباينة، كما هو الحال مع اقتراب المجالات العلمية - التقنية من الفروع الإنسانية. كما ان النظر الى الماكنة، أو الآلة، كونها شكلت، في الماضي، سمة لعصر الصناعة، ووسيلة من وسائل الإنتاج الصناعي الراقي فحسب، باتت اليوم، ونتيجة للتأثير المتبادل في التطور بينها وبين الانسان، ومن منظور عصر تقنية المعلومات، تعبر عن رسالة إعلامية تحمل دلالة العصر الذي تنامت فيه، فضلا عن كونها تحمل في بنيتها سمات فنية متعددة.

لنأخذ مثلا، الكومبيوتر الذي يجمع بين علم السبرنتيكا، وهو ما يتعلق بتقنية التحكم والسيطرة على منظومة الاتصالات الداخلية المؤسسة على مكوني "هارد وير" (الاجزاء الفيزيائية الصلبة الثابتة في الجهاز، والمجهزة بدوائر الكترونية، ذات معالجات مختلفة) و"السوفت وير"، بمعنى البرامج المؤلفة والتي بموجبها تعطى الاوامر لفعاليات مختلفة الاختصاصات، والنموذج الأولي الرقمي والرياضيات وغيرها، واللغة والمعلومات، والتأليف وفن الألوان أو التطور في مجال الموسيقى حيث يتداخل علما الفيزياء والرياضيات بالتأليف الموسيقي وإنتاج الصوت.

لقد اتاح لنا تطور وسائل الاتصال والمعرفة امكانية إعادة قراءة الظواهر، بوسائل تقنية أكثر حداثة ورقياً، ونسج خيوط افكار مختلفة، وردم الهوة بين مفاهيم كانت حتى وقت قريب قوالب جاهزة، لا يمكن المساس بها، بل كانت من المسلمات. كالعلاقة بين

مفهومي التقنية والفن، على سبيل المثال، أو بصورة أدق بين العلم والفن. فبعدما كانت الهوة سحيقة في فهم العصور السالفة للاختلاف بين هذين النوعين من النشاط البشري، نجد اليوم أن ثمة وعياً يتبلور حول تضييق رقعة هذه الفروق. حتى باتت نظرتنا التقليدية للفن تتغير إلى حد كبير. فلم يعد الرسام اليوم معتمداً، فقط، على قطعة قماش أو لوحة خشب يمرر عليها فرشاته ويسطر فوقها أفكاره وأحاسيسه، بل إن مرسمه، اليوم، أيضاً، هو عبارة عن «شاشة» عرض إلكترونية يقيم عليها مهرجانه التشكيلي، تتقلص فيه مساحة الصورة التقليدية إلى معبر تمر من خلاله المرئيات في سياقات رقمية مختلفة لا تأخذ حيزاً مكانياً ذا أهمية.

بالإضافة إلى ذلك ثمة مفاهيم جديدة أخذت تحل محل تلك التقليدية القديمة. يشير بعض الباحثين إلى أن تقنية الكومبيوتر اليوم، على سبيل المثال، تقترب من الفن أكثر من اقترابها من العلم.

كما أخذت تبرز اتجاهات فنية جديدة تنحو باتجاه تكوين صلة معينة بين الفن والبحوث العلمية القريبة منه، على سبيل المثال العلوم المتعلقة بحركة الأجساد، "البيومكانيك". اضافة الى البحوث في مجال الاعصاب والدماغ التي كشفت عن تأثيرات الفن، كالموسيقى والرسم والرقص، على تطور وتنمية خلايا دماغ الانسان.

كما أن ثمة أسئلة علمية بدأت تبرز بحلل جديدة في أروقة النقاشات الأكاديمية، تتعلق بهوية بعض فروع النشاط الإنساني وتصنيفاتها. اصبحت هناك عملية تشكيك في صيرورتها! هل يمكن النظر الى هذه الظاهرة او تلك كعلم أم كفن؟ فهل يمكن أن تسمّى عملية الترجمة علماً أم فناً؟ او كلاهما؟ وينطبق هذا الأمر على الإعلام والبلاغة وغيرهما.

التشكيك، في تعريف مفهومي العلم والفن، لم يأت وليد اليوم، بل حدث ذلك منذ عقود عدة، لكن كلما تطورت تقنيات البحث، كلما توصلنا الى مفاهيم جديدة عن الظواهر التي كان ينظر اليها على انها ثابتة. وقد بدأت عملية تفكيك مصطلح عالم العلوم، وإعادة صياغة عالم الفن وفق أسس جديدة، ومن ثم مدّ جسور العلاقة بينهما. ومن الطبيعي ان اي تغيير في المفهوم والتشكيك فيه وايجاد علائق جديدة بين المسلمات، كما هو الحديث عن علمية الفن أو فنية العلم، إن شئتم، لا بد من ان يواجه معارضة، ومعارضة شديدة. وما يثير الانتباه ونحن نتحدث عن الرابطة المثيرة بين العلم والفن، ان المعارضة لهذه العلاقة تأتي من قبل الفنانين قبل الباحثين العلميين، مع استثناءات.

الفن والتكنيك عند دافينشي

أكثر الامثلة دلالة على علاقة الفن بالعلم تتجسد في العلاقة بين الفن والتقنية، وهي مسألة تفرضها صيرورة العمل الفني، حيث يستخدم الفنان التشكيلي، الرسام والنحات، مثلا تقنيات مختلفة لخلق نتاجه الفني الجمالي، وبالتالي التوصل إلى روح الطبيعة. وهذا ما اقترب منه (ليوناردو دافينشي) كثيراً، بل يعتبر البعض أعمال هذا الرسام الإيطالي الكبير دليلاً ساطعاً على وحدوية الفن والعلم، والتي ابرزها احد اهم الكتب التي صدرت قبل سنوات، وتحديدا العام 2004 في هذا المجال، وهو كتاب بعنوان "الرياضيات والموناليزا" [5]. في هذا الكتاب يتحدث البروفيسور الامريكي التركي الاصل بولندت

اتالي، عن العلاقة الوثيقة بين العلم والفن، من خلال تحليله للوحة الموناليزا ولوحات اخرى للفنان والعالم ليوناردو دافنشي. وبولنت وهو رسام واستاذ في علم الفيزياء، يتحدث في كتابه هذا، عن الصلة التي تربط علم الجمال، في اعمال الرسم والنحت، والهندسة المعمارية، وعلاقتها بالفيزياء والبيولوجيا. ويورد عدداً من الأدلة التي توضح هذه الفكرة حول مدى قوة العلاقة بين الأعمال الفنية والمقاييس العلمية النموذجية، مستشهداً بالتماثيل المجسدة في العالمين، الفني والطبيعي. كما يعرض مواضيع تفكك وتناقش العلاقة، بين الذائقة الفنية والاحساس الجمالي وامكانية التعبير عن مكنونات النفس البشرية والتأثير فيها، وبين الاسس التي يفرضها العلم وتحددها المقاييس الهندسية في لوحات ليوناردو دافنشي، وسر الابداع فيها وخلودها على مر العصور. فهو يتحدث عن تأثير ما يعرف بـ"النسبة الذهبية"، وهو الرقم المعروف ومقداره 1,618 أو نسبة 1:1.61 الذي توصلت اليها البحوث العلمية الرياضية، ويمثل تناسب الأطوال بين قيمتين عدديتين تحققانها، بأن تكون نسبة الطول كاملا بالجزء الكبير منه، تساوي نسبة الجزء الكبير للصغير. وهذه النسبة كامنة في الطبيعة ومتواجدة في كل شيء، بما فيها جسم الإنسان. فهو مبني بتقسيماته الهيكلية الأساسية وأبعاده الخارجية على النسبة الذهبية. في توازن بين كل ابعاد وتقسيمات جسمه. فالمسافة بين أعلى رأس الإنسان إلى أخمص قدميه مقسومة على المسافة، من السرّة إلى الأرض تعطي النسبة الذهبية. ومن الخصر الى الأرض مقسوما على الركبة للأرض تحقق النسبة الذهبية. والمسافة من الكتف لأطراف الأصابع مقسومة على المسافة من الكوع لأطراف الأصابع تعطي النسبة الذهبية وهكذا المسافة بين الورك الى الأرض مقسمة على المسافة بين الركبة والأرض تعطيك نفس الرقم الذهبي. هذه النسبة تنطبق ايضا على اعمال ليوناردو دافنشي، كما يشرحها الكتاب ويبين كيفية تأثيرها على أبعاد لوحاته بشكل واضح جدا. كما يخصص جزءا من الكتاب للحديث عن هرم الجيزة الاكبر، وهندسته وأرقامه، في ما يتعلق بفن المعمار، ثم يتناول فضل العلوم، بشكل عام على الفن.

آينشتاين - بيكاسو

الموضوع الاخر الذي يدلل فيه الباحثون على جذرية او جدلية العلاقة بين العلم والفن، مبني على اساس ما توصل اليه العالم اينشتاين والفنان بيكاسو. وهنا يجري الحديث عن الفيزياء الحديثة في العلم والتكعيبية في الرسم، في الفن.

ففي الوقت الذي اعلن فيه آلبرت اينشتاين عن نظريته النسبية، قام بابلو بيكاسو برسم لوحته الشهيرة. "آنسات افنون". قد تكون هذه مصادفة. لكن آرثر ميللر، مؤلف كتاب اينشتاين ـ بيكاسو، لا يعتبرها كذلك. هي ليست مصادفة ان يقوم شابان بنفس العمر، احدهما فيزياوي الماني والاخر فنان اسباني بنشر نتائج ما توصلا اليه على اساس تحليلهما لكتاب عالم الرياضيات الفرنسي هنري بوانكاريه "العلم والفرضية" الذي صدر العام 1902. والذي اكد فيه على اهمية الهندسة او الهندسيات الجديدة التي تمتد في فراغات منحنية وابعاد عليا، بخلاف الهندسة الكلاسيكية والمسماة بالاقليدية التي

كانت سائدة. اي عدم التسليم بمفهومي المكان المطلق والزمان المطلق اللذين ارتكزت عليهما الفيزياء في السابق. حيث كان سؤال هذا العالم في العام 1902 فيما اذا كانت هذه الهندسيات المعقدة تشكل، بالفعل، قوة محركة لعالمنا الذي نعيشه باتجاهات مختلفة؟

العالم البرت اينشتاين اجاب على هذا السؤال من خلال حديثه عن القوى الكهربية المحركة للاجسام، ومن ثم نظريته النسبية، التي تحرر فيها من الحدود الزمانية والمكانية التي وضعها العلم سابقا. اما الفنان بابلو بيكاسو فجسد اجابته على سؤال بوانكاريه في لوحته ''آنسات افنون'' وولادة الفن التكعيبي في العام 1907. فهذه الشخصيات الخمس، الآنسات، رُسمن من كل جهاتهن، بانف جانبي وعين امامية. وهذا الفن التكعيبي وهذه النظرية النسبية تنطلقان من ذات النظرة المتجاوزة للاطار الزماني والمكاني، ففيهما الاجسام لا تمثل من منظور وحيد ومن زاوية واحدة مختارة، بل ومن عدة جهات في آن واحد.

وتوصل شخص عالم وآخر فنان الى الاجابة ذاتها على سؤال العلم لم يأت مصادفة، مما يؤكد على أن العلم والفن وجهان لعملة واحدة [6]. هكذا حلل ميلر، الاستاذ في تاريخ وفلسفة العلوم في لندن في كتابه ''اينشتاين بيكاسو'' الصادر العام 2001 علاقة العلم بالفن، بل ذهب ميلر الى ابعد من ذلك وتحدث عن العلاقة بين المبدأ التكعيبي الذي اوضحه جان ميتزنغر وهو مصور ومنظّر كبير، استند على تصوير الاجسام من جهات مختلفة وفي زمن واحد، ومبدأ النظرة التكاملية للذرة الذي طوره الفيزيائي الدانمركي نيلس بور لفهم سلوك الذرة التي كان ينظر على انها تتكون من نواة موجبة، والكترونات تدور حولها بسرعة كبيرة، وأن الشحنات الكهربائية التي تفرزها الالكترونات نتيجة سرعتها، يمكن ان تضعف قدرتها، بعد تبدد هذه الطاقة، فتصطدم بالنواة مما يؤدي الى انهيار الذرة.

نيلس بور أكد أن الالكترونات تدور في مدارات دائرية حول البروتون تحت تأثير قوة التجاذب، ولها طاقات كمية منفصلة. وعندما يقفز إلكترون من مدار لآخر فإنه يفقد أو يكتسب طاقة أخرى، ورغم انه يعود بعد اقل من ثانية الى وضعه الطبيعي، لكن نتيجة التحول الى مدار آخر تؤدي الى افراز وحدة ضوئية تعرف بـ''الفوتون''، وتساوي فرق الطاقة بين المستويين، ما عزز فرضيته من ان هناك أشياء يمكن النظر اليها كجزيئات وكموجات في الوقت نفسه. وعند القياس دائماً ما يكون، إما جُزيء أو وموجة. وهذا الاستنتاج الذي توصل اليه العالم الدانيماركي، وشكل اسهامة كبيرة في ما يعرف بنظرية الكم او ''ميكانيكا الكم'' او ما يطلق عليها ايضا بالميكانيك الكوانتي، التي جاءت على اساس تأثره بكتاب '' التكعيبية'' لمؤلفيه آلبير غليزر وجان ميتزنغر. وبهذا تتعمق فكرة التأثير المتبادل بين العلم والفن، حيث ان التكعيبية التحليلية في الرسم تسعى لأن تجسد مشهداً يمكن النظر اليه من جوانب مختلفة على لوحة واحدة. ونظرية بور تفترض أن الإلكترون هو موجه وجزيء في الوقت نفسه. ولكن عند مشاهدتك له فإنك تختار أحد الاحتمالين. وعن هذه العلاقة يشير ارثر ميلر في كتابه ''اذا كانت التكعيبية اثر العلم في الفن فان النظرية الكوانتية هي اثر الفن في العلم''. ويُذكر ان العالم الفيزياوي الدانمركي الذي توفي عام 1962 كان يعلق في مكتبه لوحة تكعيبية للفنان جان ميتزنغر بعنوان ''الفارسه''.

واقعية الكم تجسيد لمعنى علاقة العلم بالفن[7]

وفي هذا السياق خرج الفنان العراقي المعروف محمود صبري في بداية سبعينات القرن الماضي، بنظرية تحاكي نموذج العالم الدانمركي نيلس بور، اسماها "واقعية الكم"، وبالتالي تؤكد على علاقة العلم بالفن. ولكن البيان الذي ضمنه فرضيته والذي اصدره في العام 1971 أسيء فهمه، من قبل الاوساط الفنية العربية والعراقية. وحتى الآن ما زال ينظر بعين شك الى هذا التصور الابداعي في الفن.

انطلق صبري من فكرة مفادها ان تطور الفنون عبر العصور، يأتي نتيجة لملاحقتها للعلوم في تطورها. وكان ينظر الى ان ثمة ترابطا جدليا بين العلم والفن، في ما يتعلق بصيرورة العملية الابداعية، باعتبار ان الفن في جوهره يمثل محاكاة للطبيعة، بل وتحوله من محاكاة ظاهرية الى خلق طبيعة ثانية. فالعلم يتحرك باتجاه استقصاء القوانين العلمية للطبيعة. اما الفن فهو يتحرك نحو كشف القوانين الجمالية فيها. رغم ان الفن اسهم كما اسلفنا في منح العالِم خيالاً يحلق به في صيرورة ابداعه العلمي، كما هو الحال ايضا مع الرسم البياني الذي اشتهر باسم مخترعه هنري راسل والذي استعمل على نطاق واسع في الفيزياء الفلكية. وفي كتابه "امبراطورية النجوم" الصادر عام 2005، يشير ميلر الى ان الفنان الفرنسي مارسيل دوشان قد تأثر ببعض الاجزاء في النظرية النسبية لاينشتاين، وعلى اساسها رسم لوحته العارية التي تهبط على السلالم، علما ان اينشتاين نفسه تأثر برائعة ديستوفيسكي "الجريمة والعقاب" لتصبح دافعا لنظريته النسبية، مبنيا ذلك على اساس بطلة الرواية، وهي امرأة تعتبر ساقطة في مجتمع القرن التاسع عشر، لكنها في ذات الوقت من افضل نساء المجتمع، مما يستنتج بأن القيم نسبية. وينسب الى البرت اينشتاين قوله بأنه لولا لم يقرأ هذه الرواية، لما توصل ربما الى النظرية النسبية.

الفنان صبري ارتكز على معادلة اينشتاين حول العلاقة بين الكتلة والطاقة. بمعنى هناك طاقة تمثل هذا الكون، وتتجسد بالطيف الشمسي، وتساوي الكتلة. كان العلم، قبل اينشتاين، ينظر الى الكتلة ككيان مستقل، كتلة فقط. ثم تطور الفهم في النظر الى المادة، باعتبارها نموذجا اساسيا في الطبيعة، فجاء البرت اينشتاين بمفهومه الجديد للكتلة وطرح نموذجه الرياضي الذي يشير الى ان الطاقة = الكتلة x مربع سرعة الضوء. بمعنى ان الكتلة والطاقة شكلان متحركان من اشكال المادة، يقبل احدهما باخذ مكان الآخر. هذا المفهوم الجديد الذي توصل اليه العلم للطبيعة، كونها مؤلفة من وحدات طاقة تتفاعل في ما بينها من خلال مجموعة من العمليات الداخلية، لا يمكن للفن ان يعبر عنه، بهدف اكتمال الصورة الجديدة للعالم، الا باستخدام المفردات التي جاء بها العلم. بمعنى استخدام المادة باعتبارها ذرات، تمثل اشكالا من الطاقة المشعة، كأطياف متداخلة وجسيمات دقيقة. وقد جرب محمود صبري التعبير عن حركات، او تفاعلات الذرة في الطبيعة بالرسم. من خلال خطوط تميزها الوان تمثل اطياف الذرات. وما أطلق عليه "واقعية الكم" هو اسلوب جديد في التفكير العلمي بالفن، يرتكز على ان العلم توصل الى وجود أكثر من 90 عنصراً في الطبيعة

(هناك 20 عنصراً أخرى اختفت). وهذه العناصر توجد بأشكال مختلفة: صلبة وسائلة وغازية. ولو تم التفاعل في ما بينها، وفق القوانين العلمية فسنحصل على مكونات، او مركبات جديدة. واقعية الكم تأخذ هذه العناصر وتفاعلاتها لتجسدها في خلق اعمال فنية تمتع نظر الانسان وتوسع من مداركة ومعارفه. واقعية الكم، في تطبيقها العملي تتلخص بالمثال الاتي[8]:

لو أخذنا المركب الكيمياوي صوديوم، او ناتريوم، بيكاربونات: NaHCO3 وهو يتكون من:

ذرة صوديوم واحدة ذرة هيدروجين واحدة + ذرة كاربون واحدة + ثلاث ذرات اوكسيجين.

يتعرف العلماء على هذه العناصر بطريقتين: الاولى بواسطة الوزن الذري للعنصر، والثانية من خلال الألوان المشعة من ذراتها. واقعية الكم تستخدم الطريقة الثانية: اذ أن لكل عنصر عدد الوان طيف خاصة به، تحدد هويته. وهذا العدد يختلف من عنصر الى آخر. كل عدد لوحده يسمى طيف/ كم. مجموع هذه الكمات/ الاطياف تؤلف شخصية العنصر، وهي منسقة بشكل هرموني دقيق.

كل عنصر في الطبيعة يتألف من عدد هائل من الذرات المتماسكة. وكل ذرة تتكون من كمات/ اطياف. فواقعية الكم مبنية على (ذرة، وكم). لكن هذه العناصر في الطبيعة تتكون من اعداد هائلة من الذرات غير مستقلة عن بعضها، وانما تشترك مع عناصر اخرى تشكل وحدة/ وحدات جديدة تسمى تركيبا، وهذا يضاف الى بنية واقعية الكم ليصبح اساسها: (ذرة، تركيب و كم).

فالرمز الكيمياوي/ التركيب أعلاه، من وجهة نظر واقعية الكم، هو الواقع الحقيقي والمستوى الجديد الذي كشف عنه العلم، وعلى الفنان السعي للامساك بلحظته التاريخية لتصويره. لكن الفنان لا يستطيع ان يقوم بذلك دون الاعتماد على قواعد دقيقة. ومن اجل هذا اختار صبري سبعة الوان، هي من اكثر الالوان حساسية لكل عنصر ووضعها في جدول أسماه "مختارات الاطياف الخطية للعناصر". وهي بمثابة حروف لغة الفن، بالنسبة لنظريته "واقعية الكم". وتحاكي جدول ماندليف للعناصر في الطبيعة.

ولوعدنا الى مثالنا "الرمز الكيمياوي NaHCO3 لطبقنا الاتي:

- الصوديوم Na : لونان برتقالي مختلفان/ لونان أصفر مختلفان/ لونان أخضر مصفر/ لون واحد أخضر.
- الهيدروجين H : لونان أحمر مختلفان/ لون واحد أخضر مزرق/ لونان بنفسجي مختلفان.
- الكربون 3 : C ألوان أحمر مختلفان/ 4 ألوان بنفسجية مختلفة.
- الاوكسجين 4 : O ألوان أحمر مختلفة/ برتقالي واحد/ أخضر واحد/ بنفسجي واحد.

هذه الالوان الخاصة بكل عنصر مرتبة بشكل متناسق، وهي موجودة في الطبيعة، وتتناسق مع الالوان من بقية العناصر الاخرى، لانها تعيش سوية في تركيب كيمياوي واحد. فكما هي منسجمة ماديا في الطبيعة لا بد ان تكون منسجمة في لوحة الرسام.

أليس هذا ادراكا لعلاقة جدلية بين العلم والفن؟

علم الجمال رابط العلاقة بين العلم الفن

ومثلما يشترك الفن والعلم بالإبداع فهما يشتركان ايضا في قيم الجمال والتاثير

الجمالي الذي يسهم في بلورة الذهنية واشباع الشعور، الذي ادى تراكم الخبرة فيه الى نشوء ما يعرف بالاستيتيكا، او علم الجمال، بما يحمله من ابعاد فلسفية وفنية مختلفة، يأتي الاحساس فيه من خلال المكونات المرئية في الطبيعة. وقد تأثر العلماء بقيم الجمال، قبل قرون عديدة باتت واحدة من اسس المعرفة، حيث يجري التأكيد على أهمية التأمل والخيال بالنسبة للعالم، كما هو بالنسبة للفنان، في خلق صور ذهنية للقضايا البحثية التي تتطلب من العالم حلها، واغلب العلماء المعروفين توصلوا الى اكتشافاتهم وابتكاراتهم عبر التخيل والتأمل والاحساس بالجمال الذي يعد قوة دافعة للابتكار.

وهكذا نجد أن ثمة أسساً لترابط العلم والفن، حتى قبل أن تهب عواصف ثورة المعلومات. لكن هذه الثورة أسهمت في تحديد أطر هذا التفاعل والالتقاء وفق مفاهيم أكثر عصرنة وتماشياً مع المتطلبات المستجدة. فكل شيء الآن ينظر إليه من خلال عدسة المعلوماتية وثورة تقنية المعلومات.

فهذه التقنية هي التي ساعدتنا في فهم العلاقة بين النظرية النسبية والمبادئ الاساسية في الفن التكعيبي. وهي التي ساعدت في تحليل لوحات دافينشي واوجدت العلاقة بين الرياضيات والموناليزا. وأوصلتنا، بعد هذه الرحلة في قطار العلاقة التي تربط عربات العلم والفن، الى امر مفاده آنية اندماج مفهومي العلم والفن، ليخلق مصطلح جديد يتسم به كلاهما.

الهوامش

1- أنظر: Berggren, Lars ، Konst och konstvetenskap, Åbo Akademin, ÅA 2017 December 21

2- طالب عبد الأمير، «جذرية العلاقة بين العلم والفن تعززها ثورة المعلومات»، (الثقافة الجديدة)، عدد مزدوج أيار – حزيران – تموز – آب 2001.

3- ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، رسم هندسي https://ar.wikipedia.org/wiki/

4- سارتون جورج، ليوناردو دافنشي، العلم والفن، PDF تاريخ الانشاء 16 يوليو 2021، ترجمة محمود محمد علي، مصر، جامعة أسيوط.

5- ,Bulent Atalay, Math and The Mona Lisa, The Art and Science of Leonardo Da Vinci .Smithsonian Books, April, 2004

6- Arthur Mille Einstein, Picasso: Space, Time and the Beauty That Causes, Havoc Po- .cketbook , 14 Februari 2000

7- محمود صبري، بيان واقعية الكم، فن جديد لعصر جديد، بغداد، مطبعة الأديب البغدادية، 2018، ص 290.

8- ساطع هاشم، «هذه هي واقعية الكم» https://www.sattahashem.com/this-is-quantum-realism

استدراك حول إدارة الخطر
والأشكال الأولية لها في الحضارة السومرية

مصباح كمال

كاتب في قضايا التأمين

أولئك الذين لا يستطيعون تذكر الماضي محكوم عليهم بتكراره.
جورج سانتيانا (1863 - 1952)

1 - تطور المفهوم الحديث لإدارة الخطر

قبل أكثر من ثلاثة عقود قدمنا تعريفاً مكثفاً لإدارة الخطر بهذه العبارات: ''إدارة الخطر في جوهرها تتيح لنا كأفراد وكمؤسسات التعايش مع احتمالات المستقبل بروية وبعقلانية كي نتجنب الآثار المستقبلية غير المرغوبة ونضمن سلامة البشر والأصول والموارد. وبهذا المعنى فإن إدارة الخطر لا تقيم وزناً للحظ أو الإيمان والاتكال على الغيب'' [1].

كان الراحل سليم الوردي رائداً في التعريف بإدارة الخطر في العراق من خلال كتابه إدارة الخطر والتأمين [2]. وكان سباقاً في التمييز بين ''التأمين'' و ''إدارة الخطر'' رغم اشتراكهما بموضوع التعامل مع الأخطار وسبل معالجتها: ولكن هذا لا ينبغي أن يقودنا بالمقابل إلى الاعتقاد أن إدارة الخطر تقع ضمن دائرة التأمين. فإدارة الخطر – بمفهومها المعاصر – إطار واسع وشامل لمعالجة الأخطار التي تواجهها المنشأة أو أية وحدة اقتصادية. بينما يمثل التأمين أحد الأساليب والقنوات الرئيسة لإدارة التأمين [3].

يكرّس بعض صفحات الفصل الثاني من كتابه إلى عرض نشوء إدارة الخطر ويذكر كمثل لإدارة الخطر في التاريخ القديم ما يُروى عن ممارسات التجار الصينيين القدامى للتحوط من آثار الخطر [4].

بعدها يقدم مسحاً سريعاً لمقدمات ظهور المفهوم المعاصر لإدارة الخطر من خلال دراسات متخصصة في خمسينيات القرن الماضي [5].

من منظور التاريخ الاقتصادي فإن ظهور

إدارة الخطر كمفهوم للتعامل مع المستقبل وما يخبئه من تطورات وتقلبات، من مصادر مختلفة، طبيعية وبشرية، ارتبط بعصر النهضة كما يقول بيتر بيرنستين مؤلف كتاب ضد الأرباب [6].

في دراسة له لخص هذا التاريخ بالقول: "يبدأ تاريخ إدارة المخاطر في عصر النهضة، عندما انفصل الخيال البشري عن قيود الماضي وجعلت المعتقدات الأساسية الراسخة موضوعاً للتحقيق والتحدي. لقد شهد هذا العصر الاضطراب الديني، والرأسمالية الناشئة، والحماس الجامح للعلم والمستقبل" [7].

لكن تاريخ الأشكال الأولية لإدارة الخطر، السابقة لظهور مؤسسة التأمين، تمتد عميقاً في حضارات العديد من الشعوب، ومنها حضارة وادي الرافدين.

2 - إدارة الخطر والتأمين في التراث العربي

قبل أكثر من عقد كتبت الآتي في تقديمي لترجمة مقاطع من دراسة باللغة الإنجليزية يرد فيها ذكر شريعة حمورابي والجذور الأولية للتأمين: "لعل المتمرسين في البحث التاريخي لحضارة العراق القديم يقومون بدراسة الإرث القديم لإظهار جذور فكرة التأمين وخاصة في التعامل التجاري الخارجي الذي أنشأ الحاجة لأشكال أولية من إدارة الخطر توزيعاً وتحويلاً له من خلال المشاركة في المخاطرة التجارية" [8].

وفي وقت لاحق كتبت تعليقاً حول إدارة الخطر في التراث العربي: "ويشهد تاريخ العرب وجود أشكال أولية، تؤشر على بدايات إدارة الخطر. رغم حداثتها كموضوع مستقل، فإنها موجودة، وبأشكال مختلفة، كممارسة للتحوط من آثار ما يمكن أن يحصل مستقبلاً للناس وأموالهم من خسائر وأضرار".

نقرأ الاتي في كتاب: "من قديم كانت جزيرة العرب طريقاً عظيماً للتجارة، فطوراً تنقل غلاتها إلى ممالك أخرى كالشام ومصر، وأهم هذه الغلات البخور الذي يكثر في الجنوب في ظفار؛ وطوراً تنقل غلات بعض الممالك إلى البعض الآخر، ذلك لأن طريق البحر لم يكن طريقاً آمناً، فالتجأ التجار إلى البر يسلكونه، ولكن طريق البر نفسه كان طويلاً وكان خطراً، لذلك أحاطوه بشيء من العناية، كأن تخرج التجارة في قوافل، وأن تسير القوافل في أزمنة محددة وفي طريق محدودة." (التأكيد من الباحث) [9].

وذكرت أيضاً في نفس التعليق ما ورد في القرآن بشأن أحد الأشكال الأولية لإدارة الخطر: "ولنا في قصة النبي يوسف ومشورته لفرعون مصر عن خطر سنوات المجاعة مثلاً جيداً عن إدارة هذا الخطر. وبهذا الشأن نقرأ التالي في القرآن (سورة يوسف: 49-43):

"وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ. قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ. وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ. يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ

يَعْلَمُونَ. قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ. ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ. ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ.“

التفكير في المستقبل وما قد يحمله من آثار واستنباط الوسائل المناسبة للتعامل مع تصور الآثار نشاط بشري يتخذ أشكالاً عديدة“ [10].

هناك عيّنات أخرى للأشكال الأولية للتأمين وإدارة الخطر في التراث العربي أشرنا إليها في دراسات سابقة [11].

3 - الأصل في الحضارة السومرية

الاسطورة القرآنية وردت أيضاً في العهد القديم. وبودي في هذا الاستدراك التأكيد على أسبقية الحضارة السومرية في رسم معالم الأشكال الأولية لإدارة الخطر قبل من قام بتدوين العهد القديم والقرآن، وتقديم بعض الملاحظات بهذا الشأن.

حلم فرعون وتفسير يوسف له في ما ورد في الفصل 41 من العهد القديم. نقتبس هنا مقاطع من هذا الفصل:

”25 فَقَالَ يُوسُفُ لِفِرْعَوْنَ: «حُلْمُ فِرْعَوْنَ وَاحِدٌ. قَدْ أَخْبَرَ اللهُ فِرْعَوْنَ بِمَا هُوَ صَانِعٌ. 26 الْبَقَرَاتُ السَّبْعُ الْحَسَنَةُ هِيَ سَبْعُ سِنِينَ، وَالسَّنَابِلُ السَّبْعُ الْحَسَنَةُ هِيَ سَبْعُ سِنِينَ. هُوَ حُلْمٌ وَاحِدٌ. 27 وَالْبَقَرَاتُ السَّبْعُ الرَّقِيقَةُ الْقَبِيحَةُ الَّتِي طَلَعَتْ وَرَاءَهَا هِيَ سَبْعُ سِنِينَ، وَالسَّنَابِلُ السَّبْعُ الْفَارِغَةُ الْمَلْفُوحَةُ بِالرِّيحِ الشَّرْقِيَّةِ تَكُونُ سَبْعَ سِنِينَ جُوعًا. 28 هُوَ الأَمْرُ الَّذِي كَلَّمْتُ بِهِ فِرْعَوْنَ. قَدْ أَظْهَرَ اللهُ لِفِرْعَوْنَ مَا هُوَ صَانِعٌ. 29 هُوَذَا سَبْعُ سِنِينَ قَادِمَةٌ شِبَعًا عَظِيمًا فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ. 30 ثُمَّ تَقُومُ بَعْدَهَا سَبْعُ سِنِينَ جُوعًا، فَيُنْسَى كُلُّ الشِّبَعِ فِي أَرْضِ مِصْرَ وَيُتْلِفُ الْجُوعُ الأَرْضَ. 31 وَلاَ يُعْرَفُ الشِّبَعُ فِي الأَرْضِ مِنْ أَجْلِ ذلِكَ الْجُوعِ بَعْدَهُ، لأَنَّهُ يَكُونُ شَدِيدًا جِدًّا. 32 وَأَمَّا عَنْ تَكْرَارِ الْحُلْمِ عَلَى فِرْعَوْنَ مَرَّتَيْنِ، فَلأَنَّ الأَمْرَ مُقَرَّرٌ مِنْ قِبَلِ اللهِ، وَاللهُ مُسْرِعٌ لِيَصْنَعَهُ. 33 «فَالآنَ لِيَنْظُرْ فِرْعَوْنُ رَجُلاً بَصِيرًا وَحَكِيمًا وَيَجْعَلْهُ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ. 34 يَفْعَلْ فِرْعَوْنُ فَيُوَكِّلْ نُظَّارًا عَلَى الأَرْضِ، وَيَأْخُذْ خُمْسَ غَلَّةِ أَرْضِ مِصْرَ فِي سَبْعِ سِنِي الشِّبَعِ، 35 فَيَجْمَعُونَ جَمِيعَ طَعَامِ هذِهِ السِّنِينَ الْجَيِّدَةِ الْقَادِمَةِ، وَيَخْزِنُونَ قَمْحًا تَحْتَ يَدِ فِرْعَوْنَ طَعَامًا فِي الْمُدُنِ وَيَحْفَظُونَهُ. 36 فَيَكُونُ الطَّعَامُ ذَخِيرَةً لِلأَرْضِ لِسَبْعِ سِنِي الْجُوعِ الَّتِي تَكُونُ فِي أَرْضِ مِصْرَ، فَلاَ تَنْقَرِضُ الأَرْضُ بِالْجُوعِ». 37 فَحَسُنَ الْكَلاَمُ فِي عَيْنَيْ فِرْعَوْنَ وَفِي عُيُونِ جَمِيعِ عَبِيدِهِ“ [12].

”الاستشارة“ التي قدمها يوسف لاتخاذ التدابير المناسبة للتحوط من آثار الجوع المتوقع، كما دونها كتبة العهد القديم، ليست بفكرة أصيلة. فهي تضم انتحالاً، تناصاً، مع ما كان متداولاً في أدب وادي الرافدين [13].

في اللوح السابع من ملحمة گلگامش نقرأ عن التحوط للمستقبل في سياق دعوة عشتار لأبيها آنو للانتقام من گلگامش بسبب إهانته:

”أخلق لي يا أبت ثوراً سماوياً ليهلك جلجامش

وإذا لم تخلق لي الثور السماوي فلأحطمن باب العالم السفلي وافتحه على مصراعيه وأجعل الموتى يقومون فيأكلون كالأحياء

ويصبح الأموات أكثر عدداً من الأحياء
ففتح آنو فاه وأجاب عشتار الجليلة وقال:
لو لبيّت طلبك لحلّت سبع سنين عجاف لا غلة فيها
فهل جمعت غلة تكفي الناس؟
وهل خزّنت العلف للماشية؟
ففتحت عشتار فاها وأجابت "آنو" أباها قائلة:
لقد كدّستُ "بيادر" الحبوب للناس وخزّنُت العلف للماشية
فلو حلّتْ سبع سنين عجاف فقد خزّنتُ غلالاً
وعلفاً تكفي الناس والحيوان
ولما أن سمع "آنو" كلامها سلّم عشتار سلسلة مقود الثور السماوي فأخذته وقادته إلى الأرض" (14)..

في الهامش 33 من كتابه ملحمة جلجامش يكتب طه باقر الآتي: بخروج الموتى ومشاركتهم الأحياء في الطعام تحل المجاعة في الأرض ويُحرم حتى الالهة من الغذاء.

في الهامش 54 يكتب طه باقر الآتي: كان الأولى أن يقع القحط والمجاعة لو فعلت عشتار ما هددت به ولكن يبدو كما رأى بعض الباحثين أن ثور السماء يرمز إلى الجفاف واحباس الماء.

متد هذا التناص إلى النص القرآني كما اقتبسناه سابقاً (سورة يوسف: 43 - 49).

النص التوراتي، السومري المصدر، فيه تعالي وافتئات على قدرة المصريين القدماء في التعامل مع التغيرات الموسمية. وبهذا الشأن يقول شفيق مقار: "لكن الفرعون المنبهر – في حكاية التوراة – لم يكن ملماً بحكاية عشتار، فاعتبر يوسف عبقريا عديم القرين، رغم أن مصر كانت بلداً زراعياً من آماد طويلة واعتمدت على فيضان النيل وعانت بغير شك من انخفاض منسوب مياهه في بعض السنين، ومن موسم "التحاريق" السنوي – وككل بلد زراعي منظم لا يجوب أهله الفيافي ويتطفلون على أراضي الأقوام الأخرى ويسطون عليها – كانت مستطيعة بلا شك أن تخرج من تجربتها الطويلة بتلك القاعدة الزراعية البسيطة: التخزين في سني الوفرة لمواجهة احتياج سني الشح، وهي القاعدة التي أدمجها الفلاحون السومريون في أسطورتهم على لسان عشتار" (15).

يؤكد هذا العرض السريع أن الأفكار لها أصولها، وأنها يمكن أن تنتقل عبر الأجيال والقرون، وأنها تُطوّع لخدمة أغراض معينة في زمنها، وأنها موضوع للانتحال – وهذا ما لا يمكن اكتشافه إلا في وقت لاحق مع تطور أدوات البحث.

وهكذا فإن ملحمة گلگامش، وهي الأقدم، كانت مصدراً للحكاية التوراتية بعدها الحكاية القرآنية.

4 - تأصيل الجذور التاريخية الأولية للمؤسسات الحديثة التي تتعامل مع الخطر

لقد جاءت أسطورة حلم فرعون والحل الذي تقدم به يوسف في العهد القديم وبعد ذلك في القرآن كمؤشر أولي على كيفية استجابة البشر لما تخبئه الطبيعة من تقلبات مختلفة بعضها كوارثية بفضل تراكم للأساطير الضاربة في القدم، كما حاولنا توثيقه في هذه الورقة.

ولنا أن ننظر إلي هذه النصوص الأسطورية على أنها تكثيف لتجربة البشر في العراق

القديم في مواجهة الطبيعة وكيفية التعامل مع ما تحمله من آثار على حياتهم. أي أنها لم تنشأ من فراغ.

لقد تحولت هذه النصوص، فيما بعد، إلى وسائل لتحقيق غايات معينة ذات طابع سياسي، كما يكتب شفيق مقّار في قراءته السياسية للتوراة؛ أو تتحول إلى حكاية لاستنباط المواعظ منها كما في النص القرآني.

لعل المتخصصين في تاريخ حضارة العراق القديمة ينتبهون وينبهون لبعض الأشكال الأولية لإدارة الخطر والتأمين في المدونات القديمة.

وهو ما سيساهم في تأصيل الجذور التاريخية الأولية للمؤسسات الحديثة التي تتعامل مع الخطر.

إن استعادة الأصل السومري لا يراد منه التعالي على المنتجين الآخرين للأفكار ولكن لوضع الأمور في نصابها قدر الإمكان.

———

23 آذار 2023

الهوامش:

1- نيل كروكفورد، مدخل إلى إدارة الخطر، ترجمة تيسير حمد التريكي ومصباح كمال، (طرابلس: شركة ليبيا للتأمين، ط2، 1990. صدرت ط1 سنة 1990)، مقدمة المترجمين، ص 10.

2- سليم علي الوردي، إدارة الخطر والتأمين (بغداد: مكتب الريم، 1999).

3- الوردي، ص 38. في حقيقة الأمر فإن التأمين، ضمن عملية إدارة الخطر، يأتي في نهاية العملية، بعد تشخيص الخطر وقياسه وسبل السيطرة عليه، كإحدى وسائل تحويل العبء المالي المترتب على الخطر إلى شركة التأمين؛ هذا إن لم تلجأ المنشأة إلى تخصيص صندوق لمواجهة العبء أو تأسيس شركة تأمين مقبوضة خاصة بها.

4- الوردي، ص 34 – 37. فات على الدكتور الوردي ذكر ممارسات مماثلة في العراق القديم. راجع: مصباح كمال، الأشكال الأولية للتأمين في العراق القديم ومباحث أخرى (مكتبة التأمين العراقي، 2023).

5- لعرض آخر لنشوء مفهوم إدارة الخطر راجع: H. Felix Kloman, A Brief History of Risk Management, file:///C:/Users/misba/Downloads/Chapter2.pdf

للتعريف بالتاريخ المعاصر لإدارة الخطر راجع:

The Geneva Papers on Risk and insurance, 7 (No 23, April 1982), pp. 169-179, The Bibliography and History of Risk Management: Some Preliminary Observations by G. Neil Crockford

https://link.springer.com/content/pdf/10.1057/gpp.1982.10.pdf

من بين الأمور المهمة التي يشرحها الكاتب هو عدم التمييز الدقيق بين حدود التأمين وحدود إدارة الخطر والنظر إلى الأخير وكأنه امتداد للتأمين. ويقتبس كمثل على ذلك أول كتاب عن موضوع إدارة الخطر في المنشآت:

Robert Mehr & Bob Hedges, Risk Management in the Business Enterprise (Homewood, Illinois: Irwin, 1963).

تميل معظم الكتابات التي تؤرخ لمفهوم إدارة الخطر إلى إرجاع أصولها لعشرينيات القرن العشرين. ونقرأ في الموسوعة الحرة بهذا الشأن ما يفيد أن إدارة المخاطر في الأدبيات العلمية والإدارية منذ العشرينيات بدأت في الظهور في هذه الفترة، وأصبحت فرعاً علمياً متميزاً في خمسينيات القرن الماضي، عندما بدأت المقالات والكتب تنشر بعنوان «إدارة المخاطر» وكانت معظم الأبحاث تتعلق في البداية بالتمويل والتأمين.

https://en.wikipedia.org/wiki/Risk_management#:~:text=9%20External%20links-,Introduction,related%20to%20finance%20and%20insurance

6- Peter L. Bernstein, Against the Gods: The Remarkable Story of Risk (John Wiley & Sons, 1996).

7- Peter L. Bernstein, “The New Religion of Risk Management,” https://hbr.org/1996/03/the-new-religion-of-risk-management

(From the Magazine (March–April 1996

A version of this article appeared in the March–April 1996 issue of Harvard Business .Review

8- أنظر أيضاً مصباح كمال، ترجمة وإعداد، مقالات ومراجعات حول الخطر والتأمين (بيروت: منتدى المعارف، 2019)، فصل «وجهة نظر تاريخية حول مصطلح الخطر المعنوي»، ص 97 – 104.
مصباح كمال، البحث في الأشكال الأولية للتأمين في العراق القديم ومباحث أخرى، (مكتبة التأمين العراقي، 2003)، فصل «موقع شريعة حمورابي في تاريخ التأمين»، ص 82 – 83.

9- نقلا عن أحمد أمين، فجر الإسلام، مصباح كمال، مواقف دينية تجاه التأمين: مقاربات نقدية، (مكتبة التأمين العراقي، 2021)، فصل» هل هناك عقد للتأمين في الفقه الإسلامي؟»، ص 140 – 146.

10-المصدر نفسه، ص 144.

11-مصباح كمال، مقتربات تاريخية واقتصادية ومعاصرة (بيروت: منتدى المعارف، 2022)، فصل «إطلالة على ابن خلدون وجذور التأمين في العالم العربي»، ص 39 – 46. نشرت أصلاً في مجلة الثقافة الجديدة، العدد 404 – 405، آذار 2019.

12-تكوين41https://st-takla.org/Bibles/BibleSearch/showChapter.php?chapter=41&book=1

13-استفدت في كتابة هذه الملاحظات من كتاب شفيق مقار، قراءة سياسية للتوراة (لندن: رياض الريس للكتب والنشر، 1987).

14-يمكن قراءة خلفية الحوار بين آنو وعشتار في ص 63 وما بعدها من نسخة الكتاب المتوفرة في الشبكة العنكبوتية:
https://ia803003.us.archive.org/28/items/ktp2019-bk9138/ktp2019-bk9138.pdf
أو بالإنجليزية في اللوح السادس في كتاب
Maureen Gallery Kovacs, The Epic of Gilgamesh (Stanford University Press, 1989), pp .49-56
اقتبس شفيق مقار (مصدر سابق) النص التالي من طه باقر، ملحمة جلجامش (بغداد: سلسلة الكتب الحديثة، 1975)، ص 94 و 95: «لو فعلت ما تريدينه مني وزودتك بثور السماء لحلت في أرض «أوروك» سبع سنين عجاف. فهل جمعت غلالاً لهذه السنين العجاف؟ وهل خزّنت العلف للماشية؟ ففتحت عشتار فاها وأجابت أباها آنو قائلة: «لقد جمعت بيادر الحبوب للناس، وخزنت العلف للماشية فلو حلت سبع سنين عجاف فقد خزنت غلالاً وعلفاً تكفي الناس والحيوان».

15- مقار، ص 78.

استثمار الفوائض المالية في تأهيل القطاعات الاقتصادية

ا.د. حاكم محسن محمد الربيعي

مقدمة:

واجه الاقتصاد العراقي تحديات عديدة على مدى يزيد على اربعين عاما، اثرت بشكل واضح على جميع قطاعاته الاقتصادية، وكان التراجع واضحا في الفترة التي اعقبت عام الاحتلال، وقيام عملية سياسية قوامها المحاصصة الطائفية والقومية والمناطقية والحزبية. وجميعها معاول هدم لكيان الدولة، حيث واجه البلد ازمة سياسية حادة بين مكونات العملية السياسية انتهت بتشكيل حكومة توافقية، كان الشعب يأمل ان تعيد للبلد كيانه وتعمل على اعادة البناء وتعالج المشاكل الامنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، بل كل المفاصل ذات الصلة بعمل الدولة، دولة ذات كيان وسيادة وقرار مستقل وادارة للموارد الاقتصادية ادارة كفوءة وفاعلة من اجل النهوض بالبلاد الى المستويات التي تنهض بالعراق الى مصاف الدول الناهضة؛ اذ رغم ازدياد الموارد النفطية في السنوات الاولى لما بعد الاحتلال و السنوات الاخيرة إلا ان نتيجة لسوء ادارة المال العام وتفشي ظاهرة الفساد في كل مفاصل الدولة تراجعت البلاد واصبحت مضرب الامثال لأدنى الدول. وصنف العراق الرابع من حيث معدل الفقر، كما ورد في احصائيات منظمة الاسكوا بسبب كونه ضحية المحاصصة بكل اشكالها عبر 20 عاما. وقد مرّ على الحكومة المشكلة الحالية حوالي ثلاثة اشهر أو يزيد لكن المؤسف ان الآمال تضاءلت نتيجة ظهور حالات فساد كبيرة ومنها ما سمي بـ ”سرقة القرن“ وفاسدين بعناوين كبيرة لكن التعامل معهم كان مخيبا للآمال رغم حجم المبالغ المسروقة.

اولا- الفوائض المالية :

أهملت القطاعات الاقتصادية خلال الفترة التي سبقت عام الاحتلال حيث كان بين العسكرة والاهمال، ولذلك كانت الايرادات النفطية تساهم بالجزء الاكبر من ايرادات الدولة، ولذلك اعتبر العراق دولة ريعية.

الجدول (1)
الإيرادات النفطية للفترة 2016 – 2022

	2016	2017	2018	2019	2020	2021	2022
الإيرادات النفطية	69,773	67,950	77,160	93741	42,00	81,171	115,476
الإيرادات غير النفطية	11,928	11,610	14,481	11,829	--------	20,149	--------
مجموع الايرادات	81,701	79,011	91,644	105,570	--------	101,320	---------

المصدر: من اعداد الباحث استنادا إلى موازنات السنوات 2016 - 2021.

ورغم محاولات البعض للنهوض ببقية القطاعات الاقتصادية إلا انها تواجه بقيود تمنع هذه المحاولات في العراق، ويوضح الجدول رقم (1) الايرادات النفطية للفترة 2016 – 2022 [1]. وتشير التقارير الى ان الفوائض المالية قد تتجاوز 37 مليار دولار لعامي 2021 و2022 اذا استمرت اسعار النفط بسعر يفوق 85 دولارا.

ثانيا: واقع القطاعات الاقتصادية:

ا- القطاع الزراعي:

يشهد القطاع الزراعي اهمالا تاما فالمزارعون والفلاحون بحاجة الى دعم بالبذور والاستشارة الفنية والاسمدة، والاهم المياه التي تهدد العراق بالتصحر والجفاف بسبب التغير المناخي وعدم تعاون دول المنبع مع العراق في الاقرار بحقوقه الدولية في المياه كدولة مصب وقد بدأت نتائج شحة المياه في تقليص الاراضي المخصصة لزراعة الرز، بل بدأت هجرة من الريف الى المدينة لأن في بعض الأراضي تم تقليص الاراضي المخصصة لزراعة الرز فيها والتي تعد مصدر العيش لاصحابها. علما أنه كانت الأراضي الخصبة الصالحة للزراعة بحدود 48 مليون دونم، وفي العراق هناك نهران هما دجلة والفرات، وكان ينتج ويصدر منتجاته الزراعية الى عدة دول، إلا ان التحديات والمشكلات التي واجهها العراق من حروب متعددة وحصار شامل، ادت الى تراجع الاقتصاد العراقي ككل والقطاع الزراعي من ضمنها، وربما ان حجم المساحات الصالحة للزراعة تراجع بسبب شح المياه، والناتج عن التغير المناخي وعدم التزام دول المنبع تركيا وايران وسوربا دولة الممر بحقوق العراق المائية الدولية، ما خفض حصة العراق من المياه الدولية، اضافة الى استمرارها في بناء السدود كمحاولة تركيا بناء سد الجزرة الاخطر من سد أليسو رغم اعتراض العراق على بناء هذا السد ومطالبته بتحديد حصته المائية. وما تقوم به المحافظات الشمالية التي تنوي بناء اربعة سدود دون التنسيق مع الحكومة المركزية ستكون له نتائج خطرة في خفض حصة المنطقتين الوسطى والجنوبية من المياه، وقد انخفضت الى حد كبير المساحات المزروعة، ولاسيما في الموسمين الصيفي والشتوي لهذا العام. وقد اهمل القطاع الزراعي بشكل كبير واعتمد على الاستيراد من دول اقليمية وجارة، مما ادى الى تراجع الزراعة وتبعا لذلك

جدول (2)
مساهمة القطاع الزراعي في الناتج المحلي الإجمالي للفترة 2010 – 2020 (النسبة المئوية)

متوسط المدة	2020	2019	2018	2017	2016	2015	2014	2013	2012	2011	2010
4.181	5.89	3.72	2.78	2.94	3.94	4,16	4,91	4.80	3.7	4.5	4.17

المصدر: من إعداد الباحث استنادا إلى الجهاز المركزي للإحصاء، المجموعة الإحصائية السنوية للسنوات 2015 - 2020، بغداد.

كانت مساهمة هذا القطاع في الناتج المحلي الاجمالي متدنية إذ بلغت 4.18% للمدة من 2010 – 2020 [2] كما موضح في الجدول (2). وتبعا لذلك تأثرت الثروة الحيوانية التي تعتمد على المراعي التي تأثرت بالجفاف وشح المياه التي ترتب عليها زيادة الهجرة الريفية - الحضرية بشكل كبير واثر ذلك على القطاع الزراعي بشكل ملحوظ.

المصدر: من إعداد الباحث استنادا إلى الجهاز المركزي للإحصاء، المجموعة الإحصائية السنوية للسنوات 2015 - 2020، بغداد.

2 - القطاع الصناعي:

القطاع الصناعي وهو القطاع الذي كان يعمل في زمن الحصار، فما الذي يدعو الى توقف هذا القطاع المتميز بمنتجاته على مر السنين، وليس هناك رؤى لتشغيله، فهل النمو يحصل لقطاع اوقف بإصرار. حيث واجه القطاع الصناعي تحديا واضحا وكبيرا خلال الفترة التي اعقبت فترة الاحتلال، إذ اهمل هذا القطاع بتعمد وذلك بتأييد ودعم من جهات واطراف متعددة لها اذرع مسلحة، تقف حائلا دون السماح لأي طرف بالتدخل لمصلحة هذا القطاع. وقد شمل هذا الاهمال كلا من القطاعات الحكومية والخاصة و كذلك المنشآت الصغيرة. وكان اعلى عدد للمنشآت الكبيرة هو (682) منشأه في سنة 2020، تتوزع بين القطاعات الثلاث منها (619) منشأه للقطاع الخاص.

ويبين الجدول (3) والجدول (4) عدد هذه الشركات حسب إحجامها وقطاعاتها. ومن الجدير بالإشارة ان مساهمة القطاع الصناعي في الناتج المحلي الاجمالي

الجدول (3)
عدد المنشآت الصناعية الكبيرة للفترة 2015 – 2020

المجموع	خاص	مختلط	عام	حكومي	السنة
600	527	8	26	39	2015
566	503	7	34	22	2016
551	486	7	32	26	2017
600	535	6	28	31	2018
670	584	7	40	39	2019
682	619	6	33	24	2020

المصدر: الجهاز المركزي للإحصاء، المجموعة الإحصائية السنوية للسنوات 2010 - 2020.

الجدول (4)
عدد المنشآت الصناعية المتوسطة والمنشآت الصغيرة، للفترة 2010 – 2020

المنشآت الصغيرة	المنشآت المتوسطة	السنة
11131	56	2010
47869	159	2011
43669	218	2012
27696	226	2013
21809	120	2014
22480	92	2015
25966	179	2016
27856	182	2017
25747	198	2018
-----	-----	2019
26247	188	2020

المصدر: الجهاز المركزي للإحصاء، المجموعة الإحصائية السنوية للسنوات 2010 - 2020.

للسنوات الثلاث 2018 و2019 و2020 بحدود 2.0 % و2.1 % و 2.7 % على التوالي في حين كانت مع وجود الحصار نسبة المساهمة 12% ، وان هذا القطاع ممكن ان ينهض من كبوته لو تمت ادارته من عناصر كفوءة ووطنية.

3 – القطاع النفطي:

لم يشهد القطاع النفطي اية تطورات خلال فترة تزيد على اربعين عاما وبالتالي فهو متخلف تقنيا عن أقرانه في الدول النفطية الاخرى. كما تعرضت بعض منشآته الى النهب والسلب والتفكيك كما حصل لمصفى بيجي، وفي كركوك. وللمقارنة، في مصر مثلا 14 مصفى في حين في العراق هناك مصافي مضى عليها زمن وهي بحاجة الى التطوير، ولا يتعدى عددها ثمانية مصافي فقط وهي:

1 - مصفى الدورة
2 - مصفى كركوك
3 - مصفى ميسان
4 - مصفى الكَيارة
5 - مصفى الوند
6 - مصفى بيجي
7 - مصفى الشعيبة
8 - مصفى ذي قار

وهناك ثلاثة مصافٍ جديدة في النجف وكربلاء والشنافية تأسست في الفترة التي اعقبت عام الاحتلال، 2003. كما أصبحت كلفة انتاج البرميل مرتفعة بموجب عقود التراخيص في حين ان تكلفة انتاج البرميل في العراق هي اقل كلفة بالمقارنة مع دول نفطية اخرى. وكانت اعلى كلفة هي (6 - 7) دولارات في الحقول البحرية في ابو ظبي واقل كلفة في الكويت من (1 - 2) دولار ، بينما كانت تبلغ في العراق اقل من نصف دولار، الا ان عقود التراخيص رفعت هذه الكلفة ويذكر البعض انها تصل الى (22) دولارا، في حين ذكرت الحكومة ان الكلفة هي (11 – 12) دولارا، وربما الاصح هو رقم وسطي بحدود (15 – 16) دولارا [3].

جدول (5)
عدد المنشآت السياحة في البلد

السنة	عدد الفنادق	ممتاز	د/1	د/2	د/3	د/4	شعبي	عراقيين	غير عراقيين	المجموع
2015	1296	10	46	264	298	192	486	3188315	1628941	4817256
2016	1484	12	41	290	302	285	554	4273075	3111358.7	7384434
2017	1666	15	33	318	382	311	559	3307813.	2817007	6124820
2018	1618	11	40	331	358	343	583	3911884	2185152.	6097036
2019	2282	36	127	407	451	601	710	9230104	4762359	13992463
2020	2291	35	129	403	455	545	724	6772579	1032142	7804821

المصدر: الجهاز المركزي للإحصاء، المجموعة الإحصائية السنوية للسنوات 2010 - 2020.

4 – قطاع السياحة:

توجد مواقع سياحة وآثارية وتاريخية في العراق من شماله حتى جنوبه وهناك ورغبة لدى الكثير من السائحين لزيارة تلك المواقع لو توفر لها الامن والخدمات السياحية. ولو حصل فيها اهتمام من قبل الدوائر ذات العلاقة شريطة توفير الامن مع توفر الخدمات السياحية التي يحتاجها السائح، لوفرت هذه المواقع ايرادات للدولة تقارب الايرادات النفطية، ولكن تعرض العراق على مدى يزيد على الاربعين عاما الى الحروب والازمات السياسية والاقتصادية والحصار وقد اثر ذلك كثيرا عليه سياسيا واقتصاديا واجتماعيا لأن كل هذه الجوانب مترابطة ومؤثرة بعضها على البعض الآخر، الامر الذي انعكس على الاقتصاد الوطني بكل قطاعاته ومنها بالتحديد قطاع السياحة الذي يعتمد على توفر الامن اولا والخدمات السياحية التي يحتاج اليها السائح. ويوضح الجدول (5) اعداد الفنادق السياحية بدرجاتها المختلفة حيث كانت الفنادق ذات الدرجة الممتازة اقلها عددا لكنها اصبحت 35 فندقا سنة 2020 بعد ان كانت 10 فنادق سنة 2015 رغم تنشيط السياحة نسبيا حيث تحتاج السياحة الى الاستقرار الامني والسياسي، وهما عنصران ما زالا قلقان بحيث البيئة السياحية ليست جاذبة كما يجب. اما الفنادق ذات الدرجات الاقل من د/1 – د /4 او الشعبية فأعداها اكبر، في حين بلغ عدد السياح من عراقيين وعرب وأجانب اعلى عدد سنة 2019 وهي السنة التي سبقت وباء كورونا؛ اذ بلغ عدد السياح لهذه السنة (13,992,463) سائح.

ويمكن ان تزداد الاعداد اذا توفر الاستقرار الامني والسياسي مع تحسين الخدمة الفندقية

ثالثا – المقومات:

هناك مجموعة من المقومات التي يمكن ان تساهم في تعزيز استراتيجية تأهيل القطاعات الاقتصادية، ابرزها:

1 - وجود فوائض مالية:

يكاد يكون الاقتصاد العراقي احادي الجانب لاعتماده بشكل كبير على الايرادات النفطية التي شكلت نسبة كبيرة من الايرادات العامة، تجاوزت في غالب الاحيان 90% من مجموع الايرادات العامة، وتحققت وازدادت هذه الفوائض بحكم ارتفاع اسعار

النفط. وتشير التقارير الى ان هذه الفوائض قد تتجاوز 37 مليار دولار لعامي 2021 و2022 اذا استمرت اسعار النفط بسعر يفوق 85 دولارا.

2 - وجود كوادر متخصصة:

في العراق كوادر متخصصة وكفوءة من كل الاختصاصات ولديها وطنية ورغبة في خدمة الوطن بكل اخلاص ومن الناس المخلصين والنزيهين، وبالتالي بالامكان الاستفادة من هذه الكفاءات واستثمار قدراتها وكفاءتها في تنفيذ المشروعات الاستثمارية التي يمكن ان تنهض بالبلد الى حالة افضل بعد تراجع دام اكثر من اربعين عاما، اضافة الى ما عاناه الاقتصاد العراقي من تحديات ابرزها الحروب العبثية التي سخرت كل القدرات للحرب، وهذا ما كان قبل عام 2003.

3 - وجود حكومة وضعت منهاجا وزاريا طموحا

شمل تبني خطة واقعية قابلة للتنفيذ - كما جاء في المنهاج - من قبل الوزارات والهيئات المستقلة، تتضمن الخطة اصلاح القطاعات الاقتصادية والمالية والخدمية ومعالجة الفقر والبطالة ومكافحة الفساد الاداري والمالي ووقف هدر المال العام، لكن الامر يحتاج الى جدية دون التأثر بالجماعات الضاغطة [4].

4 - الحراك الشعبي التشريني

الذي طالب ويطالب بالتغيير وبحكومة وطنية تضع المصلحة الوطنية للبلد في المقدمة وتلبية مطالب المنتفضين، اذ لا يمكن ان تستمر الحكومات بالصمت إزاء المطالبات الشعبية، فللشعب كلمته التي لا ترد.

رابعا – التحديات:

بالمقابل هناك تحديات كبيرة يمكن ان تعرقل تنفيذ اي استراتيجية للنهوض بالاقتصاد العراقي، وبالتالي عرقلة تأهيل القطاعات الاقتصادية لعدم وجود ارادة موحدة وتعدد الكتل والتشكيلات السياسية والفصائل المسلحة التي كان السبب في تعدد الارادات والتوجهات، ومع الارتباطات الدولية والاقليمية لهذه الجماعات لم يتولد لدى الجميع وبشكل محدد ارادة واحدة نحو تطوير القطاعات الاقتصادية، ولذلك بقي حال القطاعات الاقتصادية يأخذ بالتراجع الى مستويات متدنية. ومن اهم التحديات:

أ. الفساد المالي والاداري:

ظاهرة الفساد المالي والاداري، ظاهرة تكاد تكون موجودة في كل المجتمعات، لكن الاختلاف في مستوياتها حسب كل دولة وقدرتها على مكافحة الفساد، وهي تتعاظم بغياب سلطة القانون وتهاون القضاء مع مرتكبي جرائم الفساد المالي بكل اشكاله. وقد يكون تهاون القضاء وعدم قيامه بمسؤولياته بفعل فاعل وهذا الفاعل له القدرة السلطوية والعسكرية اللاقانونية. وهناك استغلال للمنصب الحكومي ضمن ما يسمى اساءة استعمال السلطة. وقد تفشت هذه الظاهرة في العراق على نحو واسع وفي مختلف مفاصل الدولة، ولذلك كانت هذه الظاهرة أقوى عامل معرقل ومعوق ومحدد كبير امام اي محاولة تطوير او استثمار من شأنه النهوض بالقطاعات الاقتصادية. ومن مظاهر الفساد المالي تقدير تكاليف المشروع الاستثماري بضعف التكاليف وهذا ما ذكره أحد رجال الاعمال، وكما ورد في تقرير مجلة نيويورك الامريكية الصادرة في 29

تموز 2020. وكان التقرير الذي نشرته بعنوان (الدولة اللصوصية في العراق – نظرة من الداخل) [5]، يقول رجل الاعمال انه احيل عليه مشروع بكلفة 40 مليار دينار وهو ما يعادل في حينه 33 مليون دولار، ويذكر انه نفذ المشروع بعشرة مليارات دينار، و 25 مليار دينار ذهبت لجيوب مسؤولين حكوميين، بينما حصل هو على خمسة مليارات. والسؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا توضع تكاليف مضاعفة بأربع مرات من الكلفة التي يمكن بها انجاز المشروع، وهذه حالة يمكن ان تكون اقل الحالات فسادا، لكن هكذا تُسيّر الامور في دولة غاب فيها القانون الفاعل والحساب [6].

ب. القوى الدولية والاقليمية:

تشكل القوى الدولية والإقليمية قوى مؤثرة وبقوة في الارادات الداخلية للدول، وقد مورست مثل هذه التأثيرات في اغلب دول العالم الثالث والهدف منها ابقاء هذه الدول متخلفة لتبقى معتمدة على الاستيراد للسلع والبضائع واية مستلزمات يحتاجها البلد في استخدامات مختلفة، ومن اجل ان تبقى اسواقها اسواقاً لتصريف وتسويق منتجات هذه القوى الدولية والإقليمية.

ج. غياب سيادة القانون:

تراجع سيادة القانون وهذا التراجع يعود الى عدم امكانية الدوائر المعنية بفرض سيادة القانون على الجميع، ولكنه يطبق على المواطنين الذين ليس لديهم قوى تسندهم، وهذا عيب كبير، ان يطبق على الفقراء وينجو منه الفاسدون، في حين تقتضي العدالة الاجتماعية تطبيق القانون وفرض سيادته بشكل متساوٍ على الجميع مهما كان موقع المتهم او المجرم.

د. الجماعات الضاغطة:

تبرز في كل مجتمع جماعات تمارس انواعا متعددة من اشكال الضغط المجتمعي والسياسي والاقتصادي... الخ، ولمختلف الاغراض ولأهداف شتى. ولكون الادارات اغلبها لم تكن قد جاءت الى مواقعها عن طريق الخيارات الاعتيادية القائمة على الخبرة والكفاءة والمراس والمؤهلات العلمية، وحتى تلك التي تملك مثل هذه الخبرات لكنها جاءت الى الموقع بأساليب غير اعتيادية، فهي في هذه الحالة لا تستطيع الصمود امام الجماعات الضاغطة، وبالتالي تستجيب لهذه الجماعات خلافا للقانون، ما يعكس اثره على مجمل الاقتصاد العراقي بالكامل.

خامسا - مجالات التأهيل

1 - القطاع الزراعي:

1-1 بداية يجب التفاوض بجدية مع دول المنبع والمرور لنهري دجلة والفرات، لضمان حصة العراق المائية وفقا للقوانين والمعاهدات والاعراف الدولية، وكذلك ما يتعلق بالفروع التي حول مجراها من قبل الجارة الشرقية وتحويل مسار نهري الكرخة والكارون وهما كما تقول التقارير الدولية نهران دوليان لا يجوز تغيير مسارهما. كما يجب ان يكون بناء اي مرفق يتعلق بالإرواء من سدود وخزانات تحت اشراف وزارة الموارد المائية في بغداد وعدم السماح لأي جهة مهما كانت اقامة اي منشأ اروائي خارج اشراف الوزارة المركزية .

1-2 تولي وزارة الموارد المائية تنظيم ادارة المياه وتوزيعها حسب متطلبات

الحاجة الزراعية وبالتنسيق مع الدوائر الزراعية المتخصصة وبناء السدود او النواظم او حتى الخزانات حسب ما يراه خبراء وزارة الموارد المائية وهي وزارة فيها من الخبرات المشهود لها بالكفاءة، مع عدم السماح بالتجاوز لأي جهة كانت، وتطبيق القانون على المتجاوزين.

1-3 تسليف المزارعين والفلاحين من الفوائض المالية بسلف تمكنهم من شراء الآلات الزراعية باختلاف انواعها ونوع الحاجة اليها على ان تقدم هذه السلف باشراف اتحاد الجمعيات الفلاحية وللأغراض التي تسلف من اجلها، تجنبا لاستخدام هذه السلف للأغراض غير الزراعية وذلك باستحصال تعهدات بمصادرة المقتنيات في حالة استعمال السلف او القروض للأغراض غير الزراعية مع استمرار المطالبة بالقرض، اي مصادرة واستمرار المطالبة بالقرض لان مثل هذه الحالات واردة.

1-4 دعم القطاع الزراعي من خلال استلام المحصول وتسويقه ومنع استيراد ما ينتج في العراق وحصر الاستيراد فقط للمحاصيل الزراعية التي لا يمكن انتاجها بالعراق، وهذا مبدأ معمول به في مختلف دول العالم.

1-5 دعم المزارعين والفلاحين بالأسمدة الكيمياوية والبذور والإرشاد الزراعي والمكافحة للأمراض التي تصيب الحقول الزراعية او اشجار الفاكهة والنخيل.

1-6 الاستفادة من بحوث الندوة التي اقيمت حول (ظاهرة التصحر وتدهور البيئة) من قبل متخصصين عراقيين في الرابع والعشرين من ايلول العام الماضي (2022) والتي طرحت فيها افكار علمية مفيدة في معالجة الملوحة والتصحر وشح المياه في بريطانيا [8].

2 - القطاع الصناعي:-

القطاع الصناعي من القطاعات التي تحظى باهتمام الحكومات باعتباره من القطاعات الاقتصادية المهمة والتي تشكل ركنا اساسيا من اركان الاقتصاد الوطني في اي دولة. ولكن هذا القطاع تعرض الى الاهمال في العراق ولاسيما بعد فترة الاحتلال حيث كان في زمن الحصار يعمل ويساهم في تلبية احتياجات المستهلك والبعض منها يصدر خارج العراق، إلا انه تراجع بعد الاحتلال بشكل كبير والسبب اهمال القطاع الصناعي وفق اجندات اقليمية ودولية. وقد ادى ذلك الى تقادم الآلات والمعدات بحيث يحتاج الامر الى اعادة نظر في كل ما يتعلق بالقطاع الصناعي. وابرز هذه الخطوات التي يمكن القيام بها من اجل النهوض ما يأتي:

2-1 إيقاف الاستيراد لكل السلع التي يستطيع القطاع الصناعي انتاجها دعما للصناعة.

2-2 تسليف الشركات الصناعية مبالغ من الفوائض المالية تمكنها من استبدال مكائنها وتدريب كوادرها على الآلات والمكائن الحديثة وتأهيل تلك التي يمكن تأهيلها للاستفادة منها على ان تتم استعادة هذه المبالغ من ايرادات الشركات بعد مرور زمن معين، وهو تمكن هذه الشركات من استعادة قدراتها وبيع المنتوج سواء في الاسواق الداخلية ام الخارجية من خلال التصدير. وان يكون التسليف في الاقل لمدة خمس سنوات.

2-3 دعم المنشآت الصناعية الصغيرة لانها

تساهم في الانتاج المحلي الاجمالي وتشغل قوى عاملة كبيرة بها، وبالتالي تساهم في امتصاص البطالة.

2-4 اعفاء الشركات الصناعية من الضريبة والرسوم الجمركية لمدة عشر سنوات.

2-5 استبدال الادارات الحالية بإدارات جديدة كفوءة وغير متحزبة ضمانا لحيادية الادارات وتوجهها الى العمل تحت هيمنة الدولة وسياستها التي يجب ان تتجه الى تنمية الصناعة الوطنية.

2-6 الزام دوائر ومؤسسات الدولة باقتناء المنتج الوطني دعما للصناعة العراقية وهكذا تعمل كثير من دول العالم في دعم وتأزر صناعاتها الوطنية.

3 - القطاع النفطي :

واجه القطاع النفطي منذ عام التأميم حزيران عام 1972 ورضوخ الشركات النفطية في آذار سنة 1973 لقرار التأميم تحديات كبيرة عكست آثارها بأشكال مختلفة. ومن بين اهم هذه التحديات هي الحروب التي حصلت خلال الفترة من 1980 ولغاية عام الاحتلال اضافة الى الحصار الشامل، وقد اصبح الاقتصاد العراقي في خدمة الحرب، لذلك لم يشهد القطاع النفطي اية تطورات، كما هي بقية القطاعات الاقتصادية الاخرى، ما ادى الى تقادم المعدات والمكائن المستخدمة في حين حصلت تطورات وظهرت تكنولوجيا متطورة دخلت الى الميدان، في حين بقي العراق متخلفا عن بقية الدول التي شهدت استقرارا خلال ذات الفترة. وعلى وفق ذلك يمكن ان تشتمل استراتيجية تطوير القطاع النفطي ومن خلال القيام بالعمل على تنفيذ الخطوات الاتية:

• الاستعانة بالشركات النفطية العالمية المتقدمة تكنولوجياً كالشركات البريطانية والامريكية والفرنسية واليابانية لتوفير أجهزة الفحص المختبري لفيزياء النفط للنماذج الباطنية من تحت سطح الارض من اجل دراسة الخواص الفيزيائية و تشمل اجهزة:

- تطوير محطات عزل الغاز والاستفادة منه بدلا من احتراقه.
- توفير معدات الحفر الحديثة
- تطوير محطات كبس الغاز

• التفاوض مع دول الجوار التي للعراق معها حقول مشتركة، للكف عن الحفر الافقي والقيام بسحب النفط الخام ومنذ عدة سنوات، والمطالبة بحصة العراق من هذه الكميات المسروقة واثارة الموضوع دوليا ان اقتضى الامر ذلك.

• ادارة النفط العراقي ادارة مركزية ومن اهل الاختصاص وعدم التفويض؛ فالثروة ثروة شعب وليس من المنطقي ان تكون تحت ادارة من يعمل على اساس مناطقي او قومي او طائفي او سياسي والاقتصار على اعتبار الوطن الواحد والوحدة الوطنية..

• محاسبة الشركات النفطية التي تقبل تسويق النفط من اي طرف او اي جهة كانت، وترك حالات التواطؤ لامور نفعية وسياسية، لان مصلحة الدولة اهم من ذلك.

• تشغيل معمل غاز الشمال الذي كان احدث معمل في الشرق الاوسط في حينه، ومن ضمنه خط او معمل الكبريت، وهو معمل يمكن ان ينتج ويصدر كميات توازي الايرادات النفطية ان لم يكن يزيد عليها، وينتج انواعا مختلفة من الغازات ذات الاستخدامات المتعددة.

• اقامة مصاف جديدة لتلبية الحاجة حيث

المتوفر بحدود 8 مصاف اغلبها ذات طاقة منخفضة.

• القطاع النفطي لم يشهد تطورا منذ سبعينيات القرن الماضي، وبالتالي هو بحاجة الى ادخال التحسينات في المعدات الآليات المعتمدة في الانتاج. وهناك ارادات سياسية يجب ان تنتهي وتدار الثروة النفطية من الدوائر المعنية بالأمر باشراف وادارة المتخصصين فنيا واقتصاديا، مع اتخاذ مجموعة من الاجراءات ذات الصلة.

• إعادة النظر في اعماق الحقول النفطية، فالبعض منها قريب من سطح الارض ويمكن زيادة الاعماق بما يؤدي الى زيادة الانتاج.

• زيادة الانتاج من حقول نفط كركوك الذي يعتبر نفطا خفيفا وذلك برفع قيود الانتاج التي يتدخل فيها الجانب السياسي؛ إذ ينتج حاليا 500 ألف برميل يوميا فقط.

4 - قطاع السياحة:

في ما يتعلق بالقطاع السياحي، يوجد في العراق من شماله الى جنوبه مواقع آثارية وتاريخية يمكن تأهيلها لتكون مواقع سياحية جاذبة واهم هذه الخطوات هي:

4-1 هناك مواقع قريبة من المدن كآثار بابل ومثل هذه الاثار، يرغب الكثير من السياح زيارتها لذلك يجب توفير خدمات سياحية جاذبة للسياح، كالفنادق السياحية بدرجات ممتازة او درجة اولى لأنها ستكون عامل جذب للسائح بدلا من المبيت في بغداد والعودة في اليوم التالي لأنه ليس هناك فنادق جاذبة. هذا على سبيل المثال وليس الحصر.

4-2 توفير وسائل نقل مريحة تكون متاحة وقت ما يرغب السائح بالتنقل ولأي الاماكن التي يرغب بها وفق اجور مكافئة للخدمة والكلفة.

4-3 تهيئة مرشدين من خريجي الفندقة والسياحة والذين لديهم خلفية تاريخية عن المواقع السياحية لتزويد السياح بالمعلومات التي يحتاجها للتعريف بالموقع السياحي.

4-4 اقامة محميات حسب المواقع والامكانية التي تجعل اقامة المحميات مجدية من الناحية المالية، والجاذبة للسياح من ناحية اخرى.

4-5 اجراء صيانة معقولة لا تغير من المعالم الاساسية للموقع السياحي، لان الاصل لا بديل له ويبقى هو الاساس الذي يبحث عنه السائح.

سادساً – الخلاصة والاستنتاجات

تهتم هذه المادة بموضوع تأهيل القطاعات الاقتصادية، مكونات الاقتصاد العراقي الوطني التي تراجعت بسبب الظروف السياسية والاقتصادية والحروب والحصار الشامل لثلاث عشرة سنة للفترة التي سبقت عام الاحتلال في 2003.

كما لم تشهد هذه القطاعات اي تطور بعد عام الاحتلال بل شهدت تراجعا اوسع بسبب الاهمال المتعمد لان النظام الذي جاء بعد الاحتلال قام على اسس لا تبني بلدا، بل عملية سياسية قائمة على الطائفية والقومية والحزبية والمناطقية، مما ولد عوامل تراجع بشكل كبير، اذ اهملت الصناعة تماما واقتصر القطاع الزراعي على مبادرات المزارعين والفلاحين ودون دعم، بل هناك استيراد ينافس المنتج الزراعي العراقي بالأسعار لا بالنوعية، لكن المواطن يريد المنتج الاقل سعرا لاسيما الغالبية من

الشعب من ذوي الدخل المحدود الذي لا يغطي نفقات العائلة اليومية. وهذا الاستيراد المستمر كان وما زال واحدا من العوامل المؤثرة سلبا. اما الصناعة فهي ليس في البال، وكذلك بقية القطاعات الاخرى كقطاع السياحة والخدمات. وبعد تشكيل الحكومة الحالية التي ظهرت الى الوجود بعد مرور عام ونيف على اخر انتخابات ووجود منهاج وزاري طموح يأمل المواطن ان يكون هناك اهتمام بتأهيل القطاعات الاقتصادية لدى صاحب القرار وذلك باستثمار الفوائض المالية الناتجة عن زيادة اسعار النفط، وهي تمكن صاحب القرار في حالة توفر الارادة والجدية في تطوير هذه القطاعات وكما تم تناولها في فقرات هذه الورقة، من حيث تسليف او اقراض المنشآت في كل القطاعات الاقتصادية على ان تمنح فترة خمس سنوات للبدء بإعادة اقساط القروض او السلف شريطة ان تكون بدون فائدة ويشترط لذلك دعم هذه القطاعات بإعفاء ضريبي ورسوم كمركية على استيراداتها خلال هذه الفترة، لتتمكن من تغطية التكاليف المترتبة على التأهيل، مع ايقاف الاستيراد لكل ما يمكن انتاجه من قبل القطاعات الاقتصادية كالقطاع الزراعي والقطاع الصناعي مع الزام كافة مؤسسات ودوائر الدولة من اقتناء المنتج الوطني بكل انواعه دون تردد، دعما للمنتج الزراعي والصناعي الوطني وهذا ما تعمل به كل الدول كنهج في سياساتها الوطنية تجاه المنتج الوطني، وحفاظا على طاقة وقدرات الدولة.

الهوامش

1- وزارة المالية، الموازنات السنوية العراقية للسنوات 2010 – 2020، بغداد.
2- الجهاز المركزي للإحصاء، المجموعة الإحصائية السنوية للسنوات 2020 – 2020، بغداد .
3- الجلبي، عصام، خمسون عاما في عالم النفط، بيروت، 2019.
4- المنهاج الوزاري للحكومة العراقية , 2022.
5- New York Magazine Time, In side the Iraq kleptocracy,29, July, 2020
6- الربيعي، حاكم محسن محمد، ملامح من الاقتصاد العراقي وارتفاع الاسعار، مجلة الثقافة الجديدة، العدد 431 – 432، تموز 2022.
7- كزوري، رونالد و فتوريا، اندريه وغيليتتر، جي، مكافحة الفساد عبر التاريخ، من العصور القديمة الى العصر الحديث، الجزء الأول، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت، 2022.
8- جريدة طريق الشعب، العدد 28 في 11 / 10 / 2022 .

قراءة في كتاب
«التنمية ... الأسئلة الكبرى»*

أحمد نصيب علي حسين

ما زالت التنمية أحد الألغاز الاقتصادية التي تعجز دول العالم الثالث عن حلها واكتشاف حقيقتها، فلقد قطعت شوطا طويلا فيها، ولكن الثمار ما زالت قليلة؛ فديون العالم الثالث ما زالت كبيرة، وما زال التفاوت بين الفقراء والأغنياء كبيرا، ولا يزال لغز التنمية محيرا، لذلك حاول الوزير والسفير السعودي الأسبق غازي القصيبي تبسيط وتقريب مفهوم التنمية وتوضيح وسائلها وسبل تحقيقها عبر هذا الكتاب القيم (التنمية الأسئلة الكبرى).

في مقدمة كتابه: يكشف القصيبي عن أهمية التنمية، وأن الجميع يسأل عنها بل وإن التنمية حاضرة في مقدمة القضايا التي تحملها أي حكومة جديدة في العالم، وسقوط أي حكومة ينبع من فشلها في التنمية، والثورات التي نشأت في هذا القرن العشرين إنما سببها هو إخفاق الحكومة في تحقيق التنمية، بل إن الفشل في تحقيق التنمية قد يقود لوقوع المجاعات في العالم الثالث.

ويعترف القصيبي بصعوبة موضوع التنمية للقارئ العادي غير المتخصص، نظرا لكثرة الكتب المؤلفة في هذا الباب؛ لذلك جاءت فكرة إعداد كتاب صغير يبسط مفهوم التنمية

وبعض نظرياتها، فهل يستطيع القصيبي تلخيص تلك النظريات وتوضيح مفهوم التنمية في 136 صفحة؟ هذا التحدي الذي سعى القصيبي لتخطيه في خمسة فصول.

ففي فصله الأول من كتابه يجيب القصيبي على السؤال الأول في التنمية وهو التنمية لماذا؟

بدلا من أن يضع المؤلف تعريفا نظريا للتنمية، ذهب للواقع ليقارن بين نموذجين: الأول في العالم الأول، والثاني في العالم الثالث، ليوضح مفهوم التنمية مفهوما عمليا ظاهرا للعيان؛ فيقارن بين مزارعين: الأول في أمريكا والثاني في السنغال؛ فالأول يزرع أرضه بالفول السوداني فيستفيد من أحدث سبل الزراعة، ويستفيد من البحث

العلمي الذي تموله الحكومة فينتقي أفضل أنواع البذور وأجود أصناف السماد. ويستفيد المزارعون من الخدمات التي تقدمها الحكومة الأمريكية فتساهم في الاستفادة من مزارعهم، ويستخدمون أحدث الوسائل في رش زرعهم بأحدث الوسائل، وكذلك في الحصاد، ثم يبيعون محاصيلهم من الفول السوداني بأعلى سعر، فيرتفع عن السعر الدولي نتيجة لتدخل الحكومة لحماية المزارعين من تقلبات السوق، ويُوضع المحصول في أحدث المخازن التي تحافظ على سلامته، ثم تقوم الحكومة بتصنيعه وتصديره، ونتيجة للسعر المرتفع للمحصول والتطور التكنولوجي في الزرع والدعم الحكومي الذي يتلقاه الفلاح الأمريكي، فانه يتمكن وعائلته من التمتع بكل ضروريات الحياة وكمالياتها.

وعلى الجانب الآخر يذكر القصيبي المزارع السنغالي فيذكر صورة غياب التنمية في واقع المزارع السنغالي، فهو يملك أرضا كنظيره الأمريكي ويزرعها مثله بالفول السوداني، فيستخدم وسائل حديثة في الزرع، لكنها ليست كجودة الوسائل الأمريكية، ولا يستطيع استخدام الأسمدة ولا المبيدات لغلائها أو عدم وجودها، ثم يحصد الفول السوداني باليد، وليس أمام المزارع السنغالي خيار غير بيع محصوله للهيئة الحكومية التي تحتكر شراء المحصول بأقل من سعره الدولي لتضمن أرباحها، ثم يُوضع المحصول في مخازن بدائية فيؤدي لتلف أكثر المحصول، ونظرا لعدة عوامل يقل دخل المزارع السنغالي فيعيش هو وعائلته عيشة متدنية؛ فقريته ليس فيها كهرباء ولا بقالات ولا عيادات ولا ماء، وليس جميع السنغاليين فقراء مثل هذا المزارع، فهناك أغنياء ولكنهم قلة كموظفي الهيئة الحكومية التي تشتري محصول الفول السوداني فيعيشون عيشة جيدة مما يتوفر لهم ولأسرهم المسكن والتعليم والصحة والغذاء.

ثم ينتقل المؤلف للمقارنة بين المزارعين الأمريكي والسنغالي ليذكر البيئة السياسية، فالمزارع الأمريكي له نائب يتجاوب مع مطالبه، فيحرص على بقاء دعم الحكومة للمزارعين من البحوث والخدمات الميدانية، على الرغم من أن المزارعين لا يمثلون إلا جزءا بسيطا من المجتمع الصناعي. بينما السنغالي لا يجد من يمثله من النواب ولا من يضغط على الحكومة ليوفر له سعرا مناسبا، ولا من يوفر له خدمات ميدانية، مع أن المزارعين يمثلون قطاعا عريضا في السنغال.

ويوضح القصيبي في التنمية جزئية خطيرة يخطئ فيها البعض فيظنون أن هدف التنمية هو جعل المزارع السنغالي كالأمريكي مثلا في ثقافته أو ثيابه أو جعل السنغال جزءا من أمريكا، فيحسبون التنمية غاية وليست وسيلة، فالتنمية وسيلة لتحسين حياة الأفراد والارتقاء بمستواهم الاقتصادي والثقافي والاجتماعي والصحي، وليست هدفا لطمس هوية الأمة وتغيير ثقافتها كما فعل اتاتورك في تركيا أو صنع الشاه رضا خان في إيران.

وبعد أن يستعرض القصيبي عددا من الأرقام والإحصائيات المفزعة التي توضح الفارق الكبير بين العالم الأول والثالث، يذهب باتجاه توضيح كم الديون والفقر والأمراض والتخلف التي تعاني منها دول العالم الثالث التي غابت عنها التنمية بخلاف دول العالم الأول. ويخلص المؤلف الى الجواب على سؤال لماذا ننمي فيقول: ”إنه بدون تنمية لا بد

من استمرار التخلف، ومع استمرار التخلف لا بد من استمرار الفقر، ومع استمرار الفقر تنعدم كل المقومات اللازمة للحياة البشرية وبدون تنمية ستسمر الفوارق الرهيبة بين البشر... وبدون تنمية ستزداد الهوة السحيقة بين الأغنياء والفقراء... وبدون تنمية سيستمر الجوع في حصد ضحاياه... أترانا نبالغ إذا قلنا إن العالم الثالث بدون تنمية ناجحة فعالة يقف على شفير مجاعات طاحنة؟'' (ص 22-23 بتصرف) .

طبعا لم يبالغ القصيبي فالواقع في العالم الثالث يشهد بصدق تلك الكلمات.

وفي فصله الثاني يطرح القصيبي سؤالا: التنمية لمن؟ ويثير القصيبي دهشة القراء من هذا السؤال، ثم يذهب بهذه الدهشة الى بيان أن التنمية قد تحدث والرخاء قد يأتي لكن لا يعمان الجميع، فالأغنياء حقا زادوا غنا لكن الفقراء أيضا زادوا فقرا، وحتى نفرق بين تنمية حقيقية يستفيد منها الجميع وتنمية لا يستفيد منها إلا أقلية ينقل عن محبوب الحق في كتابه ستارة الفقر الذي يثني عليه القصيبي ثناء شديدا، فيقول محبوب الحق: ''يجب أن يكون الهدف من التنمية هجوما محددا على أسوأ انواع الفقر، يجب أن تكون أغراض التنمية موجهة على نحو تدريجي إلى القضاء على سوء التغذية والمرض والأمية والبطالة وعدم تكافؤ الفرص، لقد علمونا أننا يجب أن نحصر اهتمامنا في الناتج القومي الكلي وحده على أساس أن هذا الاهتمام كفيل بحل مشكلة الفقر، أما الآن فعلينا أن نعكس الآية: علينا أن نهتم بمشكلة الفقر، وهذا الاهتمام كفيل بحل مشكلة الناتج القومي (ص 41).

ثم يستعرض القصيبي أثر الفساد غير المقصود في عرقلة عجلة التنمية (البيروقراطية البريئة) فيذكر منها أن الموظف المسؤول يبالغ في المعلومات التي يهتم بها ويقلل مما لا يهتم بها، وينحاز لما يهتم به من سياسات ويقف ضد السياسات التي تتعارض مع مصالحه، ويتجاوب مع الأوامر بقدر خدمتها لمصالحه، والدرجة التي يقوم بها في تلقي المخاطر والمسؤوليات التي تخص وظيفته تسير وفقا لتحقيق أهدافه الشخصية، فإذا انتقلنا إلى البيروقراطية غير البريئة سنجد ملايين الأرقام الدالة على الرشوة والفساد المعطلة لقطار التنمية، إذا استطعنا العثور عليها لأن الموظفين لا يسجلون إنجازات فسادهم، لنرى في النهاية ''أن الأجهزة البيروقراطية في العالم الثالث تحولت في معظم العالم الثالث إلي مراكز قوى لا يمكن السيطرة عليها، ولا تذعن لسلطان أحد، وتعمل على تحقيق أهدافها الشخصية عن طريق الابتزاز المنظم والرشوة'' (ص 49).

هذا ما يحدث مع بعض الموظفين والإداريين، أما ما يحدث مع رجل الشارع العادي في صعوبة الإجراءات لسداد حق من حقوق الدولة عليه كفاتورة الهاتف أو تجديد رخصة سيارة مما قد يدفعه لدفع رشوة أو عمولة لتيسير المعاملة فهذه صورة أخرى للبيروقراطية.

ثم يخلص المؤلف للإجابة على من ننمي؟ فيقول: ''يجب أن ننمي لصالح السواد الأعظم من الناس وهذا يتطلب منا أولا: أن نزيل استئثار الصفوة الحاكمة بثمرات التنمية، ويتطلب منا ثانيا: أن ننهي احتكار سكان العواصم للمزايا، ويتطلب منا ثالثا: أن ننتشل التنمية من براثن البيروقراطية وننقذها من براثن الفساد'' (ص55).

ثم يحذر القصيبي من مظهر خطير للتنمية الصورية، وهو التضخم (انخفاض القوة الشرائية للنقود بسبب ارتفاع أسعار الخدمات والسلع) ويفضل القصيبي بقاء الناس بلا تنمية لا تأتي بالتضخم بدلا من تنمية ممتلئة بالتضخم، ويدعو لتنمية حقيقية توفر السلع الخادمة للصالح العام والقيام بإجراءات تخفض الفقر وتخفف التفاوت بين البشر في الأجور وتوفير مزيد من فرص العمل وتقليل المعتمدين على العون التضامني من الدولة.

وفي الفصل الثالث: التنمية ماذا؟ يستعرض المؤلف السبل التي اتخذها العالم الثالث من أجل تحقيق التنمية في منتصف القرن الماضي في السعي للتصنيع، ثم تبع ذلك السعي لتغيير الهوية ونقل ثقافة غربية ولغة غربية لبلاد العالم الثالث، كانت التنمية مجرد نقل عشوائي بدون رؤية شاملة ولا صافية ولا أهداف واضحة، لتصبح نتائج التنمية لأقلية قليلة من أفراد الشعوب.

إن المنطلق الجديد للتنمية هو تنمية جميع القطاعات والمجالات لتوفير الحاجات الأساسية للإنسان من طعام ومسكن وعمل وصحة وصرف صحي وتعليم، بالإضافة للحاجات غير المادية كالكرامة والحرية والأمن.

لنصل للفصل الرابع الذي هو بعنوان التنمية كيف؟ والجواب هو التخطيط، ويفرق الكاتب بين إجراءات شكلية وإجراءات حقيقية في التخطيط، فيكون التخطيط هو انزال تطلعات المواطن لواقع الوطن، فالدول التي لا تخطط لن تنمو وبقاء الدول على خطط ثبت فشلها يرقى لصفوف الجرائم، ثم يستعرض المؤلف عددا من خطايا التخطيط التنموي في العالم الثالث: فذكر إهمال الجانب الزراعي على حساب الجانب الصناعي، والانفاق المبالغ فيه في الجانب العسكري على حساب الحاجات الرئيسية للشعوب، والاهتمام بالمدن الكبرى على حساب القرى والأرياف، ومن تلك الخطايا تشويش الرؤية مما يؤدي إلى الخلط بين الحاجات الرئيسية للفرد والكماليات، فالانفتاح على بعض الكماليات مع إهمال الأساسيات كرغيف الخبز من أعظم خطايا التنمية في العالم الثالث، ومن تشويش الرؤية أيضا استبدال منتج محلي رخيص بمنتج مستورد مكلف.

ويشير القصيبي في نهاية الفصل الرابع لأهمية أن تكون التنمية وفقا لحاجات الأفراد الذين يعيشون في الأرياف والأقاليم وليست وفقا لرؤية الموظف المخطط القابع في مكتبه محاطا بالخبراء الأجانب الذين لا يدرون عن حاجات الشعب الحقيقية، فالتنمية لن تتم عبر النقل الحرفي للنماذج الغربية التي لا تتوافق مع البيئة العربية مثلا.

وفي الفصل الأخير والخامس الذي عنونه القصيبي بقوله التنمية: المفتاح السحري، ليتحدث عن شيء مهم لنجاح التنمية وهو الذهنية المطلوبة وهي الذهنية العلمية التي تلجأ لحل المشكلات بالأسلوب العلمي بدلا من التخبط العشوائي.

فالذهنية التنموية لا ترى في قلة المال الضروري لتمويل التنمية مشكلة، فإتاحة الحرية أعظم أثرا من كثرة المال، وعدم المركزية واتخاذ مبدأ المشاركة في التنمية لا يترتب عليه أتعاب مالية كثيرة.

والذهنية التنموية ترفض أن تتحمل الدولة جميع أعباء التنمية دون مشاركة القطاع الخاص في ذلك، فتستطيع بيع بعض المؤسسات لبعض الأفراد ليؤدي خدمة

أفضل، فإصرار الدولة على تملك كل شبر ليس سببا وجيها لعدم مشاركة القطاع الخاص في التنمية، لا سيما مع ثبوت فشل النظام الاشتراكي في تحقيق التنمية. والذهنية التنموية قادرة على تنفيذ المشاريع باعتماد كلفة أقل إذا استغنت عن المعايير غير المهمة في تنفيذ المشروعات، بل وتستطيع تخفيض التكلفة مع تحسين الخدمة كما فعلت الصين في تدريب بعض الشباب تدريبا طبيا لمكافحة الأوبئة في الارياف، بدلا من النفقات الباهظة التي تأخذها أعداد الأطباء ثم يتركون القرى ويسكنون المدن.

والذهنية التنموية لا تعترف بالتقنية الأغلى وإنما بالتقنية الأنسب، فالحرص على التقنية الأغلى إذا لم تتوافق مع الواقع يؤدي لنتائج كارثية.

وتستطيع الذهنية التنموية تحقيق الكثير من النتائج إذا ركزت على التقنية الملائمة للبلاد، فنستطيع مثلا إضاءة الشوارع في القرى بالطاقة الشمسية مثلا.

والذهنية التنموية لا تبحث عن حلول سريعة إذا كانت هذه الحلول لا تصل لنتائج فعالة في المجتمع.

ثم يصل المؤلف لهذا المفتاح الذي يخرج لنا هذه الذهنية التنموية الرائعة فيقول: "الذهنية التنموية مرتبطة ارتباطا عضويا بالعلم، والعلم يرتبط ارتباطا بنظام التعليم، ووضع التعليم في العالم الثالث مأساة تحزن الأعداء قبل الأصدقاء، ولعلنا نضع أيدينا على المفتاح السحري للتنمية المفتاح الذي يستحيل في غيابه تحقيق التنمية رغم توفر كل عناصرها، ويمكن أن تتحقق التنمية مع وجوده حتى مع غياب عدد من عواملها، هذا المفتاح السحري هو التعليم" (ص120).

فشل النظام التعليمي في العالم الثالث من أهم عوائق تحقيق التنمية ومظاهر فشل النظام التعليمي في العالم الثالث عديدة فمنها: فشله في القضاء على الأمية، والعلاقة بين الأمية والتخلف وثيقة، وكذلك من مظاهر الفشل أيضا الفشل في الترشيد التعليم الجامعي، فالتعليم الجامعي يضخ كوادر بشرية عديدة غير مدربة، فتساهم في كثرة البطالة الثقافية.

وبجوار إصلاح التعليم في العالم الثالث من أجل تحقيق التنمية يتطلب الأمر الاهتمام بالبحث العلمي، فالبحث العلمي في العالم الثالث يحتل مرتبة متدنية من الاهتمام والإنفاق، فبدلا من استيراد الكفاءات البشرية وتصدير الأدمغة العلمية يساعد البحث العلمي في إيقاف ذلك الاستيراد والتصدير المدمرين لبعض جهود التنمية.

يختم المؤلف كتابه بوصيّة مهمة للجميع من أجل تحقيق تنمية حقيقية وليست تنمية شكلية فقط فيقول:" إن الطريق إلى التنمية يمر أولا بالتعليم وثانيا بالتعليم وثالثا بالتعليم، التعليم باختصار هو الكلمة الأولى والأخيرة في ملحمة التنمية" (ص126).

---

* غازي القصيبي، التنمية ... الأسئلة الكبرى، ط 1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 1992

نصوص قديمة

الثورة الروسية الأولى وكومونة باريس *

بيير هينتجس
صحفي فرنسي

لعلّه من المناسب الاحتفال بالذكرى الخامسة والسبعين لثورة 1905 – 1907 الروسية بأن نعيد الى الأذهان الاستنتاجات التي استخلصها من تجربتها معاصرون من ممثلي حركة البروليتاريا الاشتراكية، ادركوا أهميتها العالمية.

لقد رحّبت القوى الثورية في فرنسا بـ " الثورة التي ستكنس القيصر والدوقيات الكبيرة"[1] واعتبرتها امتدادا للمسعى التاريخي الذي دشنته كومونة باريس. وجاء في بيان اصدرته في 27 كانون الثاني (يناير) 1905 اللجنة الادارية لاتحاد السين للحزب الاشتراكي الفرنسي: "إن هذا أهم حدث تاريخي منذ كومونة باريس 1871. فالشعب الروسي يثور على القيصرية، وتطالب البروليتاريا بالحرية والمساواة الاقتصادية والاجتماعية".

وهكذا جاءت ثورة 1905 ولاحقا ثورة اكتوبر 1017 ايضا لتذكر بمنجزات الكومونة وتساعد على اكتساب فهم أوضح بأن كومونة باريس كانت، حسبما قال ماركس، "نقطة انطلاق ذات أهمية عالمية" [2].

وما له مغزاه ان المبرر لمقارنة الثورة الروسية بالكومونة كان، قبل أي شيء آخر، الدور القيادي للطبقة العاملة في ذينك الحدثين التاريخيين. وقد أدركت الحركة الاشتراكية الفرنسية دور البروليتاريا الروسية في الثورة، فكتب جان جاور زعيم الحزب الاشتراكي الفرنسي: "ان الطبقة العاملة الروسية كانت آخر من دخل ساحة المعركة، وقد استوعبت تجربة المعارك السابقة وامتحانات البروليتاريا الأوربية ... وسيجد تحرر الشعب الروسي وقد تخلص من الاوتوقراطية، تعبيره لا في اقامة مؤسسات تشريعية فحسب، بل وايضا في استحداث تنظيم اجتماعي للعمل، سيضع البروليتاريا الروسية، بلا ريب، في طليعة البروليتاريا الأوربية" [3].

وبالطبع قامت ثورة 1905 – اول ثورة شعبية في عصر الامبريالية – في ظروف مغايرة وحدّدت لنفسها مهمات تختلف عن الكومونة، ولكن البروليتاريا الصناعية في روسيا، في تلك الفترة، كانت قد تبلورت كطبقة، وكان مسار الثورة يعتمد على ما ستلعبه الطبقة العاملة من دور فيها وعن الحقيقة المتمثلة في أن افقها تحدّد الى درجة كبيرة بوجود ازمة زراعية بالغة الحدة.

إن حركات اشتراكية اوروبية مختلفة قومت طبيعة الثورة الروسية وطابعها على ضوء تجربتها هي. وهكذا توجهت روزا لكسمبورغ، القائدة المرموقة للحركة العمالية الألمانية، الى جاور بالتقريع لاعتباره ثورة 1905 في المقام الاول حركة كان هدفها الرئيسي، شأن ثورات القرنين الثامن عشر

والتاسع عشر في الغرب، باستثناء الكومونة، هو اسقاط الملكية، ولا بد انها كانت تقصد مقالاته حول الغليان في بطرسبرغ[4]. وبالفعل لم يرد ذكر انتفاضة باريس إلا بالنزر اليسير في المقالات الكثيرة التي كتبها جاور حول احداث روسيا، لكنه قال ''ان هناك في الثورة الروسية الكثير من الثورة الفرنسية'' [5]. وكان يرى ان السمة المشتركة لجميع الثورات الفرنسية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بما فيها الكومونة، هي انه ''في 1792، وفي 1830 وفي 1848، كان الثوريون، كانت البروليتاريا الاشتراكية التي ابدت على نحو ساطع، فهما لمصالح فرنسا مرتبطة بتحرر الشعوب، بإشراك الطبقة العاملة في الديمقراطية الأوربية'' [6]. وصحيح ايضاً انه فيما كانت الاتجاهات الاشتراكية في روسيا نفسها ابعد من اعترافها جميعا بقيادة الطبقة العاملة في الثورة الروسية الأولى، فإن الكثيرين في فرنسا لم تكن لديهم فكرة عن الفوارق بين هذه الاتجاهات، واعتبروا النضال ضد القيصرية ومخلفات القرون الوسطى بأنه ابرز مظاهر الثورة الفرنسية.

اما وجهة نظر روزا لكسمبورغ فقد حددتها التجربة الخاصة لألمانيا حيث كان هناك حسن التنظيم وكانت الماركسية واسعة الانتشار بين الجماهير وهذا ما دفعها، كما يبدو الى القول أن الامر الرئيسي ''في التأثر المتبادل بين أوربا وروسيا'' هو تاثير الحركة الاشتراكية للطبقة العاملة على الثورة الديمقراطية البرجوازية''. وقالت ''ان الثورة الروسية، اذا ما نظر اليها من زاوية تاريخية، تؤلف انعكاسا لقوة ونضج الحركة العمالية العالمية، أي وقبل كل شيء الحركة العمالية الألمانية'' [7].

لقد كانت استمرارية التجربة بين الكومونة والثورة الروسية نابعة من تماثل قواها المحركة، فان الثوريين الروس عكفوا على دراسة تجربة الكومونة دراسة عميقة. وهكذا كتب لينين: ''ان الكومونة علمت البروليتاريا الأوروبية طرح مهمات الثورة الاشتراكية بالملموس. وان الدرس الذي تعلمته البروليتاريا لن ينسى. وسوف تستفيد منه الطبقة العاملة، كما فعلت في روسيا خلال انتفاضة كانون الاول (ديسمبر)'' (المؤلفات الكاملة، المجلد 13، ص 477) ولنلاحظ ان البروليتاريا الثورية استخلصت العِبَر ايضا من ثورة 1905 – 1907.

وكان من اهم دروس الكومونة والثورة الروسية الأولى على السواء، فهم الحاجة الى اقامة اجهزة السلطة الثورية للبروليتاريا، فإن سوفيتات العمال التي اقيمت في روسيا عام 1905 أضحت أجهزة الانتفاضة وأجنة السلطة الثورية. وان هذه الوظيفة المزدوجة للسوفيتات هي التي توفر الاساس لرؤية التماثل بين ثورة 1905 والكومونة، ولكن لينين والبلاشفة هم وحدهم الذين ادركوا الطابع الخلاق للسوفيتات، اجهزة السلطة الثورية التي أقامتها الجماهير. وفي هذا السياق قال لينين انه منذ عام 1905: ادرك الاشتراكيون الروس ان تنظيم هذه السوفيتات يخلق شيئاً عظيماً، شيئاً جديدا لم يسبق له مثيل في تاريخ الثورة العالمية'' (المؤلفات الكاملة، المجلد 26، ص 437). لكن هذا الجديد الذي لم يسبق له مثيل كان ايضاً امتداداً للطريق الذي تقدمت فيه الكومونة. وقد كتب لينين في ''رسائل من بعيد'' وهو يمعن التفكير بأهمية السوفيتات في شباط

(فبراير) 1917: "ادرك العمال، مسترشدين بسليقتهم الطبقية انهم يحتاجون في الازمة الثورية لا الى تنظيم عادي فحسب وإنما الى تنظيم مختلف كل الاختلاف. فشرعوا عن صواب بالسير في الطريق الذي رسمته تجربة ثورتنا عام 1905 وكومونة باريس عام 1871، واقاموا سوفيت نواب العمال" (المؤلفات الكاملة، المجلد 23، ص 324).

ومن تجربة الكومونة خلص المعاصرون، كما خلصوا من تجربة الثورة الروسية، الى الاستنتاج الخاص بالحاجة الى تعزيز التضامن العالمي للشغيلة، فاعتبر ممثلو الحركة الاشتراكية (وفي مقدمتهم جاور ولومانتيه) التضامن مع الثورة الروسية بأنه جزء من المعركة التاريخية التي تواصلها القوى الديمقراطية في فرنسا. وادرك جاور ان الثورة الروسية من شأنها ان تمد النضال من اجل الديمقراطية في فرنسا بالثقة والأفق والقوة. هل بالامكان نفي الحاجة الى التضامن العالمي؟ ان البروليتاريا، حتى في "اوروبا حرة"، كما قال اناتول فرانس، ليست "في أي حال بمأمن من ضربات رجعية ضاربة وبربرية".

إن ثورة 1905 – 1907 الروسية فتحت آفاقاً جديدة أمام الحركة العمالية في اوروبا الغربية، وكتب اناتول فرانس في كانون الاول (ديسمبر) 1905: "مهما تكن حصيلة هذا النضال العظيم والقاتم فقد مارس الثوريون الروس تأثيرا حاسما على مصير بلادنا وعلى مصير العالم اجمع. وعلى ضفاف نيفا وفستولا وفولغا تتقرر الآن مصائر أوروبا الجديدة ومستقبل البشرية". لقد كانت الثورة الروسية منارا ملهما للشغيلة.

فالثورة الروسية التي تردّد صداها التحرري المدوي في ارجاء العالم، ساعدت الشغيلة الألمان على الدفاع عن حق الاقتراع العام وعجلت بإدخاله في النمسا ـ المجر وفجرت أول حركة تحرر وطني كبرى في الهند.

وساعدت حركة التضامن مع الثورة الروسية على توحيد العمال في فرنسا، فإن احداث 1905 في روسيا ساعدت على تشكيل الحزب الاشتراكي المتحد في فرنسا مثلما لعبت ثورة أكتوبر اللاحقة دورا حاسما في انبثاق الحزب الشيوعي الفرنسي. وتولت لجنة توحيد القوى الاشتراكية توجيه حملة الشغيلة الفرنسيين للتضامن مع "المناضلين الابطال من اجل الحرية في روسيا". واعلن جاور أمام مؤتمر للحزب الاشتراكي الفرنسي في روان سبق مؤتمر التوحيد: "فلتُلهم وحدتنا الاشتراكية وتشد ازر اولئك الذين يناضلون من اجل الحرية في روسيا". وازدادت حركة التضامن قوة على قوة بعد توحيد الحزب تحت تأثير حركة الاضرابات الواسعة في روسيا في تشرين الاول (اكتوبر) 1905 والتي سماها لينين "ثورة اكتوبر" (المؤلفات الكاملة، المجلد 10، ص 69). وفي المؤتمر الثاني المنعقد في شالون في 31 تشرين الاول (اكتوبر) 1905 حثَّ الحزب الاشتراكي الموحد، الفرع الفرنسي للأممية العمالية، "سائر فروع الاممية الاخرى على التحلي باليقظة وعدم السماح لحكومات بلدانها بأن تُجهز عن طريق التدخل المسلح، على الحركة الثورية بقيادة الفرع الروسي من الأممية". كما تجلى عمق التضامن مع الثورة الروسية وطابعها العالمي بشكل ساطع في ذكرى "الاحد الدامي" في 22 كانون الثاني (يناير 1906. ففي كل مكان – في فرنسا، المانيا، ايطاليا وسويسرا – عقد

الشغيلة اجتماعات حضروها بالآلاف. وكتب جان لونغيه: " لم يسبق ابداً ... ان جرى التعبير عن الطابع العظيم لحركتنا بمثل هذه القوة وهذا الإجماع"[8].

كما جرى التعبير عن التضامن العالمي مع الثورة الروسية في فضح محاولات الرجعية العالمية لمساعدة الحكومة القيصرية على قمع الثورة الروسية. ففي تشرين الأول (أكتوبر) 1905 وضعت الحكومة الألمانية بوارجها الحربية على أهبة الاستعداد ليتسنى إرسالها فورا بزعم حماية العائلة المالكة. وفي ذلك الوقت بالذات كان ثمة نقاش يدور حول مقترحات فيلهيلم الثاني الملحة على ضرب الثورة في بولندة. وقد كتبت جريدة "لاتامب" في 16 تشرين الثاني (نوفمبر) حول هذه المقترحات انه " يمكن بهذه الطريقة انقاذ نظام الحكم العسكري". وفي اليوم التالي قال لونغيه في لومانتيه ان التصريح الذي ورد في "لاتامب" كان "اكثر الدعوات وضوحا وسفورا الى فلهيلم الثاني، عدو فرنسا اللدود، لقمع الثورة الروسية.... هذه هي اليوم الحصيلة الوطنية الغيورة للبرجوازية الفرنسية التي ترعبها الاثار العالمية لانتصار البروليتاريا القادم".

لقد كانت هذه ادانة لا للمعونة المقدمة الى نظام الحكم القيصري، معقل الرجعية البشع، فحسب بل ولكامل مفهوم السياسة الخارجية لدى البرجوازية الفرنسية التي ظنت انها استطاعت منذ ضرب الكومونة ان تعيد الى اوربا "فرنسا قوية وحكيمة"[9]، حسب تعبير تير.

بعد 1871 دأبت الطبقة العاملة على حشد قواها ورص صفوفها هاتفة "تحيا الكومونة". وكلما كان الخوف يمتلك البرجوازية كان شبح الكومونة يظهر امامها.

واظهر الاحتفال بعيد الأول من أيار (مايو) 1906 القوى المتعاظمة للطبقة العاملة، فجاء في بيان اصدره مكتب الاممية الاشتراكية بتلك المناسبة "ان عيد الاول من أيار (مايو) يرمز الى سنة الخير الحافلة بالنتائج ولكنها حتى اكثر عطاءاً بما تقدمه من آمال.... ففي روسيا اعلنت البروليتاريا نفسها العامل الحاسم والأمل المرجي للثورة". وفي باريس اضرب 200000 عامل واستدعت الحكومة الى المدينة ما يزيد على 60000 جندي من مختلف الاسلحة، بالاضافة الى البوليس والحرس الجمهوري[10]. وهجر باريس الكثير من الاثرياء، فيما عمد الآخرون الى تكديس المواد الغذائية وسحب ارصدتهم من المصارف. وقارن هنري هوساي، عضو الاكاديمية الفرنسية وأحد مؤرخي عصر الامبراطورية، تلك الفترة بأحلك ايام الكومونة، على حد تعبيره.

وأود ان اعيد الى الاذهان استنتاجاً آخر استخلصه المعاصرون من احداث 1905 – 1906.

لقد اعلن جاور وهو يتحدث في مجلس النواب في 15 كانون الاول (ديسمبر) 1905: " عندما يحمل المجتمع في رحمه بذور النزاعات الداخلية وحين يدور صراع محتدم لا بين الاحزاب فحسب وإنما بين الطبقات أيضا، فان هذا الصراع الاجتماعي الناضج يتطور دائما وحتما الى انفجار ثوري ما ان تندلع في العالم حرب حافلة بالأحداث الدراماتيكية" [11].

ودون السعي بأي شكل الى تثبيت نوع من القاعدة التاريخية، ناهيك عن صياغة مخطط ينطبق بالضرورة على كل حالة في

المستقبل، فإن باستطاعة المرء ان يشير الى امثلة عديدة في التاريخ الحديث لعبت فيها ازمة أوربية أو عالمية دور الشرارة لانتفاضات اجتماعية كبرى. وهذا ما حدث في 1871، 1905، 1917 و 1945 (الحرب الفرنسية – البروسية، الحرب الروسية – اليابانية، والحربان العالميتان الاولى والثانية). وينبغي ان يلاحظ المرء في الوقت نفسه الاشكال المتنوعة التي يميل انهيار الامبريالية الى اتخاذها.

قال لينين ان الكومونة "استنهضت الحركة الاشتراكية في سائر أرجاء اوروبا" (المؤلفات الكاملة، المجلد 13، ص 477). وكتب جاور ما يلي عن تأثير الثورة الروسية: "ان مداً اجتماعياً عارماً يتصاعد في الشرق، وان انتصار الثورة التي ستلعب البروليتاريا الدور الحاسم فيها، سيُلهم الشغيلة للنضال من اجل مطاليبهم" [12]. "ان مدا عارما يتصاعد في الشرق". وعلى امتداد ثلاثة ارباع القرن يتعاظم هذا المد الذي كانت الكومونة اول من بشّر به، ويتغير العالم الذي نعيش ونناضل فيه تحت تأثيره. كما نتأثر في تيار التاريخ بالمد الذي يجر الى الماضي وبالحضارة الاشتراكية المتطورة التي تتسارع حركتها باطراد في مسيرتها، وهي تفتح امامنا اليوم صورة مستقبلنا.

ان قوة وحيوية الطبقة العاملة وحلفاءها تمكنهم من توجيه الاحداث وتولي المسؤولية التاريخية بثقة. ولم يسبق ان اتضح من قبل مثلما يتضح الآن أن الاشتراكية هي أمل البشرية. وتتوقد حقيقة الاشتراكية باهرة في مجد الكومونة المأساوي ولكنه ما زال ينبض بالحياة، وان ثورة 1905 جعلت لهيب شعلته حتى اكثر اتقاداً.

الهوامش

1- ايدت توماس، لويس ميشيل، باريس، 1971، ص 429.
2- كارل ماركس وفريدريك انجلز، المختارات في ثلاثة مجلدات، المجلد 2، ص 422.
3- لومانتيه، 4 اذار (مايس) 1905.
4- في 23 كانون الثاني (يناير) كتب جاور: "هناك نهر من الدم يفصل من الان فصاعدا بين القيصر والشعب. ان القيصر والقيصرية قد اقصيا الان من اسرة الامم". والاعمق مغزى من ذلك ما كتبه في 25 كانون الثاني (يناير): "ان النصر بانتظار الثوريين الروس في نهاية امتحاناتهم، وستكون لانتصارهم اثار لم يسبق لها مثيل في سائر ارجاء العالم بالنسبة للنضال ضد مخلفات الاستبداد ".
5- لومانتيه، 6 تشرين الثاني (نوفمبر) 1905.
6- لومانتيه، 6 كانون الاول (ديسمبر) 1905.
7- روزا لكسمبورغ، "الاضراب الجماهيري والحزب والنقابات" في كتاب: "الخطب والمقالات المختارة"، برلين، 1951، ص 230. كتب هذا المقال في بطرسبورغ (روسيا) في ايلول (سبتمبر) 1906.
8- لومانتيه، 2 كانون الثاني (يناير) 1906.
9- رسالة الى الاميرة ي.تروبتسكايا في 29 تموز (يوليو) 1872، استشهد بها البرت مانفريد في مؤلفه دراسات في تاريخ فرنسا. القرن 18 – القرن العشرين، موسكو، 1961، ص 356
10- لومانتيه، 29 نيسان (ابريل) 1906.
11- حين اكد جاور " لدينا مثال على ذلك في روسيا" اردف احد النواب الرجعيين بالتعقيب التالي " وخلال الكومونة"، مؤكدا بطريقته الخاصة، على ضوء وعيه الطبقي، التماثل الموجود بين كومونة باريس وثورة 1905 الروسية.
12- لومانتيه، 4 كانون الاول (ديسمبر) 1905

* (الثقافة الجديدة)، العدد 121/حزيران 1980، ص 84 – 89

نصوص مترجمة

نهاية الهيمنة المالية*

سيدريك دوراند**

ترجمة: سوران قحطان

خلف العناوين الرئيسية لأرقام التضخم، التي تجاوزت 8 % في الولايات المتحدة في الربع الثالث من عام 2022 وأكثر من 11 % في الاتحاد الأوروبي، هناك مؤشرات لا لبس فيها على ظهور نظام اقتصاد كلي Macroeconomic جديد. فطفرة الأسعار تؤشر على ان هناك تبايناً ملحوظاً عن الاتجاهات الانكماشية التي تلت الأزمة المالية عام 2008 أوعما يُسمى بالاستقرار العظيم لسنوات التسعينيات الطويلة. كما ان التسارع المستمر في ارتفاع الأسعار،خلال عام 2022، أفقد معسكر الحمائم،معسكر مايسمى(TeaTransitory)[1] شعبيته. حيث حذر بنك التسوية الدولي[2]، عندما قام في شهر أبريل عام 2022 بتقدير الموقف، من تداعيات انتشار الأسعار المرتفعة عبر القطاعات، ومن الفروقات بين الأسعار والأجور. وكذلك حذر من ان العوامل الهيكلية التي أبقت التضخم منخفضاً قد تكون ضعفت مع انحسار العولمة. حيث أعلن المدير العام للبنك عن تَغَيُر السياسة مشيرا الى أنه:

لن يكون التكييف مع معدلات الفائدة المرتفعة سهلاً... لقد أصبحت الأسر، والشركات، والأسواق المالية، والحكومات معتادة جدًا على معدلات الفائدة المنخفضة والظروف المالية الميسرة، وهو ما يظهر أيضًا في مستويات الديون الخاصة والعامة المرتفعة تاريخيا... ولن تكون التغيرات المطلوبة في

سلوك البنك المركزي مقبولة من الناس. ولكن البنوك المركزية تعاملت مع مثل هذه الحالة من قبل. إنها تدرك تمامًا أن التكاليف القصيرة الأجل في النشاط والتوظيف هي الثمن الذي يجب دفعه لتجنب تكاليف أكبر في المستقبل. وتمثل هذه التكاليف استثماراً في مصداقية البنوك المركزية الثمينة، والتي تمنحها حتى فوائد طويلة الأمد [3].

ومنذ ذلك الحين، تعهد رفاقه في مجلس الاحتياطي الفدرالي والبنك المركزي الأوروبي وبنك إنكَلترا بالاستمرار في رفع معدلات الفائدة، متوقعين ارتفاعاً في معدلات البطالة، نتيجة للتحول العالمي نحو هذا النظام النقدي الأكثر صرامة[4]. وها نحن وصلنا الى هذه النقطة. ففي "توقعاته الاقتصادية" لعام 2023، قدّم صندوق النقد الدولي تشخيصاً متشائماً:

إن تباطؤ عام 2023 سيكون شاملاً، فالدول التي تشكل حوالي ثلث الاقتصاد العالمي

ستواجه انكماشاً في هذا العام أو العام القادم. وستستمر الاقتصادات الثلاث الكبرى، الولايات المتحدة والصين ومنطقة اليورو، في التعثر. بشكل عام، ستعيد الصدمات التي سيتعرض لها الاقتصاد هذا العام فتح الجروح الاقتصادية التي شفيت جزئيًا بعد الجائحة. باختصار، الأسوأ لم يأت بعد، وسيكون عام 2023 بالنسبة للكثير من الناس وكأنه في فترة ركود[5].

أمّا القطاع المالي فقد تراجع، معبرا عن قلقه المتزايد بشأن استقراره الذاتي في ظل هذا الموقف المشدد. وقد لاحظ روبن بروكس، الخبير الاقتصادي الأول في معهد التمويل الدولي - الجمعية العالمية لصناعة الأعمال المالية - وهو في طريق عودته من الاجتماع المشترك لصندوق النقد الدولي والبنك الدولي، في أكتوبر 2022، أنه لم يتم التوصل إلى توافق بشأن السياسة النقدية: فمعظم صناع السياسة يرغبون في مواصلة رفع معدلات الفائدة بشكل متواصل، بينما يرغب معظم المشاركين في السوق في إبطاء حركة البنوك المركزية. حيث كتب في تغريدة: "عندما أدخل الضباب، أقوم بإبطاء السرعة. هناك ريبة عالمية ضخمة. ابطئ السرعة!". وفي نفس اليوم، شن الرئيس الفرنسي ماكرون هجوماً صريحاً على البنك المركزي الأوروبي، معرباً عن قلقه من التفسيرات التي تقدمها الجهات الاوروبية الفاعلة في السياسة النقدية، وهي "يجب أن نقوم بتدمير الطلب الأوروبي لاحتواء التضخم"[6].

ليس هذا وقتا مناسبا للشماتة، وذلك نظرا لحجم المصاعب التي تواجه الطبقات الشعبية والدول ذات الدخل المنخفض - والمتوسط – ومستويات قلقة من الديون المتعثرة[7].

فلن يكون هناك وقت كاف للاشتراكيين كي يستغلوا الانقسامات بين أجنحة رأس المال في هذه الظروف شديدة التقلب. ففي السياسة، مثلها مثل قطاع المال، عندما يزداد انعدام الاستقرار تزداد المخاطر. فها نحن ندخل في مرحلة شديدة الخطورة، حيث من المهم تحديد منطق الحركات التكتونية الجارية. فالأزمات المتعددة: المالية والبيئية والجيوسياسية، والتي تفاقمت بسبب اضطراب الجائحة والحرب في أوكرانيا، تغذي انعدام الاستقرار الحالي. على الرغم من أن هذه هي خلفية عودة التضخم، إلا أن لهذه الظاهرة منطقها الخاص. فهي تنطوي على ثلاث آليات متمايزة، مع ديناميكيات سياسية اقتصادية مجتمعة:

• الأولى، الصدمات الخارجية والاختلالات، الناتجة عن تعطل سلاسل التوريد العالمية بسبب الوباء (المقصود وباء كورونا – المحرر)، ومن تعزيز الطلب عبر الدعم الحكومي الهائل، وأزمة الطاقة المركبة التي فاقمتها الحرب في أوكرانيا.

• الثانية، صراعات التوزيع بين رأس المال والعمالة، والتي ولدها الارتفاع الاولي في الأسعار وفاقمها هبوط الأجور الحقيقية وتلاعب الشركات بالأسعار.

• الثالثة، تفكك رأس المال الوهمي، المتراكم بشكل مفرط، وهذا ما يمنح عودة التضخم طابعها البنيوي؛ انه يهدد هيمنة قطاع المال ضمن نمط التنظيم.

وفي ما سيأتي، سنتفحص هذه الآليات كل على حدة. ولكن في البداية، لنقدم ملاحظة موجزة عن هيمنة قطاع المال. إن أساس نهوض القطاع المالي - منذ تحرير أسعار صرف العملات والتخفيف من القيود المفروضة على صناديق الادخار الكبيرة بعد عام 1971، إلى

النمو المذهل لبنوك الظل وتجارة المشتقات والعملات الأجنبية، وانفجار الديون العامة والخاصة - يعود الى استنفاد الديناميكية الإنتاجية في الاقتصاديات المتقدمة، وإعادة توجيه رأس المال بعيدا عن الاستثمار الإنتاجي المحلي، بحثا عن عوائد اعلى في الأرباح المالية، وفي سلاسل الإنتاج العالمية، وفي استغلال العمالة الارخص. وقد منحت الرافعة الائتمانية مهلة للاقتصادات البطيئة، معززةً الاستهلاك بما يتجاوز قدرة الأجور الحقيقية الراكدة على تحمله. ولكن قطاع المال ليس مستقلا بشكل كامل؛ فهو لا يستطيع تحرير نفسه كليا من الحقائق الاقتصادية الكامنة، وان يمضي قدما عبر الصدمات والانفجارات التي تحتاج تدخلا عاما متزايدا. انه يعتمد باستمرار، منذ فقاعة الانترنت عام 2001، على الدعم السياسي. ومع استثناء جزئي للقطاع الرقمي، فإن القطاع المالي المتورم توقف عن أن يكون عاملاً ديناميكياً في التراكم وأصبح عبئا ثقيلا على إعادة الانتاج الاجتماعي ككل[8].

لكن قطاع المال مبتزٌ ماهر. حيث استمر، منذ أزمة عام 2008، في الحفاظ على موقعه المهيمن بفضل التدفقات النقدية المستمرة من البنوك المركزية. وهذا ما سمح له بمتابعة تقديرات لا تمت للواقع بصلة، كما ثبت بوضوح في مارس 2020، عندما تم تفادي الانهيار المالي الذي كان من المفترض أن يحدث نتيجة الإغلاقات، بفضل عمليات شراء ضخمة ومنسقة للأصول العامة والخاصة من قبل البنوك المركزية. ولكن هذه الضمانة النقدية، في السياق التضخمي الجديد، تصل أخيراً إلى حدود فعاليتها. فإذا ما استمرت البنوك المركزية في السعي وراء إجراءات التشديد، فإن أزمة مالية شاملة ستتبع ذلك. وبالتالي، فإن النتيجة الأكثر احتمالاً هي تخفيض حقيقي للأصول المالية. وذلك من خلال ابطاء الأزمة، والذي سيحدث في شكل تضخم منتظم متوسط. قد تكون وتيرة التحول نسبياً معتدلة، ولكن التداعيات البنيوية لا يمكن تجاهلها. وإذا كانت هيمنة قطاع المال أخذت في الضعف، فمن سيخطو إلى العرش الشاغر؟ سيحتاج العمال والناشطون البيئيون للقتال من أجل النظام الجديد.

الصدمات والاختلالات

ليس هناك الكثير من الجدل حول الأسباب المباشرة لعودة التضخم: انها التكاليف المرتفعة [9]. فعندما ضَربت عمليات الاغلاق والقيود المرتبطة بفيروس كوفيد19- نظام المصانع والنقل العالمي، تبين أن لـ"إدارة مخزون الأعمال" في الوقت المناسب[10]، والتي تم تشجيعها من قبل رئيس الاحتياطي الفدرالي آنذاك، تبعات مكلفة[11]. لأن بنية سلاسل التوريد الضعيفة، جردت الشبكات المعقدة للإنتاج واللوجستيات من أي مرونة. وقد أصبح هذا سببًا رئيسيًا في انتشار الصدمة، عندما أغلقت المصانع، وتوقفت الشحنات، وبقي العمال في المنازل، وتفرغت الموانئ، بسبب انتشار الفيروس. وبمجرد أن كسرت هذه الروابط، تبين أنه من الصعب إصلاحها. وعلاوة على ذلك، زادت حدة الاختناقات، لأن الشركات تكيفت استراتيجيا مع الوضع، ما أدى إلى ظاهرة "تأثير السوط"[12]: ان النقص الاولي أدى إلى توقع حدوث مشكلات في التوريد مستقبلاً، وبالتالي إلى التكدس الاحترازي في كل مراحل سلسلة التوريد[13]. كما ان سياسة صفر كوفيد في الصين

والاغلاقات التي ترتبت عليها، أثرت على مراكز الإنتاج الرئيسية في العالم، وتسببت في استمرار هذه الاضطرابات حتى عام 2022.
في غضون ذلك، حصل تدخل قوي للدولة في البلدان الرأسمالية المتقدمة. فغَمرت اقتصاداتها بالسيولة بهدف منع دوامة الافلاسات الجماعية وفقدان الثروة. في الولايات المتحدة، بلغ التحفيز المالي الاستثنائي الذي شهدته بين مارس 2020 ومارس 2021 أكثر من 5 تريليون دولار، أو ربع الناتج المحلي الإجمالي. أما في الاتحاد الأوروبي، فكانت الاستجابة المالية مهمة، على الرغم من أنها تعادل نصف حجم حزمة ترامب/ بايدن كنسبة من الناتج المحلي الإجمالي. وهذا يمثل عنصراً مهماً في تفسير التعافي والانتعاش الأقوى للاقتصاد الأمريكي. وكذلك في تفسير الاختلافات في الديناميكية التضخمية على جانبي المحيط الأطلسي[14]. ان هذا التحفيز غير المسبوق سمح للطلب بالنهوض بشكل سريع جدًا، معززا بفضل تراكم المدخرات عند قسم السكان الاكثر ثراء، بعد أشهر من عجز الاستهلاك بسبب القيود وعمليات الاغلاق. كما ان الضغط الكمي للطلب تم تكبيره عبر تغيير نوعي. حيث قام المستهلكون بضبط إنفاقهم وفقًا لقواعد التباعد الاجتماعي، ناقلين الطلب من الخدمات إلى البضائع المصنعة، ما زاد الضغط على المصانع وعلى وسائل النقل وعلى خدمات تجارة التجزئة.

المجلة التجارية لصناعة السيارات Motor Trend، قدمت مثالاً معبرا عن الآليات الكامنة وراء ارتفاع الأسعار في هذا القطاع:

ان تاريخ الازمة يعود الى مارس 2020. عندما اجبر الوباء صناع السيارات على إغلاق مصانعهم، وتوقيف طلبات الموردين مؤقتاً. في الوقت ذاته، واجهت صناعة الالكترونيات طلبًا متزايدًا على الهواتف المحمولة، والتلفزيونات، والكمبيوترات، وألعاب الفيديو، وأجهزة المنزل، من الزبائن الملتزمين بأوامر البقاء في المنزل. فقامت الشركات المصنعة للشرائح الإلكترونية بتحويل إمداداتها إلى صناعة الالكترونيات، والتي أظهرت أيضًا استعدادًا لدفع مبالغ أكثر مقابل رقائق السيليكون. وعندما عادت صناعة السيارات للعمل بسرعة أكبر من المتوقع في صيف 2020، اكتشفت أن الشرائح الالكترونية اللازمة لم تكن متوفرة. وان الموردين قانعون بالاستمرار في عقودهم الأكثر ربحا مع الآخرين. وبالتالي، وجدوا ان الطلبات الكبيرة لا يمكن تلبيتها بسرعة، وقد استلزم الامر حوالي ثلاثة أشهر لصنع حتى أبسط أنواع الشرائح الالكترونية[15].

لم يتمكن مصنعو السيارات، بسبب حرمانهم من هذه المكونات الحيوية، من تلبية الطلب المتزايد. فعلى الرغم من تخفيف القيود الصحية في عام 2021، انخفض عدد تسجيلات السيارات الجديدة في الولايات المتحدة إلى مستوى لم نشهده منذ خمسينات القرن الماضي، مع نقص في الإنتاج العالمي يقدر بأكثر من 11 مليون سيارة، وخسائر بقيمة 210 مليار دولار للصناعة في جميع أنحاء العالم[16]. في ظل الوضع العصيب، بدأت شركات صناعة السيارات العالمية في تجاوز مورديها من المستوى الأول، متواصلين مباشرة مع مصنعي الرقائق على أمل تخزين هذه المواد الاستراتيجية، ما فاقم من حدّة النقص[17]. ان حالة أشباه الموصلات هذه توضح قضية أكثر عمومية. فالمشاكل

كانت شديدة بشكل بارز في صناعات اعلى السلسلة مثل المواد الخام والطاقة والنقل. وارتفاع أسعار منتجات هذه الصناعات، على الرغم من أن الديناميكية لها خصوصيتها في كل حالة، له تداعيات على الاقتصاد بأكمله.

اما بالنسبة لأسعار الطاقة، التي كانت تقود التضخم حتى قبل غزو أوكرانيا، فقد كان لتدفق الوقود، في أسواق مشتعلة في ذلك الحين بسبب تحديات الانتقال الكاربوني[18]، آثارٌ بعيدة المدى[19]. ثم تسبب فك ارتباط أسواق الطاقة الاوروبية القاسي عن روسيا بانعكاسات دراماتيكية على مستوى الأسعار، حيث تسربت التكاليف المرتفعة والريوع الانتهازية عبر سلاسل الإنتاج لتصل الى المستهلكين. بحلول أكتوبر 2022، كانت معدلات التضخم السنوية تبلغ 11.6% في ألمانيا، و12.6% في إيطاليا، وأكثر من 20% في دول البلطيق. إن التدهور المذهل في الميزان التجاري لمنطقة اليورو (الشكل رقم 1)، يُظهر ان ارتفاع أسعار الطاقة يشكل تكلفة على مجمل الاقتصاد الأوربي، بما يتطابق وشروط تراجع التجارة. أما نظراء هذا الواقع، فتتمثل بالفوائض القياسية التي سجلتها الدول المصدرة للنفط مثل المملكة العربية السعودية، وللمفارقة روسيا.

إذا كانت الاسباب الوحيدة للارتفاع الحالي في معدلات التضخم هي الحرب وعمليات الاغلاق، فإنه سيكون ظاهرة مؤقتة. حتى ان هذه العملية يمكن ان تعكس بقوة: ذات القوى التي تسببت في زيادة تأثير السوط يمكن ان تساهم في تخفيض الأسعار، بمجرد التخلص من نقص الامدادات وتعبئة المخزون على طول سلاسل التوريد؛ وقف إطلاق النار والشروع في مفاوضات لإنهاء الحرب في أوكرانيا يمكن ان يؤدي، في نهاية المطاف، الى تهدئة أسعار الطاقة، او دفعها الى الهبوط، إذا ترافق ذلك مع تباطؤ في النمو في الصين. إذا كان التضخم متجذراً في اختلالات مؤقتة بين القطاعات، فليس هناك الكثير يمكن القيام به على المدى القصير لزيادة المعروض[20].

الشكل رقم 1
الميزان التجاري لمنطقة اليورو 1999-2022
المصدر يوروستات

لكن هذا لا يعني أن التضخم المستمر في الارتفاع يمثل عملية غير مؤلمة، كما لا يعني انه لا يوجد بديل سوى التقشف أو الانتظار والترقب؛ بل انه يعني ان التضخم قصير المدى، المدفوع بارتفاع التكاليف لا يمكن التعامل معه بشكل مُرض عبر التشديد المالي او النقدي، دون إضافة آلام غير ضرورية[21].

أما بالنسبة للشركات، فإن لحظة التضخم الناتجة من ارتفاع التكاليف تمثل بالنسبة لها فرصة رائعة للتلاعب بالأسعار. حيث يستفيد المنتجون في القطاعات ذات الصلة من هذه الاختناقات، لأنها تزيد من هامش ارباحهم.

وتعد الأرباح الاستثنائية لشركات الطاقة والشحن مثالاً على ذلك. لكن تبعات هذا السلوك هي حدوث اضطرابات أكبر بكثير: فالضرر لا ينتج فحسب عن النقص الحقيقي في السلع والخدمات، وانما أيضا من معاناة المشترين من تدهور اوضاعهم المالية، بسبب ارتفاع الفواتير التي تعتصر الدخول الحقيقية، والتي يتردد صداها في جميع انحاء الاقتصاد، مؤدية في النهاية الى الركود.

انقضاض رأس المال

إنّ تغير مستوى الأسعار لا يتوزع بصورة متجانسة بين القطاعات والعملاء. إنه ينطوي دائمًا على تغيير في مصفوفة الأسعار النسبية: بعض القطاعات والعملاء يخسرون بينما يحقق البعض الآخر الفوز. اما الان فإننا نرى علامات ظهور نظام اقتصاد كلي جديد، متمايز عن [نظام] هذه الصدمات المباشرة للعرض والصدمات المضادة للطلب: إن الدلائل التي ظهرت خلال العامين الماضيين تشير إلى تحول من قبل رأس المال من استخدام الصدمات القطاعية غير المتكافئة إلى هجوم عام على دخل العمل.

استخدمت الشركات زيادة التكاليف كذريعة لزيادة هوامش الربح، وذلك من خلال الاستفادة من قوتها السوقية. والشركات، عندما تتحدث إلى المستثمرين، صريحة تمامًا بهذا الخصوص. يوضح Andre Schulten الرئيس التنفيذي لشركة Procter & Gamble، أنه "بناءً على نقاط القوة في علاماتها التجارية"، فإن شركة P&G تقوم "بتنفيذ زيادات في الأسعار بشكل مدروس". ويتوقع Miguel Patricio، الرئيس التنفيذي لشركة Kraft, Heinz "الاستمرار في تقديم أسعار إيجابية"[22]. اما العمال المُنظمون فيستغرقون وقتا للتفاعل مع الوضع الجديد. فعلى خلفية إضعاف الحركة العمالية على مدى عقود، استفادت الشركات من ميزة المبادرة الأولى، بينما تتأخر النقابات شهورًا قبل المطالبة بزيادات في الأجور، وهي تفتقر إلى القوة لفرض ربط الأجور بالأسعار. وبالتالي، تستغل الشركات فارق الأسعار، ما يرفع المعدل العام لاستغلال القوة العاملة.

فمن ناحية، ارتفعت أرباح الشركات الأمريكية، وكان عام 2021 أفضل عام لها منذ عام 1950. كما ان الشركات الكبرى تقوم بتوزيع أرباح قياسية، ما دفع الاتجاه السابق للوباء إلى مستوى مرتفع جديد[23]. اما بالنسبة للعمالة الأمريكية، فكانت العواقب المباشرة مختلطة. فمن جهة، كانت الأجور الحقيقية للعمال آخذة في الهبوط: انخفض متوسط الدخل في الساعة في القطاع الخاص الأمريكي بنسبة 4.2 في المائة بين يناير 2021 وأكتوبر 2022. ومن جهة أخرى، تم تعويض دخول العمالة بتحويلات مالية ضخمة

أثناء الوباء. فتحفيز ترامب/ بايدن لم ينقذ فقط مستويات الأرباح ويزيد من ثراء الأغنياء، ولكنه ساعد أيضا أفقر العمال في التعامل مع ارتفاع الاسعار في سياق لم تكن فيه قدرة العمال على المساومة كافية للدفاع عن نصيب العمال. بشكل عام، وعلى الرغم من انخفاض الأجور الحقيقية، سهل هذا من احداث تغيير في ديناميكية العمالة لصالح العمال ذوي الأجور المنخفضة[24]. علاوة على ذلك، قدم الحافز لاقتصاد يتسم بضغوط عالية، ما سمح بانتعاش الإنتاج والعمالة. وهذا هو أساس الحجة التقليدية المتشددة لرفع أسعار الفائدة: تثبيط الاقتصاد من اجل إضعاف موقف العمال في المساومة على الأجور، وطرد الناس من العمل، وجعل الأسر تتعرض لضربة ارتفاع الأسعار[25].

في أوروبا ارتفعت أرباح الشركات أيضًا، بدعم من نمو اسهم الطاقة[26]. لكن الوضع بالنسبة للعمالة كان أسوأ بكثير، وذلك لأن سياسات الاقتصاد الكلي هناك أقل دعما مما هي عليه في الولايات المتحدة، وكذلك بسبب التعرض الأكبر لصدمة الطاقة الناتجة عن فك العلاقة مع روسيا. وقد حذر البنك المركزي الأوروبي من أن منطقة اليورو في خضم أزمة تكلفة المعيشة، بسبب انخفاض في الأجور الحقيقية بأكثر من 4% بين الصيف 2021 (الربع الثالث) والربيع 2022 (الربع الثاني). حيث الافقر هم أيضا الأكثر تضرراً من التضخم، مع ارتفاع أسعار سَلَتهم الاستهلاكية اسرع من أولئك الأغنياء[27]. وبسبب المدى المحدود الذي توجد فيه حركة مستقلة لتسارع صعود الأسعار ضمن منطقة اليورو، بعيداً عن صدمات العرض، فالتضخم بالتالي ليس ارتفاعا لدوامة السعر - الاجر وإنما للسعر - الربح، وبالتالي هو لا يتطلب تشديدا نقدياً، وانما سياسة صارمة ضد رأس المال، مع تحديد سقف للزيادات في الأسعار مرتبط بديناميكية تكاليف الإنتاج. ان دفاع الطبقة العاملة يجب ان يركز أولا على الأجور وعلى المزايا الاجتماعية، ولكن يجب أن يشمل أيضًا اهتماما تفصيليا بأنماط الاستهلاك الحقيقي وراء مؤشر الأسعار والتركيز على القدرة على تحمل تكاليف السلع والخدمات الأساسية.

هجوم مزدوج ضد رأس المال

الهجوم المزدوج او الشوكة في الشطرنج، هو موضع يمكن من خلاله أن تهدد قطعة واحدة عدداً من قطع الخصم في ذات الوقت. في واقع الامر، إن التضخم يشغل سلاحاً من هذا النوع ضد القطاع المالي. فمن ناحية، يستدعي التضخم سياسة نقدية مقيدة، وتقليص السيولة، والتي من شأنها أن تحرم الأسواق المالية من الدعم المستمر الذي تلقته على مر السنين في عمليات الإنقاذ والتيسير الكمي؛ أنه يمكن أن يؤدي إلى تجفيف مفاجئ للسيولة والى بدء الذعر المالي[28]. ومن ناحية أخرى، يخفض التضخم قيمة الدين المتراكم وقيمة المعدل الحقيقي للفائدة، محولا العلاقة بين المدين والدائن لصالح الأول. إن تآكل قيمة الدين يعني أن المبلغ الذي يجب على المدين سداده يتضاءل بالقيمة الحقيقية، ومن ثم، انه يؤدي إلى إفقار الدائنين، مالكي الأصول المالية. ان هذه الالية تكمن وراء عبارة كينز الشهيرة التي دعا فيها الى "القتل الرحيم لأصحاب المداخيل". في كلتا الحالتين، سوف تتضاءل الهيمنة المالية. فبالنسبة للقطاع ككل، فإن الشوكة التضخمية تعني الاختيار بين السكتة الدماغية والعذاب البطيء. وعلى الرغم من

أنه كان هناك الكثير من التباهي هذا العام حول موقف فولكر[29] البطولي ضد الضغط التضخمي في عام 1979، إلا أن هناك أسبابًا جدية تدفعنا للشك في أننا في حالة تكرار، ما لم يكن تكراراً كمهزلة. وحتى إذا ضعفت هيمنة قطاع المال، فإنه سيظل لاعباً قوياً له موقع بنيوي مركزي. على الرغم من تشدد البنوك المركزية، فإن التكلفة الحقيقية للاقتراض، أي سعر الفائدة الاسمي مطروحا منه معدل التضخم، لا تزال عميقة في المنطقة السلبية على جانبي المحيط الأطلسي. وقد بدأت بالفعل إشارات الضائقة المالية بالارتفاع. ان مؤشر Goldman Sachs، الذي يعكس مدى تيسر الموارد المالية التي لا تغطي معدلات الفائدة فحسب وانما أيضا أسعار الصرف وتقلبات الأسهم، يصل إلى مستويات لم نشهدها منذ أعماق عام 2009[30]. ولكن هذا لا يعني أن أزمة مالية كبيرة على وشك الحدوث. إنه يعني أن البنوك المركزية ستغير مسارها.

يتوافق مع هذا النمط التدخل الذي قام به بنك إنجلترا، بعد ردود فعل السوق على ميزانية[31](Truss-Kwarteng) المصغرة في سبتمبر 2022. فبعد البيع المفاجئ للدين العام البريطاني من جانب المستثمرين والانخفاض الحاد في قيمة الجنيه الإسترليني، كانت سيولة صناديق المعاشات التقاعدية في المملكة المتحدة في خطر بسبب طلبات الهامش المتعلقة بعقود المشتقات المالية، المرتبطة بحركات السندات الحكومية Gilt movements وتديرها شركات مثل BlackRock. ولكسر حلقة الهلاك، انتقل بنك إنجلترا في غضون ساعات من التشديد الكمي إلى برنامج شراء جديد، كما أشار كبير المعلقين الاقتصاديين في the Financial Times الى ان "قلق القطاع المالي يتجاوز مخاوف السياسة النقدية". وقد لمح تحقيق دقيق - وهو أمر مفيد للبنك – أن البنك لم يتدخل لإنقاذ صناديق التقاعد أو مديري الأصول العملاقة وإنما لمنع سوق السندات الحكومية من الدخول في دوامة الفوضى، مع كل ما يتضمن من زيادة مصاحبة في أقساط مخاطر المملكة المتحدة التي قد ينطوي عليها ذلك[32].

حتى وإن لم يكن أحد يعرف على وجه اليقين أين سيحدث الانفجار التالي، فليس هناك الكثير من الشك في أن القنابل الأخرى على وشك الحدوث. مثلا، أسواق السكن تتعثر، وإن كان ذلك بعد ارتفاع حاد خلال الجائحة. إن الأمر الأكثر إثارة للدهشة، هو الضغط غير العادي على الفرنك السويسري بعد بعض النكسات في بنك Credit Suisse، وهذا يوضح المدى الذي وصلت له توترات السوق. ومن المسلم به أن البنوك المركزية ستواصل الاندفاع، عند الحاجة، لإصلاح أي خلل يصيب قطاع التمويل غير المصرفي المفرط المديونية. حيث اتخذ البنك المركزي الأوروبي خطوة وقائية في هذا الاتجاه في يوليو 2022 عندما وضع، في منتصف دورة تشديد السياسة النقدية، "أداة حماية الانتقال". وذلك لدعم الدين العام للدول الأعضاء، خشية أن يقع هذا تحت الضغط الذي عانى منه خلال أزمة اليورو. وباتخاذ هذا القرار، أقر البنك الاقتصادي الأوروبي ضمنيًا أيضًا بأولوية الاستقرار المالي على استقرار الأسعار[33].

من ناحية اخرى، إن الشوكة التي يمسك بها التضخم القطاع المالي هي، بالنسبة لبعض اللاعبين المهمين، شوكة ذات سن واحدة. فعلى عكس المقرضين لآجال طويلة،

كالبنوك، نجد إن مديري الأصول الكبار هم أكثر استرخاءً بشأن التضخم، وهم يفضلونه على ارتفاع أسعار الفائدة. يجادل محلل في شركة BlackRock (وهو مصرفي سابق في البنك المركزي الكندي) أن الاقتصاد العالمي في خضم عملية ضخمة، قد تستغرق خمس سنوات أو أكثر، لإعادة توزيع الموارد الهيكلية، نظرًا لصدمة الوباء، وفك ارتباط أوروبا من الهيدروكربونات الروسية، والانتقال إلى الطاقة المتجددة. وهذه العملية ستشتغل عبر خلق اختناقات تضخمية في بعض القطاعات وركود في قطاعات أخرى. والتضخم الناتج من عملية إعادة التوزيع القطاعي هذه يجب استيعابه، طالما بقيت هذه العملية "راسخة". أي طالما ان الأجور لا تبدأ اللحاق بالأسعار[34].

في حين ان تأكيد BlackRock على البعد القطاعي للتضخم صحيح، إلا أنه ليس القصة الكاملة. ان الاقتصاد السياسي للقطاع المالي يشرح لماذا يفضل مديرو الأصول موقفًا مرناً نسبيًا. هذا ليس رأس المال المالي لجدك، كما يلاحظ بنيامين براون[35]:

المتغيرات ذات الأهمية الكبرى لمديري الأصول هي أسعار الأصول الإجمالية. وذلك لأن الرسوم التي يفرضونها يتم حسابها كنسبة مئوية من القيمة الحالية لأصول العميل. ان تأثير أداء الصناديق الفردية على نمو الأصول المدارة، عبر محفظة أموال كبيرة لمدير الأصول، يكون أقل بكثير من تأثير تطورات أسعار الأصول الإجمالية. ومن ثم فإن تفضيل BlackRock لسياسات الاقتصاد الكلي التي تحافظ على ارتفاع أسعار الأصول، يتضح بقوة من خلال الضغط الاستراتيجي والمستمر من أجل السياسة النقدية التوسعية[36].

إن هذه الأهمية المتزايدة لأسعار الأصول الإجمالية مقابل العائدات، كما يواصل براون الشرح، لها تداعيات كبيرة على الاقتصاد السياسي للسياسة النقدية. لطالما تم التعامل مع القطاع المالي على أنه أقوى أنصار "النقود الصعبة" لأن التضخم يقلل من قيمة الاستحقاقات الاسمية للبنوك على المقترضين. على النقيض من ذلك، يخشى مديرو الأصول من تخفيض قيمة قاعدة أصولهم أكثر من التضخم، ما يجعلهم من اقوى أنصار "المال السهل". توضح العلاقات العميقة لشركة BlackRock مع البنوك المركزية في جميع أنحاء العالم هذه النقطة". [37]

هل يمكننا قياس مستوى انحدار القطاع المالي؟ لا يمكن اختزال الهيمنة المالية إلى مقياس واحد، وذلك لكونها عبارة عن علاقة بين قوى، سواء قوى داخل رأس المال أم مواجهة العمل والدولة. ومع ذلك، يمكن تقدير قوة القطاع المالي عبر النظر إلى حجم التقييم المتوقع-AnticipatedValoriza tion ، المقاس بقيمة الأصول المالية نسبة الى الحجم الاسمي للاقتصاد. لقدر كان انعطاف أسواق الأسهم بعد ارتفاع استمر لعقد من الزمان هو أول مؤشر في هذا الصدد. ففي العام، منذ نوفمبر 2021، انخفض مؤشر FT Wilshire 5000، وهو أوسع مؤشر لسوق الاستثمار في الولايات المتحدة، بنسبة 17.5%. إن هذا التطور ملحوظ بشكل أكبر كنسبة من الناتج المحلي الإجمالي (GBD): حيث تراجع إجمالي القيمة السوقية في الولايات المتحدة من 200% من الناتج المحلي الإجمالي إلى 150%، أي أقل من مستوى ما قبل الجائحة[38]. والاتجاه كان ذاته في أوروبا: تدنى مؤشر STOXX Europe

600 بنسبة 12.6% خلال نفس المدة. ان الأكثر دراماتيكية، كان انهيار أسواق العملات المشفرة، وهو المكان الذي تم فيه تداول أكثر فئات الأصول مضاربة. وهذا الانهيار يعكس الاغلاق المفاجئ للحدود الجديدة لنشاط قطاع المال.

هناك مؤشر آخر على ضعف مركز قطاع المال. وهو انخفاض حصته من إجمالي الأرباح (الشكل رقم 2)[39]. ففي الولايات المتحدة، انخفضت أرباح القطاع المالي من ذروة بلغت 27% في بداية عام 2019 إلى 15% فقط في الربع الثاني من عام 2022. أما في منطقة اليورو، فقد كان الانخفاض من 10% إلى 6%. على مستوى أعمق، تكمن "قوة قطاع المال" في السيولة، فهي أساسه كنشاط مستقل[40]. ان السيولة تجسد ادعاء القطاع بتمثيل القيمة، وبقدرته على تأديب الوحدات الإنتاجية والجهات الفاعلة في الدولة عبر تأليب بعضهم ضد البعض. وبالتالي، كلما اتسع نطاق السيولة، أي كلما كانت الأسواق المالية أكثر مرونة وتكاملا، كلما كانت قوة قطاع المال أكبر. ان استنزاف السيولة في السياق التضخمي الجديد يؤثر على الهيمنة المالية أيضًا. وبالطبع، التضخم كندرة مالية، يتفاقم بفعل السياسة النقدية الأكثر تقييدًا.

وقد تساءل مدير احد الاستثمارات، قلقاً من تأثير ارتفاع أسعار الفائدة الفيدرالية على "سيولة نظام مفرط التمويل" ومعرض بشدة للأصول المحفوفة بالمخاطر، عن "مخزون وتدفق الميزانية المالية العمومية الإجمالية للنظام"، أي تلك الخاصة بالبنك المركزي والبنوك التجارية مجتمعة. "ما حجمها بالنسبة للمتطلبات وهل تنمو أم تتقلص؟".

وقد مضى قائلا:

الحجة التي اطرحها، هي أن حجم الميزانيات العمومية ليس وحده مهماً، بل وتكوينها أيضًا. وفي اللحظة الراهنة، فإن التركيب أكثر أهمية من الحجم. إن التحول في تكوين الميزانية العمومية للاحتياطي الفيدرالي من الاحتياطات المصرفية إلى التزامات (اتفاقيات

الشكل رقم 2
أرباح القطاع المالي كحصة من مجمل الأرباح 2010-2022
المصادر:
مكتب التحليل الاقتصادي BEA الدخل القومي وحسابات المنتجات جدول 6.16D أكتوبر 2022
يوروستات البيانات الفصلية غير المالية

إعادة الشراء العكسي)[41] يستنزف السيولة من النظام المصرفي الذي يتسم بالمخاطرة العالية إلى نظام آخر اقل خطورة للغاية. والتحول في تكوين الميزانيات العمومية للبنوك التجارية من التداول المالي إلى التداول الصناعي من أجل دعم اقتصاد اسمي أكبر يقلل من السيولة المتاحة للأسواق المالية. والضغط التنظيمي يعيق قدرتها على التوسع في تحمل المخاطرة. فجأة، بدأت فكرة السيولة الزائدة في النظام تبدو ضعيفة للغاية، لا سيما من منظور السوق المالية[42]. بالتوازن مع "وجهة نظر السوق المالي" هذه، يبدو كاحتمال، أن الصدمة الناجمة عن جمود الاقتصاد المعولم التي تم الكشف عنها خلال الوباء، إلى جانب التوترات الجيوسياسية المتزايدة، قد ساهمت في إعادة تقييم مزايا هذا القطاع، وإلى تخفيضها النسبي من قبل صناع السياسة في الولايات المتحدة والرأسماليين الحذرين على حد سواء. في غضون ذلك، ضخت التشريعات الفيدرالية -قوانين الرعاية والبنية التحتية والرقائق - رأس المال في القطاع الإنتاجي.

الدروس المؤقتة

قال ماركس مازحا، في خضم الكساد الطويل عام 1879، إنه من الضروري دراسة مسار الأشياء حتى مرحلة النضج قبل أن يتمكن المرء من "الاستحواذ عليها بشكل منتج، اي نظرياً"[43]. من الواضح أن مثل هذه الملاحظة التحذيرية مطلوبة هنا؛ ان بومة مينيرفا ليست مستعدة بعد لإعلان حكمها على المنطق الأساسي للظروف شديدة التقلب التي نعيشها. وسيتم تعلم الكثير. ولكن ربما يمكن استخلاص ثلاثة دروس مؤقتة، كمحصلة وسيطة للعام الماضي.

أولاً، بخصوص السياسة النقدية مقابل ضوابط الأسعار: كانت[44](Isabella Weber) محقة في القول أن تشديد السياسة النقدية كان استجابة خاطئة، وضارة في ذات الوقت، لتضخم ارتفاع التكاليف؛ ان استراتيجية لضبط الأسعار هي اكثر فاعلية لمنع التضخم من التصاعد دون تحطيم الاقتصاد[45]. وعلى الرغم من أنها ليست حلا سحريا، لكن قيمتها أثبتت مرارا وتكرارا كأداة في إدارة الأضرار. تعرضت حجة Weber للهجوم في البداية من قبل أمثال[46](Paul Krugman)، لكنها جذبت الكثير من الاهتمام منذ ذلك الحين. اما بالنسبة لحكام أوروبا، المحاصرين بين تعهداتهم لحلف الناتو وأزمة تكلفة المعيشة التي تجتاح ناخبيهم، فإن مطالب الوضع علمتهم درسًا قاسيا في ما يتعلق بقطعة عنيدة من الحكمة الاقتصادية السائدة. ان سياسة الأسعار تعود للتعامل مع أزمة الطاقة، وتشكل شيئا من قبيل منعطف أيديولوجي[47]. إن الاعتراف بأن الأسعار ليست ظاهرة طبيعية وجوهرية وانه يمكن، بل ويجب، إدارتها لتجنب الألم غير الضروري، قد يكون له تداعيات بعيدة المدى. لقد أصبحت سياسات الأسعار والائتمان والاستثمار مرة أخرى أدوات مشروعة لتستخدمها الحكومات. كما ان إزالة الخصيصة الجوهرانية او الطبيعية عن السوق تعد إعادة فتح مهمة لفضاء السياسة. صحيح أن الاتحاد الأوروبي كافح للاتفاق على آلية لضبط الأسعار، لكن بروكسل تجاوزت نقطة اللاعودة. نظرًا لأنه يجب استكمال عملية تحديد الأسعار بآليات غير سعرية، وذلك لتقليل الطلب وتجنب تفاقم العجز، فإن شيئا من السياسة في عملية تخصيص الموارد أمر لا مفر منه، وهو مسار على نقيض مبدأ الليبرالية

الجديدة. فعندما ينهار السوق، يجب التفاوض على "أهداف واضحة وتقاسم عادل للأعباء"، كي يلبي الطلب قيود العرض، باستخدام أدوات مثل التسعير التدريجي والتخطيط للأولوية للتوزيع في حالات العبء الكبير[48]. مفاوضات من هذا النوع أصبحت حقيقة واقعة في أوروبا اليوم.

الدرس الثاني من للتضخم الجديد هو درس كالكياني. حيث يمكن للديناميكية الثلاثية لتوزيع الدخل، التي حددها ميخائيل كاليتسكي (Michał Kalecki)[49] في نموذج عام 1962، ان تساعد في إلقاء الضوء على تجربة السنة الماضية. حيث أشار كاليتسكي Kalecki إلى الطابع الطبقي للتضخم: ارتفاع أرباح الشركات الكبرى، وانخفاض الأجور الحقيقية، والفقر (النسبي) لأصحاب الريع، "الأجور الحقيقية عادة ما تنخفض، وحقيقة أن مستواها أقل بكثير من المعتاد يمكن رؤيته من توزيع الناتج القومي. ظاهرة أخرى تنعكس فيها هي إفقار صاحب الريع. والمقابل لهذا هو الأرباح الهائلة لرواد الأعمال بشكل عام والشركات الكبيرة على وجه الخصوص"[50]. ومن ثم، فإن إحدى السمات المميزة لهذه الظروف هي زيادة الأرباح جنبا إلى جنب مع انخفاض قيم الأصول. وهذا له نتيجتان: اولا، المعركة من أجل زيادة الأجور الحقيقية هي قضية ملحة للغاية. لكن، ثانيًا، لا ينبغي الخلط بين هذا وبين العداء العام للتضخم المعتدل وجانبه المعادي لأصحاب الريع.

الدرس الثالث، هو الذي علّمته سوزان دي بروندهوف (Suzanne de Brunhoff)[51]، وهو أن استمرار التضخم قد يكون له بعد نقدي. كما أوضحت في أواخر الستينات، "لا يمكن لأي سياسة نقدية أن تلغي الأسباب الاقتصادية للضغوط المالية؛ الاستقلال النسبي الذي يجعل من الممكن للسياسة النقدية أن يكون لها تأثير، يضع حدوداً على مجال عملها أيضًا "[52]. منذ عام 2008، حافظت البنوك المركزية على قيمة الأصول المالية من خلال سياساتها النقدية التوسعية. لقد قدموا تصديقا نقديا monetary validation حول التوقعات الخاصة لأصحاب الأصول المالية. وهي توقعات تعنى بتقييم مستقبلي حقيقي، وتعتمد على تعدد عمليات العمل المشتتة وغير المؤكدة التي لم تحدث بعد. نظرا لأن هذا النشاط النقدي لم يقابله طفرة في الاستثمار الإنتاجي، فإن التحقق المسبق تجاوز بكثير القدرة الفعالة للنظام على توليد فائض القيمة. إن التصاعد الحالي للتضخم يكشف أن التصديق النقدي لرأس المال المالي من قبل البنوك المركزية كان في الواقع، تصديقا زائفا. وهذا ما كانت تشير إليه دي بروندهوف de Brunhoff عندما كتبت أن "التضخم - رسميا - له خصائص الأزمة وليس بديلاً عنها (لا توجد معجزة التضخم)". لكن "تأثير عدم التصديق مخفف وممتد"[53]. بعبارة أخرى، التضخم هو أزمة مالية بطيئة الحركة. في مثل وجهة النظر هذه، لا تقتصر قواعد التضخم الجديد على اقتران الوباء، والتوترات المادية الناشئة عن التحول الأخضر، والحرب في أوكرانيا. أنه إلى حد ما تأثير متأخر في النظام النقدي للأزمة المالية لعام 2008 والازدهار المالي الذي أعقبه في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، مدعوما بسياسات نقدية غير تقليدية. من خلال التخفيض السابق لقيمة الأصول المالية، يتم ببطء هضم رأس المال الوهمي المتراكم بشكل مفرط. ومن المتصور أن "الانكماش الكبير في الأسواق المالية"

الذي تأخر تقديمه منذ عام 2008 يمكن أن يحدث بطريقة منظمة نسبيا[54].

استنادا الى ألتوسير، يقترح الإطار المنظم the Regulationist framework أن الرأسمالية "لديها وحدة البنية بالهيمنة". جاء القطاع المالي بعد علاقة الاجر - العمل في حقبة ما بعد الحرب، وأصبح هو العنصر المهيمن في العقود القليلة الماضية؛ لكن سلطانه صار يضعف، وفتحت المنافسة على العرش. لكن ليس واضحا ولا مقررا بعد من سيكون العنصر القيادي القادم للبنية. من الممكن ان يوفر الإنجاز الكبير للاحتكاريين الفكريين دعامة منهجية، مما يؤدي الى نمط انتاج "تقني-اقطاعي" رجعي[55]. بدلا من ذلك، يتوقع البعض في مجتمع الاستثمار ان الكبح المالي وتوجيه[56] الاقتصاد سيؤدي الى هندسة انتعاش انتاجي للتراكم[57]. لكن اليسار يريد شيئا آخر: بعد عقود من هذيان السلع، ان تحولا نحو التخطيط الديمقراطي - توجيه الاستثمار وفقا للحاجة الاجتماعية والحدود البيئية – سيكون انتقاما للقيمة الاستعمالية.

---

* نشرت المقالة في:

new left review 138 Nov-Dec 2022 39, p:39-55

**سيدريك دوران

Cédric Durand أستاذ مشارك في جامعة جنيف. كما انه درّس الاقتصاد ونظريات التنمية في مدرسة الدراسات المتقدمة للعلوم الاجتماعية EHESS في باريس. عضو مركز Centre d'économie Paris Nord. كما انه عضو هيئة تحرير الجريدة الالكترونية ContreTemps. يشتغل نظريا في إطار تقاليد الاقتصاد السياسي الماركسي والاقتصاد السياسي الفرنسي التنظيمي.

ومن اهم المواضيع التي يركز على دراستها: العولمة والتمويل المالي financialization والتغيرات او الطفرات المعاصرة للرأسمالية.

الهوامش:

1- Team Transitory مصطلح يقصد به اقتصاديين ورؤساء وصناع السياسات في المؤسسات النقدية او المالية حاججوا –او ما زالوا يحاججون – ان التضخم المرتفع عبارة عن اندفاع او انفجار مفاجئ وغير متوقع وسرعان ما سيتلاشى بسرعة (المترجم).

2- بنك التسوية الدولي (BIS) Bank for International Settlements مؤسسة مملوكة من عدد من البنوك المركزية. ويقع مقره في مدينة بازل، سويسرا. وهو يعد أقدم مؤسسة مالية دولية حيث تأسس عام 1930. كان تأسيسه في الأصل لتسوية التعويضات المفروضة على المانيا بعد الحرب العالمية الأولى. اما اليوم، فوظيفته بحسب الموقع الرسمي له هي رعاية التعاون النقدي والمالي وتعزيز التعاون بين البنوك المركزية وتوفير تسهيلات إضافية للعمليات المالية الدولية. عن طريق تأدية وظيفة بنك البنوك المركزية. يبلغ عدد اعضائه الآن 63 بنكاً مركزياً (المترجم).

3- Agustín Carstens, 'The Return of Inflation', bis, 5 April 2022.

4- Howard Schneider and Ann Saphir, 'Fed Delivers Another Big Rate Hike; Powell Vows to "Keep at It"', Reuters, 22 Sept 2022.

5- Pierre-Olivier Gourinchas, 'Policymakers Need Steady Hand as Storm Clouds Gather Over Global Economy', imf, 11 Oct 2022.

6- See @RobinBrooksIIF, 16 October 2022: https://twitter.com/RobinBrooksiif/status/1581626808856121346;
Nicolas Barré et al., 'Emmanuel Macron: "Il faut une politique massive pour réindustriaser l'Europe"', Les Echos, 16 October 2022.

7- .UNCTAD Warns of Policy-Induced Global Recession', UNCTAD, 3 Oct 2022'

8- Cédric Durand, Fictitious Capital: How Finance Is Appropriating Our Future, trans. David Broder, London and New York 2017, pp. 66–8, 151–5; first published as Le capital .fictif, Paris 2014

9- تضخم ارتفاع التكاليف Cost-push inflation، انخفاض في العرض الكلي للسلع والخدمات ناجم عن زيادة تكلفة الإنتاج. او هو ارتفاع أسعار السلع والخدمات بسبب مشاكل في العرض، في ظل طلب ثابت او متزايد (المترجم).

10- إدارة مخزون الأعمال في الوقت المناسب the just-in-time management of business inventories JIT)) تعني إدارة عملية استلام السلع من مورديها عند الحاجة إليها فقط. خصوصا، مواءمة طلبات المواد الخام من الموردين مباشرة مع جدول الإنتاج. وذلك من اجل تقليل تكاليف الاحتفاظ بالمخزون وزيادة معدل دوران المخزون (المترجم).

11- Ben Bernanke, 'The Great Moderation', speech to the Eastern Economic Association, .Washington, dc, 20 February 2004; available on the Federal Reserve website

12- تأثير السوط bullwhip effect انتقال التوقعات في الدقيقة أو التقلبات الحقيقية في الطلب الى أعلى سلسلة التوريد. حيث ان التغيرات الصغيرة في الطلب في نهاية سلسلة التوريد (التجزئة) تتضخم عبر سلسلة التوريد، لتصل الى النهاية الثانية، (التصنيع)، لتصبح بشكل تعديلات ضخمة (المترجم).

13- Daniel Rees and Phurichai Rungcharoenkitkul, 'Bottlenecks: Causes and Macroeconomic Implications', bis Bulletin, no. 48, 11 November 2021.

14- See 'Covid-19: The eu's Response to the Economic Fallout', available at consilium. .europa.eu

15- Alisa Priddle, 'What Happened with the Semiconductor Chip Shortage – and How and .When the Auto Industry Will Emerge', Motor Trend, 27 Dec 2021

16- .(Data: oecd and European Automobile Manufacturers' Association (acea))

17- Joe Miller, 'Carmakers Order Enough Chips for Record Rebound in Global Production', .ft, 5 October 2022

18- الانتقال الكاربوني Carbon transition مصطلح يشير الى التحول من اقتصاد يستند بشدة الى مصادر الطاقة كثيفة الكاربون: الفحم والنفط والغاز الطبيعي، الى اقتصاد أكثر استدامة وصديق للبيئة. وذلك عبر الانتقال الى مصادر طاقة متجددة وأنظف، من اجل الحد من انبعاث الغازات التي تسبب الاحتباس الحراري (المترجم).

19- .Cédric Durand, 'Energy Dilemma', nlr-Sidecar, 5 November 2021

This was initially acknowledged by ECB director Isabel Schnabel. 'There is very little we can do about current high inflation', she told the Financial Times. 'Even if we hiked

20- rates now, this would not bring down today's energy prices': interview, 15 February .2022; available on ECB.europa.eu

21- In such circumstances, as discussed below, strategic price controls are a far bet¬ter way to prevent inflation from spiralling, without crashing the economy. See Isabella Weber's compelling argument, 'Could Strategic Price Controls Help Fight Inflation?', .Guardian, 29 December 2021

22- Dion Rabouin, 'Big Companies Thrive During Periods of Inflation', Wall Street Journal, .10 February 2022

23- For profits: Matthew Boesler, 'Profits Soar as us Corporations Have Best Year Since 1950', Bloomberg, 30 March 2022; Edward Yardeni and Joe Abbott, 's&p 500 Sectors & Industries Profit Margins (quarterly)', Yardeni Research, 28 November 2022. For dividends, see 'Janus Henderson Global Dividend Index', no. 36, November 2022, .available on janushenderson.com

24- See us Bureau of Labor Statistics; Thomas Blanchet, Emmanuel Saez, Gabriel Zucman, .Realtime Inequality database, Dept of Economics, Berkeley ca

25- What [central bankers] have to do is prevent a wage-price spiral, which would certainly' destabilize inflation expectations. Monetary policy must be tight enough to achieve this.

In other words, it must create/preserve some slack in the labour market. What degree of policy tightness is needed to achieve this we don't know. And it is certainly possible that headline and most measures of core inflation will continue to be high even if a degree of labour market slack does exist. But there is no point in permitting a level of aggregate demand that aggregate supply, given the pattern of demand, cannot meet. Central banks must tighten accordingly': Martin Wolf, quoted in Robert Armstrong and Ethan Wu, 'A Third Option in the Inflation Debate', ft, 17 February 2022.

26- Tajinder Dhillon, 'stoxx 600 Q2 2022 Earnings Halfway Review: Growth Remains Resilient', Lipper Alpha Insight, 11 August 2022.

27- Isabel Schnabel, 'Monetary Policy in a Cost of Living Crisis', remarks at a panel on the 'Fight against inflation' at the iv Edition Foro La Toja, 30 September 2022; available at ECB.europa.eu.

28- An industry analyst is blunt about the dilemma: 'In an inflationary world, central banks have to focus on anchoring inflation expectations. This means that financial-stability concerns, even if they are relevant for the growth outlook, become secondary. This is different from the situation we have been in for the last 20–30 years, when central banks always stepped in when there was meaningful financial-market tension': Jens Nordvig, 'Money Inside and Out', Exante Data, 16 October 2022.

29- بول ادولف فولكر 2019–1927) Paul Adolph Volcker Jr.) اقتصادي امريكي، الرئيس رقم 12 للاحتياطي الفدرالي الأمريكي (1979 – 1987). يرى الكثيرون ان الفضل يعود اليه والى اجراءاته لإنهاء مستويات التضخم العالية في الولايات المتحدة في سبعينات وبداية ثمانينات القرن العشرين (المترجم).

30- Davide Barbuscia and Lewis Krauskopf, 'Analysis: Worries over Global Financial Stability Mount as Central Banks Tighten Policy', Reuters, 13 October 2022.

31- Liz Truss سياسية بريطانية وزعيمة حزب المحافظين ورئيسة وزراء المملكة المتحدة لمدة 44 يوما فقط من 5 سبتمبر ولغاية استقالتها يوم 20 أكتوبر 2022. Kwasi Kwarteng سياسي بريطاني اصبح وزيرا للخزانة في حكومة تراس.

32- Martin Wolf, 'Larry Summers: "The Destabilization Wrought by British Errors Will Not Be Confined to Britain"', ft, 6 October 2022; Toby Nangle, 'Who Exactly Has the boe Bailed Out?', ft, 30 September 2022.

33- See respectively: Jamie McGeever, 'Rare Swiss franc stress reflects deeper market strains', Reuters, 18 October 2022; Daniela Gabor and Jakob Vestergaard, Towards a Theory of Shadow Money, Institute for New Economic Thinking, April 2016; ECB, 21 July 2022.

34- Jean Boivin, head of the BlackRock Investment Institute, cited in Armstrong and Wu, 'A Third Option in the Inflation Debate'.

35- Benjamin Braun باحث متخصص في الاقتصاد السياسي، عمل في معهد ماكس بلانك لدراسة المجتمع. مهتم بدراسة اقتصاد المال وكذلك السياسات والمؤسسات الاقتصادية والتشابك في ما بينهما.

36- Benjamin Braun, 'Asset Manager Capitalism as a Corporate Governance Regime', in Jacob Hacker et al., eds, American Political Economy: Politics, Markets and Power, Cambridge and New York 2021; a pre-print version is available at ArXiv Papers, 15 March 2022.

37- هناك العديد من التعريفات والشروحات لمصطلحي النقود الصعبة Hard Money والنقود السهلة Easy money. بعضها اقتصادي تقني بحت واخريات سياسية تكتيكية. ولكن ضمن سياق الاقتباس فإن المقصود هنا هو نوعين مختلفين من السياسات النقدية. النقود الصعبة تشير الى سياسات او مواقف تؤكد الصرامة على المعروض النقدي والتركيز على الحفاظ على استقرار الأسعار. وفي ظل هذه السياسة تركز البنوك وصناع السياسات النقدية على مكافحة التضخم والحفاظ على قيمة العملة. واتباع تدابير من قبيل رفع معدلات الفائدة وخفض الانفاق الحكومي. اما النقود السهلة فتشير الى السياسات النقدية التي تركز على زيادة المعروض من النقود وتحفيز النمو الاقتصادي حيث تركز البنوك وصناع السياسات النقدية على تشجيع الانفاق والاقتراض وتخفيض معدلات الفائدة (المترجم).

38- .Data from Wilshire Associates and the us Bureau of Economic Analysis

39- ملاحظات على الشكل 2 بيانات الولايات المتحدة: نسبة مالية أخرى (وليس بنكا مركزيا) للصناعات المحلية؛ بيانات منطقة اليورو 19: النسبة المئوية للشركات المالية للشركات المالية + الشركات غير المالية. هذه البيانات ليست متوافقة على الفور بين الولايات المتحدة وأوروبا (الكاتب).

40- .André Orléan, Le Pouvoir de la finance, Paris 1999

41- اتفاقية إعادة الشراء العكسي RRP او الريبو العكسي هي اتفاقية قصيرة الاجل، تتمثل ببيع الأوراق المالية مع اتفاق على إعادة شرائها بسعر اعلى في المستقبل. ومعدل الفائدة يحدد بالفرق بين سعر البيع وسعر الشراء، وطول الفترة الزمنية الفاصلة بينهما. وهذه الآلية مع صنوها الاخر (اتفاقية إعادة الشراء REPO) تعدان أداتين رئيسيتين تستخدمهما العديد من المؤسسات المالية الكبيرة وبعض الشركات. ويستخدمهما الاحتياطي الفدرالي كطريقة للتحكم في المعروض النقدي (المترجم).

42- Internal memo drafted by Henry Maxey, chief investment officer at Ruffer, cited in Robin .Wigglesworth, 'Liquidity Rules Everything Around Me', ft, 20 September 2022

43- Marx to Nikolai Danielson, 10 April 1879, in Marx and Engels, Selected Correspon- .dence, Moscow 1975

44- Isabella Weber اقتصادية المانية مواليد 1987 أستاذة في جامعة ماساتشوستس في أمهيرست، الولايات المتحدة. أبرز اهتماماتها الاقتصاد السياسي الصيني، والتجارة الدولية، تاريخ الأفكار الاقتصادية، ونظرية المال والأسعار (المترجم).

45- '?Weber, 'Could Strategic Price Controls Help Fight Inflation

46- Paul Robin Krugman مواليد 1953، هو اقتصادي أمريكي، وأستاذ الاقتصاد في مركز الدراسات العليا بجامعة مدينة نيويورك، وكاتب عمود في صحيفة نيويورك تايمز. نال عام 2008 جائزة نوبل في العلوم الاقتصادية عن مساهماته في النظرية التجارية الجديدة والجغرافيا الاقتصادية الجديدة. أمضى عاما في العمل في البيت الأبيض أثناء إدارة الرئيس رونالد ريغان كموظف في مجلس المستشارين الاقتصاديين (المترجم).

47- An illustration: Mario Draghi, of all people, while still acting Italian Prime Minister, laun- ched a scathing attack on Ursula von der Leyen, arguing that by not doing anything to cut the link between gas and electricity prices, the eu had 'made a colossal mistake' and 'impoverished millions of people': Virginie Malingre, 'L'Europe peine à s'entendre .sur un plafonnement du prix du gaz', Le Monde, 13 October 2022

48- Karsten Neuhoff and Isabella Weber, 'Can Europe Weather Looming Gas Shortages?', .Project Syndicate, 2 May 2022

49- درس كالكياني، نسبة الى Micha Kalecki وهو اقتصادي ماركسي بولندي (1899 – 1970)، يعد أحد أكثر الاقتصاديين تميزا في القرن العشرين.

50- A Model of Hyperinflation', The Manchester School, vol. 30, no. 3, September 1962,' .pp. 275–281

51-(1929–2015) (Suzanne de Brunhoff) كانت سوزان دي برونهوف خبيرة اقتصادية فرنسية كتبت على نطاق واسع عن السياسة النقدية وآراء ماركس الخاصة حول أهمية المال في المجتمع الرأسمالي. نشرت باللغة الإنجليزية كتاب (الدولة ورأس المال والسياسة الاقتصادية). وكانت عضوًا نشطًا في الحزب الشيوعي الفرنسي، وشاركت في النضال من أجل استقلال الجزائر (المترجم)

52- Suzanne de Brunhoff, Marx on Money, trans. Maurice Goldbloom, London and New .York 2015, p. 126; first published as La Monnaie chez Marx, Paris 1973

53- Suzanne de Brunhoff, Les Rapports d'argent: intervention en économie politique, Gre- .noble 1979, p. 126

54- James Crotty, 'Structural Causes of the Global Financial Crisis: A Critical Assessment of the "New Financial Architecture"', Cambridge Journal of Economics, vol. 33, no. 4, .July 2009

55- .Durand, 'Scouting Capital's Frontiers', nlr 136, July–August 2022

56- وردت بالفرنسية في الأصل dirigisme (المترجم).

57- Russell Napier, 'We Will See the Return of Capital Investment on a Massive Scale', The Market

أدب وفن

العراقيون.. عشاق الثقافة

حسب الله يحيى

منذ عام 2003 والعراق يواجه سلسلة من الأزمات الحادة في كل مرافق الحياة. هذه الأزمات، انعكست بشكل ملحوظ على مجمل الحياة الاجتماعية، مما اضطر المواطن العراقي، الى المفاضلة بين ما هو مهم وما هو أهم من أجل تحقيق أدنى مستويات العيش.هذا الواقع، جعل حالة الإحباط واليأس والقنوط وفقدان الأمل، هي الغالبة على حياة الناس.ومما زاد هذه الحالة، إهمال الدولة لأي متنفس من شأنه ان يحقق السعادة والهناء والسلام، الى جانب غياب كلي لكل ما هو ثقافي وجمالي سواء في الحياة الثقافية ام التربوية ام التعليمية. وعدّت الثقافة ترفاً، فيما انتشار الجهل والأمية يمتدان على نطاق واسع، وبإهمال مقصود من الأجهزة الحكومية كافة. لا وجود لرعاية أو دعم أو حتى التفاتة إلى كل ما يرقى بوعي المواطن!

الثقافة.. هي آخر ما تعنى به السياسة في العراق، وحتى هذا الآخر مفقود بدليل انه لا توجد قاعة سينما ولا مسرح في العراق، باستثناء دائرة رسمية، لا يعرف لها منجز، ولا يسأل عن حالها حال، وكذا الدائرة الفنية والدائرة الموسيقية. لكن مبادرات طيبة، وانطلاقات مفاجئة، تثير الانتباه، وتسترعي الاهتمام لا من قبل الحكومة فحسب، وانما من قبل العراقيين المحبطين.هي التي تجعلنا ندرك جيداً وبوضوح تام، ان العراقيين بناة الحضارة ورواد الوعي والجمال، سرعان ما يكشفون عن اهتمامهم وتفاعلهم مع كل مبادرة ثقافية جادة.. والامثلة كثيرة..

نذكر منها ما حصل من استقبال ومشاركة حميمية عند الاحتفاء بمرور مئة عام على ميلاد رائدة الشعر الحديث (نازك الملائكة) في مسرح الرشيد الذي اعيد إعماره بعد تدميره في 2003، وبقائه مهملاً على مدى ما يقارب العقدين من الزمن المر. الجمهور الراقي الذي تجمع في هذا المكان، كان يدق نواقيس الفرح استقبالاً لهذا النشاط الثقافي، وينم عن الرغبة الملحة للعراقيين في متابعة ورصد كل ما هو ثقافي.. وكذا الامر مع استذكار الشاعر الكبير (مظفر النواب)، سواء في جلسات اتحاد الادباء ام نشاطات الجمعية العراقية لدعم الثقافة ام جمعية الثقافة للجميع ام غيرها..

وكذا الحال مع مسرح شبابي تم تقديمه في مسرح كلية الفنون الجميلة/ بغداد، من قبل الطلبة.. حيث امتلأت القاعة بالجمهور الذي كان يبحث عن لغة فاتنة وحركات رشيقة، وحوار متقن. وإذا ما انتبهنا الى هذا الاستقبال الباذخ في هذه الانشطة وسواها، نتبين ان العراقيين لم ييأسوا تماماً، فما زال فيهم رمق للمحبة والسلام والثقافة والجمال، وهو أمر يعد ظاهرة ايجابية ملحوظة، تستحق أن تجد صداها لدى المسؤولين عن رعاية (الثقافة والسياحة والآثار) في وزارة تحمل هذا العنوان الثلاثي الكبير، من دون أن تفيه حقه من القبول والاهتمام والرعاية. وإذا ما انتقلنا الى شارع المتنبي، والجمهور الواسع الذي يملأ الشارع يومياً وبشكل خاص ايام الجمع، وكيف يكون (الكتاب) سيد الزمان والمكان، وكيف تحول هذا الشارع الى ملتقى اجتماعي يمتد نهاراً حتى الخيط الاول من الفجر..

ليتحول اللقاء، الى لقاءات محبة تمتلئ بالثقافة والمثقفين وكل ما من شأنه رؤية هذا المكان، المكان الاجمل والاكثر بهاء وعطاء.هذه المشاهد بتنا نراها بين وقت وآخر، تكشف عن مدى اهتمام العراقيين بكل ما هو ثقافي ومتحضر وجميل.. وهو الامر الذي يستدعي من الجهات الرسمية الانتباه اليه، لا ان تقمعه تحت مسوغ (المحتوى الهابط) لكبت الحريات وانما الايمان المطلق بدعوى فتح الآفاق وجعل الازهار تتنفس على اوسع نطاق.

نعم، العراقيون عشاق الثقافة، ولأنهم كذلك، اذن لا بد ان يكون للثقافة حضورها المتميز وتوجهاتها المخلصة ورعايتها البناءة، ذلك ان بناء الانسان لا يتم بالتضليل والتجهيل - كما هو قائم الآن - وانما الانتباه والالتفاف ملياً الى ان الوعي هو الذي يحقق الحياة السليمة والواقع الاجمل لعراق تسوده الحرية والسلام.

مظاهر الاستياء
من الفوارق المجتمعية والاقتصادية في الشعر العراقي

د. عماد جاسم*

لا يمكن إنكار حقيقة التفاوت الطبقي بين فئات المجتمع العراقي في أعقاب الاحتلال. وما حدث من تَغيُّر في البنية المجتمعية والاقتصادية وتعاظم عمليات بيع النفط أو تهريبه، وما رافق هذا من تحوُّل الأرباح الناتجة عن ذلك إلى جيوب فئة محدودة من المنتفعين جراء المصالح والفئوية والتخادم بين الجهات السياسية وعدد من التجار والمستوردين، في حين تعيش فئات من المجتمع تحت خط الفقر. ومن ذلك تولَّدت حالات من السخط شعبياً وشعرياً وصلت في السنوات الأخيرة إلى عمليات احتجاج عارمة طالبت بإزالة الطبقة السياسية وتحقيق العدالة في توزيع الثروة. ومما لا شك فيه "... أنَّ تزايد الثروة العامة، وسد الحاجات الاجتماعية المتطوِّرة للسكان يخلق مناخاً اجتماعياً مؤاتياً للتحول الديمقراطي بعكس المناخ الذي يخلقه الكساد والركود الاقتصادي"[1].

وعلى الرغم من العناية بإيراد بيانات ومواد دستورية تُؤكِّد على أهمية المساواة وتحقيق العدالة لضمان تحقيق الديمقراطية، إلّا أنَّ ذلك لم يلمسه المواطن العراقي الذي ظَلَّ متشبثاً بحلم أو بفكرة الإصلاح بعد أنْ أدرك حجم موارد بلده التي يمكن أن تُحقِّق له الرخاء إذا ما تَمَّ التعامل معها بنوع من

الحكمة وحسن التدبير.

وأخذ الكثير من الشعراء يقلبون هذه الفكرة منتقدين غياب بوصلة الإصلاح عند التيارات الحاكمة، وهناك من عبَّر عن جزعه بالعودة إلى الماضي التليد مذكِّراً بمجد الأجداد ومستثمراً ذلك الإرث الحضاري ليقارن مع وضع بائس يعيشه حفيد السومريين على أرض غنية بكلّ الموارد لتأتي قصيدة رعد زامل بهذا الدفق التي حملت عنوان (قادم من أقصى المياه):

"قادم من أقصى المياه
أجرّ أذيال العطش
وكسهم بلا هدف
أدور حَول نفسي
صارخاً في الأهوار:
كلكامش أيُّها الجد

لماذا تركت الحمير يخضمون عشبة الخلود
بدمي أيضاً أخطبوط يثير الشغب
ما أنْ تضع الحرب أوزارها
حتى يشعل شرارة الأخرى
ليتنفس الأوكسجين المذاب بالدم
لذلك شاحب أنا
وهزيل
أستعين على الهجير
بقنينة من حبر
وبلثام من ورق"[2].

يأتي صوت الشاعر في هذه القصيدة معبِّراً عن حالة استياء وتذمُّر من حاضر مسكون بالعطش والجدب تترجمه القصيدة بمفردات الهزال والهجير والشحوب لتكون دلالة الرفض لواقع تحكمه مجاميع يسخر منها الشاعر الذي يستحضر كلكامش الجد الباحث عن عشبة الخلود في أرض الخيرات، لكنها اليوم تعيش حالة من الجوع والانقسام والرضوخ تحت إرادة من لا يعرف شيئاً عن أمجاد تاريخه وحضارته.

وُيكرِّر شاعرنا الذي يعيش في محافظة ميسان الغنيَّة بالموارد الطبيعية والغنيَّة بتاريخها أيضاً، يُكرِّر تنويعات الإشارة لوفرة المياه والأهوار، يقابل ذلك تذمُّر يعكسه مزاج الشاعر المتألم من حالة العطش والتراجع، لتمنحنا القصيدة شكلاً رمزياً لهذا التناقض بين ماضٍ مجيد وحاضر يئنُّ من سطوة الفوارق التي حفلت بها الحياة العراقية.

ويعزو اقتصاديون ما حصل من فوارق بين فئات المجتمع إلى خلل في النظام الاقتصادي وفهم مغلوط لآليات التعامل العادل مع موارد البلد، حيث يجد أستاذ الاقتصاد الراحل كاظم حبيب أنَّ في العراق من الأراضي التي تحمل ثروات مهمة لم يحسن استثمارها أو تطويعها لتكون ذات فوائد على المجتمع لإزالة الفوارق بين فئاته، "فالعراق يُشكِّل جزءاً عضوياً في النظام الرأسمالي العالمي، ولكنَّه الجزء المتخلِّف والتابع والمستنزف في موارده الاقتصادية وأمواله، والقائم على علاقات اقتصادية غير متكافئة. فالاقتصاد العراقي يُشكِّل جزءاً من تلك الدوائر المختلفة التي تدور في فلك المراكز الرأسمالية الدولية، وهذا الواقع المشوَّه يجعل من عملية إعادة الإنتاج أو مجمل العملية الاقتصادية بالعراق في مراحلها الأربعة (الإنتاج والتوزيع والتبادل والاستهلاك) ضعيفة تعيق تحقيق عملية إعادة إنتاج موسَّعة وضمان تراكم رأسمالي وإغناء الثروة الاجتماعية من فروع وقطاعات اقتصادية أخرى وزيادة في التشغيل وتحسين في مستوى الدخول والحياة والمعيشة"[3].

وسجَّل الشعر العراقي تَقَدُّماً ملحوظاً في تماشيه مع فهم الحالة الاقتصادية ومعرفة كيف تدار الدولة في ظل قصدية وجدها الشعراء تتعلَّق بتجسيد فكرة غياب العدالة ومن ثم زيادة الفوارق بين طبقات الشعب، الأمر الذي جعل الشعر يقترب من ضفاف التفكير المنطقي والثوري للإصلاح الاقتصادي والمجتمعي.

ونلاحظ قصائد أخرى حملت منحىً فكرياً ذا توجهات رافضة للموت الذي يسور الوطن من كلّ جانب، فيتَّجه شاعر مثل أحمد عبد الحسين ليناشد الله أنْ يحمي البلاد من جور العطش والفقر والاضطهاد والبؤس، ويختار لغة شكوى مريرة معاتباً على ما يحصل من فقر وانتشار عصابات تتجول بأحزمة ناسفة لترعب الناس وتحوِّل أزقة المدينة إلى كابوس، فيكتب في قصيدته المعنونة (بسم الله):

أنتَ يا بئر العطش
يا كنزاً أسودَ في فم الذئب؛
دع قنديلك الناطق بالأعاجيب يضيء اسم العراق،
ارفع خرقتك التي عصبت بها وجه بغداد
اجمع زينة الحرب من عتبات البيوت،
اجعل بنادقهم مكانس لئلا يقتِلوا أو يقتَلوا،
انفخ سراجك الذي يشع ظلمة في ليل أُمِّي،
ولا تترك حبيبتي تخرج خائفة
من البيت إلى الجامعة ومن الجامعة إلى البيت،
بل اختم على قلبها بأبعد نجومك
حتى تعرف وهي تشد لك حجابها
إنكَ العاصفة
وقد ابتسمت أخيراً بعد طوال خراب.
أنت أرعبت قلب صغيرتي
وقد آن لها أنْ تلمس قلبك.
أماَ ملائكتك الجوّابون من زاخو إلى الفاو،
الملائكة الملثَّمون ذوو البراثن والأنياب،
فأرجعهم بأحزمتهم الناسفة إلى الصحراء،
واجعلْ لهم بئر عطش
يستقون منها إلى أبد الآبدين.
وإذا جاءتك نساؤنا بسلالهن
ملآى بثمرات أرحامهن
فلا تملأها بحصتك التموينية
حسكاً وخبز مذلَّة،
ولكنْ
بالقليل القليل مما في خزائن غيبك المكنون
بنكهة الفجر املأها
ورفرفة طيور بيض يضربن بأجنحتهن
في صلاة العشاء.
أغرق عيونهنَّ كحلاً وقلوبهنَّ كركرة أطفال
لئلا ينشغلن عن الصلاة إليك بأسماء أبنائهنَّ،
من مات منهم ومن هرب،
يا بئر العطش"[4].

هذه القصيدة المحمَّلة بالشفرات تكاد تفصح عن روح تمردية تخالف قناعات مجتمع ديني يرفض معاتبة الله على هذه الشاكلة التي أرادها الشاعر أنْ تخرج من فم مكلوم اكتوى بنار الحروب وعصابات الموت، مع حالة الجزع من غياب العدالة. فما كان من شاعرنا إلّا اختيار لغة تضجُّ بالدلالات والصور التي تواجه الواقع بهذا الكم من البوح والشكوى، وهي ملغزة بإدانة الصامتين على ما يحصل بالبلاد نتيجة هيمنة مجاميع مسلحة تدَّعي قربها للدين!، بل وتجتهد في إقامة الحدِّ وترويع الناس المخالفين لنهجهم، مذكِّراً بيوميات العراقيين التي لا تنسى حيث الأحزمة الناسفة التي تقتحم الأسواق، يقابل ذلك تذكير ببؤس الحال من مفردات البطاقة التموينية التي لا تعين الفقراء في إشارة ذكية لموت يحاصر الشعب مع خذلان يصاحب أيامه جَّراء غياب التوزيع العادل للثروة، حيث يورد الشاعر في قصيدته أنَّ الأمهات ينتظرن مفردات البطاقة التموينية التي لا تأتيهن إلّا بالمذلَّة، فهي لا تسدُّ رمق العيش.

ولا بدَّ لنا من التوقُّف أيضاً عند دلالات العنوان الرئيس لمجموعة الشاعر التي حملت أيضاً صرخة استهجان معلنة على الظلم الحاصل في العالم وقد اختار عنوان مجموعته (دليل على بهتان العالم) ليضعنا أمام تصوُّر لا يقبل الشك بوجود تلك الفوارق التي من شأنها أن تدفع الشعراء إلى مواجهة هذا السيل من التصدُّع في أركان العدالة التي لابُدَّ لها أن تكون قائمة ليكون العالم أكثر قبولاً.

لذلك يمكننا القول: إنَّ الشاعر هنا بدأ بالشروع في إظهار الحدث وتجسيد التناقض

من العنوان ذي الرمزية العالية، كما كان الرمز حاضراً بقوة بين ثنايا النصِّ، ليجعل منه نصّاً ثرياً بالدلالات يمنح المتلّقي تنوعاً في التأويل ويفتح الأفق نحو مديات أكثر للكشف عن الوجع الجمعي لشاعر أتقن الإدهاش في تفسير وإدانة هذا العالم، إذ ''... يعدّ الرمز في النصِّ الأدبي، سواء أكان ذلك النص نثرياً أم شعرياً، مرتكزاً أساسياً يقود القراءة إلى تأويلات تتصل بمرجعيته من جانب، وتتصل بطبيعة استثماره وحضوره في النص من جانب آخر، عن طريق الإشارات المبثوثة في المتن وتقوم بمهمة بنائه، وتحيل إلى خارج النص إحالة صريحة بالإشارات ذات السمة الظاهرية، أو تلمح إلى ذلك الخارج بالإشارات ذات السمة الوظيفية التي تتصل بتلك المرجعيات أو تقترب منها أو إلى الأشياء المجاورة لها''[5].

ولأنَّ شاعراً مثل أحمد عبد الحسين من المغرمين بالاقتراب من ضفاف التصوُّف وتجميل أعماله ببواطن اللغة وما تحمله من إشارات فلسفية وأخرى ذات طابع ديني لا ينكشف بسهولة ضمن مجريات النص المفتوح فهو قد برع في إرغامنا على مشاركته تساؤلاته وخيبته التي أنتجها بملاحقة صور اليوميات في بلاده مع الاعتماد على خزين مرجعياته الفكرية التي خدمت هذا النص الملغَّز، الذي يستند إلى تجارب الشاعر الذاتية. ''إنَّها تجارب تنوس بين التصلُّب في الإيمان بالكلمة، بوصفها صوتاً خالصاً، وإنتاج نسخة منها، تتكرَّر بألوان لا تمنحها مشهدية مختلفة، تشكل صورة نمطية، ترتفع بجردها من التاريخ، ومن منبع الواقع، مع ذلك، انعطفت التجربة عبر النظر الحرّ الذي يتمتَّع به أحمد عبد الحسين شاعراً، النظر الحرّ إلى تجربة الشعر، في استيفاء درب الشعر غير المطروق، في حدّه الأساسي، في الشعرية، مقروناً باستيفاء درب الحياة المطروق، مآسي الوطن، تجربة المنفى، تجربة الاحتجاج، والتصارع مع الحياة، ومن هنا كتب الشاعر شعريته الخاصة، شعرية تفكُّر، تقول القيود من أجل التحرُّر منها، وتنبع من موقف متطلع، متوثِّب''[6].

وهكذا يواجه شعراء هذه المرحلة واقعهم بما يملكونه من خزين التجربة وحتمية الانتصار إلى قول الحقيقة التي تتطلَّب في بعض الأحيان شعرية تستند إلى ثقافات متنوعة تمنح الشاعر حرفية التبصُّر في متاهات الوجود الذي يزداد غموضاً بفعل ارتباك الحياة السياسية ومضاعفة المعاناة الإنسانية، ولا يمكن إخفاء حقيقة جوهرية تتعلَّق بطبيعة العلاقة الشعرية مع المشكلات الاقتصادية والأزمات المجتمعية التي تحرِّك وجدان الشاعر لاختيار ما يراه مناسباً ومطواعاً لشعوره بالأسف والانسحاق بوجود تبعات الحروب وما يرافقها من ظروف عصيبة يترجمها الشعراء تبعاً لحدود معرفتهم أو حدود تواصلهم مع هموم أبناء وطنهم. وهنا سنجد الشاعر منذر عبد الحر يُعبِّر عن حالة الاستياء من الفوارق الطبقية بين أبناء مجتمعه في وطن تغيب عنه قيم العدالة نتيجة السياسات الخاطئة، لكنَّه شاعر أكثر وضوحاً من شعراء آخرين في وصف هذه الفوارق، فلم يتقصَّد الإيهام أو التلاعب باللغة، بل على العكس اتجه نحو مصارحة قرَّائه بحقيقة هذه الفوارق في قصيدته المعنونة (الفقراء) بقوله:

''أصدقائي الفقراء...
عُشَّاق..

حالمون
يطيرون بأجنحة الغناء
فراشات بين زهور المعنى
هم...
أكثر ثراء
من تُجَّار السيارات
ومقاولي الدم
أصدقائي الفقراء
لا يضحكون كذباً
ولا يرون في العالم
إلّا الحب...
عائماً كسفينة من عطر
نهرها عذاب مقدَّس
وشراعها... لوعة تبثّ قصائد
يهدونها مع الورد
لحبيباتهم
هم...
أكثر ثراء بأناقة ملامحهم
ونقاء خطواتهم
إنَّهم لا يكرهون إلّا السواد
والذلّ
وخيانات الروح
يحرثون النهارات بمحراث الصبر ويقطفون البهجة
بمنجل الوهم"[7].

تتميَّز هذه القصيدة بالتعويل على المفارقة وعقد المقارنة التي أراد منها الشاعر أن تكون الثيمة الأساس، معرِّفاً بأصدقائه منذ السطر الأول بأنَّهم الفقراء ليعلن بفخر أنَّه ينتمي إلى هذا الفقر الذي يُميِّز الطيبين من هذا البلد المنكوب الذي يعيش فيه الفقراء بهذا العوز مع الصمت على هذه البلوى من الفوارق الطبقية التي حكمت الوطن المبتلى بقوانين وتشريعات وشخصيات غير عادلة، صنعت الفوارق بين فئات المجتمع فكان الظلم الذي كتب عنه الشاعر هنا ممهِّداً بالقول:

(عُشَّاق.. / حالمون/ يطيرون بأجنحة الغناء/ فراشات بين زهور المعنى/ هم.../ أكثر ثراء/ من تُجَّار السيارات/ ومقاولي الدم).

ليعظِّم من شأن الفقراء بعدّهم من الحالمين الباحثين عن المعنى، وهو بذلك يمنحهم خصوصية المعرفة أو خصوصية الثقافة التي باتت قرينة العوز والفقر في بلاد يعيش فيها تُجَّار الدم والمقاولون في رخاء يسخر منه الشاعر الذي يستمر ويتواصل في ذكر خصال رفاقه وصفاتهم من الفقراء المعوزين:

(أصدقائي الفقراء/ لا يضحكون كذباً/ ولا يرون، في العالم/ إلّا الحب.../ عائماً كسفينة من عطر/ نهرها عذاب مقدس/ وشراعها... لوعة تبثّ قصائد/ يهدونها مع الورد/ لحبيباتهم).

فهم الصادقون والشاعريون والمغرمون بقول الحق، وهو بذلك يستبطن الصفات المعاكسة لتجار الحروب من الأثرياء الذين عاثوا بالبلاد فساداً، واستغلوا واقع الفوضى ليملأوا جيوبهم ومصارفهم بالأموال على حساب وضع بائس يعيشه أقرانهم من أبناء الوطن.

يتَّجه الشعر هنا ليكون وثيقة إدانة، محمَّلة بالخطاب المباشر، لهذه الفئة من الذين صنعوا أمجادهم على حساب الفقراء، ولأنَّ الشاعر أتقن لعبة المفارقة في لغته الشعرية فإنَّه أغنى نشيد الشكوى بأفعال مضارعة حملت صيغة الجمع لتؤكِّد ذلك الإعجاب المعلن برفاقه المحبين والشعراء والفنانين الذين يذوقون العذاب اليومي لكنَّهم ما زالوا منصتين إلى لغة الحب، وهم يتقنون

ويستلذون بشاعريتهم، إذ إنَّ فقرهم زادهم ثراءا وزادهم حُبَّاً لبلادهم. وهي مفارقة ذكية جعلت من هذه القصيدة تحمل خصوصية التفرُّد في الرومانسية التي لم تفارق أجواء مقاطع تمجد الفقراء لكنَّها تدين الفقر، تمجِّد روح التحدِّي والصبر وتدين الأثرياء الذين استثمروا الفوضى وتجاهلوا فكرة العدالة التي ركِّزت عليها القصيدة.

وحفل هذا الخطاب الذي استند على معطيات واقعية متمثلة بجزع شعبي من استمرار مسلسل الاذلال الذي يمارسه النفوذ المالي على شريحة الكادحين , حفل بلغة كاشفة واضحة تلتقط شفرات الادانة المعبئة بالهم اليومي من خلال مجسات الشاعر الانسانية ذات الصبغة الثورية التي تخرجه من تهمة النخبوية نحو الفضاء الجماهيري بتكثيف صور التقزيم لمنجزات الدولة المحنطة بغاياتها التقاسمية التي امست ترنيمة سخرية يرددها الشارع لتنتقل تلقائيا الى اهتمام الشعراء الذين برع بعضهم بتبني افكار لا تكتفي بالإدانة المعتادة نحو تحريض المتلقي على اعادة قراءة الذات وتمكينه من مستنقع السكينة والذبول الى رحابة وفضاء الثورة المتاحة، التي يمهد لها الشعر الملتزم بقضايا المجتمع والذي خرج من اتون الحروب التي خاضها المترفون والمتنفذون بصحبة السياسيين ممن كانوا الدرع الواقي والحماية الصريحة لعروش وقصور العابثين بفقراء البلاد المتخمة بالخيبة وغياب العدالة، فكانت مفردات اغلب القصائد ممزوجة بالأنين والصراخ والهستيري من تعاظم الفوارق الطبقية، في حين اكتفت قصائد اخرى بالتلميح او اخفاء الغاية المثلى في التصدي الى فكرة الطبقية نحو رفع شأن التصوف او الزهد واحاطة الموضوع بالضبابية وبالغموض دون ان تغادر هدف تأثيم الماسكين بزمام الامور من رجال الدولة ومعهم اصحاب رؤوس الاموال المتلازمين في صفقات فساد مهدت لقوانين وتشريعات ضامنة لديمومة الهيمنة المتواصلة لبرمجة تعاظم مواردهم على حساب الفقراء والمعوزين في وطن مرهون لسلطة ارباحهم ومكاسبهم الفئوية.

---

*وكيل وزارة الثقافة والسياحة والآثار- العراق

الهوامش

1- فراس البياتي، التحُول الديمقراطي في العراق بعد 9 نيسان 2003، بيروت، دار العارف للمطبوعات، 2013، ص30.
2- رعد زامل، الأعمال الشعرية 1999 – 2019، سطور للتوزيع والنشر، بغداد، 2020، ص102.
3- فارس كمال نظمي (تحرير)، الرثاثة في العراق: اطلال دولة.. رماد مجتمع، بغداد، دار ميزوبيتوميا، 2015، ص19.
4- احمد عبد الحسين، دليل على بهتان العالم، ديوان شعر، ايطاليا، منشورات المتوسط، 2016، ص7 – 8.
5- حسن كريم عاتي، الرمز في الخطاب الادبي، بغداد، الروسم للصحافة والنشر والتوزيع 2015، ص8.
6- حسن ناظم، شعرية العابث، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر، 2019، ص170
7- منذر عبد الحر، مطر صاعد الى السماء، بغداد، منشورات احمد المالكي، 2020، ص9 – 10.

التخّيل عند سارتر

آرليت الكائيم- سارتر*
ترجمة :كامل عويد العامري**

كان سارتر مدرسًا شابًا في مدرسة ليسيه دو هافر عندما بدأ في كتابة عمل عن الخيال[1] عام 1934. كان يعد طلابه للبكالوريا. في ذلك الوقت، ولفترة طويلة بعد ذلك، تعرّف طلاب المدارس الثانوية الفرنسية على مجالات الفلسفة الكلاسيكية الأربعة: (علم النفس العام)، الذي أطلق عليه لاحقًا (علم النفس النظري)، والميتافيزيقا، والأخلاق، والمنطق. كان الخيال أحد الموضوعات النفسية التي عرضها سارتر لطلابه، جنبًا إلى جنب مع الإدراك والذاكرة وترابط الأفكار والانتباه والعواطف وما إلى ذلك. كان علم النفس يُعرف بوصفه «علم الحقائق النفسية الإيجابي وقوانينه» واستبعد صراحة «أي وجهة نظر عملية أو جمالية فورية، وأي اهتمام وجودي أو معياري»[2]. كتاب الخيال L›imagination، عمل صغير صدر في عام 1936[3]، اما كتاب المتخيل L'imaginaire، فقد نُشر بعد أربع سنوات. وكان من الممكن أن يكون أطروحة المؤلف للدكتوراه[4]، وهما بالكاد يبتعدان عن أهداف علم النفس المحددة بهذه الطريقة. على الأقل من الناحية الشكلية، إلا في استنتاجات هذه الكتاب الأخير.

لكن القارئ سيدرك بسرعة أن الحقائق، كما يفهمها سارتر هنا، وبالتالي القوانين، لن يكون لها المعنى نفسه كما في كتيب علم النفس الشكلي.

منذ البداية، يُظهر كتاب التخيل قرار سارتر بإدارة ظهره للنظريات التي تعلمها، وبالتالي كان عليه أن يغرسها في تلاميذه. لقد كان يعرف عن ظهر قلب الحجج الخاصة بهذه النظريات بناءً على حقائق معينة وعلى الاعتراضات على هذه الحجج بناءً على حقائق أخرى، والتي حددتها النظريات المنافسة بشكل أو بآخر: النزعة الحسية لدى كوندياك والتي بموجبها يمكن إنتاج كل ملكات الإنسان عن طريق تجميع الأحاسيس الأولية والنظريات النقابية، بدءا بـ هيوم، وستيوارت ميل، وتاين، وما إلى ذلك، وجميع الفروق الدقيقة التي تميزهم في طرق تصورهم للعلاقة بين الانطباعات الحسية وحالات الوعي وكذلك في طرق تصورهم للقوانين التي تحكم هذه

النظريات العقلانية التي تتحدى النزعة النقابية ولكن من وجهة نظر سارتر تحتفظ بروحها... في الواقع، يمكننا أن نرى بوضوح، عن طريق قراءة هذا الكتيب المدرسي العظيم في ذلك الوقت أو حتى الأطروحات النفسية المفصلة مثل كتاب جورج دوما[5]، والذي كان يعد مرجعا، كم كان مؤلفوها وهم يقبلون ولو جزئياً النظريات الارتباطية من دون التساؤل عن طبيعة الروابط، يجدون صعوبة في دحض آلية الحقائق النفسية التي تسير جنبا إلى جنب مع هذه النظرية بشكل فعال، على الرغم من أنهم يتوقون إلى الكشف عن نشاط الوعي التركيبي.

كتب الشاب سارتر بصراحة في دفتر ملاحظاته: «ينبغي على كل إنسان بعد ولادته، أن يبذل جهدًا جديدًا ومنفردا من أجل فهم العالم». لقد احتفظ بالطموح لبناء فلسفة جديدة وملموسة، وهو ينوي أن يبدأ هنا بالمادة الملموسة[6]. هذا لا يعني أنه، في استكشافه للحياة المتخيلية، سيعطي الأولوية للمادة، وحتى للمادة التي يدرسها العلم بدرجة أقل. فهو مقتنع، على سبيل المثال، بأن «التوطين الدماغي»، مهما كان التقدم الدقيق والمعقد للأدوات التقنية يسمح لنا بتحديدها، لن يكون قادرا على تفسير أي شيء سوى الشروط اللازمة لوجود الوظائف النفسية، التي لا يمكنها أبدا تقديم وصف لحقيقة أنني ضمير يدرك ويتذكر ويتخيل ويتطلع إلى المستقبل.

يجدر بنا أن نتذكر أن فيلسوفا آخر قد بدأ، قبل أربعين عاما، دراسة الحياة النفسية من خلال استدعاء الخبرة الملموسة والحدس. ونعني بذلك هنري برجسون (1859 - 1941) الذي منح سارتر من خلال كتابه «دراسة حول معطيات الوعي المباشرة « (1889) ذوقا للفلسفة. على الرغم من أنه نشر أول كتبه المهمة، بما في ذلك «المادة والذاكرة» (1897)، في نهاية القرن التاسع عشر، إلا أن أصالة فلسفته كانت لا تزال محسوسة تمامًا في فرنسا في الثلاثينيات، سواء بين علماء النفس أو بين علماء الميتافيزيقيا. في دليل كفيليه Cuvillier، طبعة عام 1935، كانت مفاهيمه تؤخذ في الاعتبار على أنها متناقضة تناقضا حادا مع النظريات السابقة، ولكن مع العديد من التحفظات، كان سارتر يستشهد بها باستحسان في كتابه

«كتابات الشباب Ecrits de jeunesse».

وإذا ما استحضرناها هنا، فذلك لأن مؤلف «الغثيان» غالبًا ما يضع في «الذهن» البرغسونية وهو يكتب «التخيل»، إما لدحضها، أو للاعتماد على أحد مفاهيمها، مثل مفهوم «المدة في الحياة النفسية». من المستحيل، في إطار هذه المقدمة، إعطاء فكرة، حتى وإن كانت غامضة، عن جميع نظريات برغسون التي يتشابك فيها علم النفس والميتافيزيقيا: نحن نرسم فقط الإطار الفكري الذي كتب فيه سارتر هذا العمل. يكفي إننا راضون عن الإشارة إلى إن مؤلف كتاب «المادة والذاكرة» كان ينوي دحض النزعة النقابية، مثل سارتر، يؤكد بأن الصورة الذهنية ليست إدراكًا ضعيفًا، أو إحياء تلقائيا إلى حد ما، ولكنها تختلف عن الإدراك بطبيعتها، وعلى نحو أعم، إن المسألة الميتافيزيقية المتعلقة بالحرية الإنسانية، ومسألة الوعي ترتبطان ارتباطا وثيقا. يقدم سارتر في كتابه (التخيل Imagination) تحليلاً مفصلاً للتناقضات التي يراها في الموقف حول موضوعات الفيلسوف «الحيوي» هذه، الذي «يستحضر تطور الحياة، من أصولها إلى

الإنسان، صورة لتيار الوعي الذي من شأنه أن يرتبط في المادة كما لو كان يشق فيها ممرا تحت الأرض».

ومع ذلك، فإن الواقع الملموس الذي يبحث عنه سارتر بعيد كل البعد عن الحدس البرغسوني، الذي يعده ذاتيًا للغاية - فضلا عن ذلك، سيقود الفيلسوف إلى فكرة خيالية كونية أقل فأقل إثارة للجدل، غريبة عن اهتمامات سارتر. وبما هو «ملموس» تفهم نقاط الدعم التي ستسمح لمعطيات التجربة أن يكون لها معنى. إن الملموس الذي لا يرقى له الشك بالنسبة له هو المنطق الأساسي لفلسفة ديكارت. «أنا أفكر إذن أنا موجود»، وهو التأكيد على أن الوعي التأملي ممكن وأنه نقطة انطلاق صلبة للبحث عن حقائق أخرى: بالنسبة إلى ديكارت، إذا كان بإمكاني أن أكون مخطئًا بشأن وجود العالم ذاته طالما لم أثبت أن هناك إلها يضمن وجوده، فيمكنني على الأقل أن أكون متأكدا من أنني موجود، كما أفكر، الشيء نفسه بالنسبة لسارتر «لا يمكن أن يخطئ الإنسان الذي يعي، بفعل التأمل، أن لديه صورة». لذلك يجب عليه في البداية أن يستكشف كل ما يمكن أن يكشفه الوعي التأملي عن الخصائص المحددة لصورتي، وما يحدث لي عندما تكون لدي صورة.

لكن لماذا يحمل كتاب (التخيل) عنوانًا فرعيًا «علم نفس الخيال الظاهراتي»؟ دعونا أولاً نشير إلى الأصل اليوناني: فـ «ظاهرة»: هي ما تتجلى، وما تظهر بوضوح، وبالتالي هي قابلة للوصف، لتقود، كما يقول ديكارت، إلى «أفكار واضحة ومتميزة». هناك حقيقة في المظهر، وهذا ما اقتنع به سارتر عندما قرأ هوسرل (1859-1938). في عام 1933، فبدأ بدراسة الفيلسوف الألماني - الذي لا يزال معروفًا في فرنسا – وذلك بقراءة العمل الذي صدر لاحقًا تحت عنوان «أفكار إرشادية لفلسفة ظاهراتية «[7]. استمرت هذه الدراسة بلا شك أثناء كتابته «التخيل». وفي فبراير عام 1940[8]، كتب سارتر: «بالنسبة لي، إن استنفاد الفيلسوف هو التأمل في وجهات نظره، وخلق أفكاري الخاصة على حسابها حتى أغوص في طريق مسدود. استغرق الأمر مني أربع سنوات لاستنفاد هوسرل».[9] إن مقاربة الفيلسوف، التي تحظى باهتمام سارتر في المقام الأول - والتي بدت له على ما يبدو أساسًا جذريًا، مثل تعليق الحكم لدى ديكارت، الذي يسمح للكوجيتو- هي «وضع الوضع الطبيعي للعالم بين قوسين».

كتب الفيلسوف بول ريكور، الذي ترجم للفرنسية أفكار هوسرل التوجيهية للظواهر، في مقدمته تعليقًا يعبِّر عن شيء مشابه لما أدركه سارتر: «أنا في البدء ضائع ومنسي في العالم، ضائع بين الأشياء، ضائع بين الأفكار، ضائع بين النباتات والوحوش، ضائع من بين أمور أخرى... نحن نفهم إن المذهب الطبيعي على أنه أدنى درجة من الوضع الطبيعي ومثله مثل المستوى الذي أفضت إليه تداعياته: لأنني إذا ضعت في العالم، فأنا مستعد لمعاملة نفسي كشيء من العالم»[10].

إن التعامل مع الوعي «كشيء في العالم» هو ما يفعله علم النفس المعاصر بشكل أو بآخر. لكن إذا «وضعنا» بين قوسين، الأسئلة المثيرة للجدل المتعلقة بالعلاقة بين الوعي والمعطيات الحسية - ما يسميه سارتر «مادة» الصورة - فما يتبقى، كما قال هوسرل، هو أن «كل وعي هو وعي بشيء ما». بعيدا عن كونه أمرا مفروغا منه، فإن هذا التأكيد يعني أن كل وعي له بنية مقصودة، هذا يعني أنه

في الإدراك، والتصور الذهني، والفكر، فإن الوعي، بعيدًا عن كونه وعاءً، يستهدف شيئًا خارج ذاته. يُعرض على علم النفس منظورًا جديدًا: للتمييز بين أنماط القصدية وفقًا للحالات التي يعمل فيها الوعي - لأن الوعي هو فعل - ومعالجة المعطيات الحسية والمعرفة في ما يتعلق بالقصدية. وهذا ما سيركز عليه سارتر، من منظور «وعي متخيل»، في الجزءين الأولين من كتابه.

في الجزء الأول من (التخيل)، بعنوان « الأكيد»، يوجز وصفا ظاهراتيا للصورة الذهنية. والهدف من ذلك هو تقديم جرد وتوضيح، بناءً على تجربته الخاصة، لكل ما يمكن أن يكشفه التأمل الفوري عن حقيقة (أو بالأحرى، الحدث) من وجود صورة. وموقف هيوم من هذا الموضوع يخدمه كمثال معاكس لـ «الموقف الطبيعي» الذي دعاه هوسرل إلى التخلي عنه، هذا لا يعني أنه سيرفض ما كتبه الآخرون عن الصورة، أو التجارب التي أجريت قبله، ولا أنه سيتخلى نهائياً عن فرض الفرضيات، لكنه يترك معرفته الفلسفية معلقة مؤقتًا.

لكن مجال الخيال واسع. لا يقتصر الأمر على الصورة الذهنية، والاستحضار الذاتي لشيء غائب، وهو أصعب شكل من أشكال الخيال الذي يمكن وصفه، خاصة وأنه يحدث من دون دعم حسي واضح. ويبدو أنه من الضروري لسارتر أن يأخذ منعطفًا عن طريق أمثلة أخرى لـ «عائلة الصورة»، والتي يمكن وصفها بسهولة أكبر نظرًا لوجود مادتها المعقولة. لذلك سوف يتساءل عن دور الوعي المتخيل عند التعامل مع الصور الجانبية، والرسوم الكاريكاتورية، والتقليد، والرسومات التخطيطية، وما إلى ذلك، وسيحاول أن يميز، في كل حالة، بأية أدوات، بين الوعي الحقيقي (المدرك) والوعي غير الواقعي، سيستهدف موضوعه.

بالعودة إلى الصورة الذهنية بحد ذاتها، سيقترب سارتر من «الاحتمالية». في محاولته الأولى في وصفه الظاهراتية، كان السؤال الأكثر إلحاحًا هو: ماذا يعني، بالنسبة لي، أن أمتلك صورة؟ إنها الآن مسألة تحديد ماهية الصورة، وإلى ما يهدف إليه الوعي في الواقع، وما يجب أن يكون عليه هيكل الوعي بحيث يمكن تخيله. والحالة هذه، فإن الصورة الذهنية غير قابلة للتأمل تقريبًا: طالما «لدي صورة»، لا يمكنني قول أي شيء عنها دون أن تتلاشى، لأن القصدية تصبح مختلفة، عندما لم تعد موجودة لا أستطيع أن أقدم وصفًا تفصيليًا لها، من ناحية أخرى، عندما أستحضر في الصورة، على سبيل المثال، لصديق غائب أو صوت أغنية، فأنا لا أسترشد بأي انطباع حسي موجود - بصري أو سمعي أو غير ذلك. لدرجة أن الصورة الذهنية بالنسبة لبعض علماء النفس غير موجودة.

بالنسبة لسارتر، هناك بالفعل محتوى معقول، على الرغم من أنه لا يدين بأي شيء للتصور الحالي كما في الحالة التي فيها الوعي يصبح متخيَّلا في مواجهة محاكاة شخصية مشهورة يؤديها فنان، على سبيل المثال. ولدعم فرضيته، لجأ إلى الاستبطان، ليس فقط من تلقاء نفسه، بل وجّه الاستبطان كما كان يمارسه علم النفس التجريبي بصرامة معينة، مثل ما كانت تمارسه مدرسة فورتسبورغ الألمانية، وأعمال الأطباء النفسيين الفرنسيين مثل الدكتور ألفريد بينيه[11]، والعديد غيرهم. سنرى كيف، أنه في هذا الجزء الثاني، يحاول سارتر توضيح الطريقة التي تدخل بها

المعرفة والعاطفة والحركات الداخلية للجسم لتكوين المادة الحساسة للصورة الذهنية، أي التمثيل التناظري لما هو كائن حقيقي لنية التخيل، والذي يمكن أن يدخل فيه الكائن الموجه والنظير في تعارض. وعلى العكس من مفهوم برجسون، على سبيل المثال، والذي بالنسبة اليه «تعمل جميع الصور وتتفاعل مع بعضها البعض في جميع أجزائها الأولية وفقًا لقوانين ثابتة، والتي أسميها قوانين الطبيعة»، مما يشير إلى أن تلقائية المعطيات الحساسة هي آلية. يؤكد سارتر أن موضوع الصورة الذهنية يتحرك بالكامل، تلقائيًا، ليولدها: الفعل الذي يجعل الوعي بواسطته كائنًا غائبًا يمكن مقارنته، في هدفه، بتعويذة وسيط يدعي، عن طريق تركيز طاقته، إنه يستحضر روح ميت. تعد الصورة، وفقًا لمعظم علماء النفس الكلاسيكيين، أثرًا ماديًا، وبالتالي تتأثر بقصور ذاتي معين، بينما بالنسبة لسارتر، كما رأينا، هي نتاج فعل وعي، فإن مفهومه للعلاقة بين الصورة والفكر لا يمكن أن يكون إلاّ مختلفا. لن تكون مسألة التساؤل كيف يمكن أن «تتحد الصور مع بعضها البعض» بحيث يكون هذا الفكر ممكنًا: الصورة الذهنية موجودة بالفعل في جانب الفكر. في الجزء الثالث من عمله، يحلل بمهارة مستويات الفكر المختلفة والآثار المترتبة على الصورة وفقًا لهذه المستويات، بدءًا من الرسم التوضيحي للصورة الذي يمكن أن يشل أو يؤخر جهد التفكير -أو ببساطة يمثل وقفة مؤقتة- إلى أكثر المخططات الرمزية زوالاً والتي تشارك في هذا الجهد مما تجعل من الممكن، «كهارب من الخارج»، صياغة مفهوم.

يُعنى الجزء الرابع أساسًا بلاواقعية المكان والزمان في الحياة الخيالية. وبشكل خاص في الحلم وفي أمراض الصورة، مثل الهلوسة، ويبدو أن الوعي قد اتخذ إن لم يكن عالماً، على الأقل «مناخا عالميا» بمساحته ومدته. كان سارتر قد قرأ كتاب فرويد «تفسير الأحلام»، من دون أن ينتابه القلق بشأن النظريات الكامنة وراء هذا العمل، متبعًا مساره الخاص، ومهتمًا قبل كل شيء بما يمكن أن تقدمه له مادة الاستبطان الغنية التي يمثلها سرد الأحلام، كما قرأ الأوصاف السريرية للفيلسوف والطبيب النفسي بيير جانيه، والسير الذاتية القصيرة للمرضى الذين عالجهم هذا الطبيب لسنوات في بيئة المستشفى[12]. إذا كان سارتر يشكك في مفاهيمه النظرية العامة، إلا أنه يأخذ في الاعتبار ملاحظاته الملموسة، ولا سيما حول خصوصيات إيمان المرضى بهذيانهم وهلوساتهم، والتناقضات بين واقع علاقتهم اليومية الوثيقة في كثير من الأحيان، مع طبيبهم النفسي والعوالم غير الواقعية التي تغرقهم فيها أمراضهم.

ومع ذلك، أربكت الصورة المهلوسة مؤلف (التخيل) لفترة طويلة: هل يمكننا الحديث عن القصدية فيما يتعلق بالهلوسة، على الرغم من أن المريض يبدو أنه يمر بها، ويعاني منها ويخافها؟ ناقش سارتر الأمر مع الطبيب النفسي دانيال لاغاش، الذي كان زميله في «المدرسة نورمال»، والذي كان قد كتب للتو «هلوسات وخطابات لفظية»[13]. ثم قرر أن يجعل من نفسه موضوعًا للتجربة: تحت سيطرة لاغاش، فأعطي حقنة من مادة الميسكالين، وهي مادة مهلوسة، أمينة لتصميمه على البقاء متماسكا عن كثب.

من الواضح أن الاستنتاج المكون من جزءين لـ (التخيل) هو هروب مزدوج بعيدًا عن مجال علم النفس. والثاني، تماشيا مع تأمله

في «التخيل»، يهتم بنشاط الوعي في مواجهة العمل الفني، ذلك الشيء غير الواقعي، ويمكن للمرء أن يفترض أن الأول، «الوعي والخيال»، كتب أخيرًا، متزامنًا على ما يبدو مع قراءته لـ «لوجود والزمن» لهايدغر، التي كانت في نيسان في أبريل 1939[14]. كان بعض علماء النفس المعاصرين لسارتر حريصين على إبراز وحدة علم النفس عن طريق تجزئة مواضيع دراسته. ولمدة أربعين عامًا أو نحو ذلك، كان الكثير مقتنعًا بأنه علم مساوٍ للفيزياء وألقوا بأنفسهم بتهور في جميع أنواع التجارب والاختبارات النفسية والفسيولوجية (قياس عتبات المشاعر، واختبارات الذكاء، وما إلى ذلك). لكن «ما الذي يمكن أن يكون أكثر اختلافًا، على سبيل المثال، عن دراسة الوهم الاضطرابي ودراسة عقدة النقص؟»[15]. بمعنى آخر، ما هو الفهم الشامل للنفسية البشرية وعلاقتها بالعالم الذي يقدمه لنا علم النفس؟ يتضح إن هدفا واحدا لسارتر في نهاية « التخيل» وهو « طرح ... حالة الإنسان كوحدة غير قابلة للتجزئة، كموضوع لتساؤلنا»[16]. فالوجود بلا مادة الذي لم يكن شيئا سوى الخارج من نفسه، والذي يمكنه أن يخلق صورا في غياب الموضوع المعني يصبح الوعي نفيًا للحقيقة. لا شيء، غياب، نفي: سيحكم قارئ الوجود والعدم بسهولة على أن دراسة الخيال كانت مرحلة مهمة في إعداد هذه الدراما الأنطولوجية بين وعيك (أو الوجود لذاته)، والعدم الذي يولده والوجود في ذاته.

---

*Arlette Elkaïm-Sartre مترجمة وصحفية فرنسية (1935-2016) قام سارتر بتبنيها عام 1964.

** كاتب ومترجم عراقي، له ترجمات عديدة صادرة في بيروت ودمشق

الهوامش

1- أثار الموضوع اهتمامه مذ كان طالبًا: فقد اختار لقب دبلوم الدراسات العليا عام 1927، «الصورة في الحياة النفسية».
2- أرمان كوفيلييه، دليل الفلسفة، المجلد الأول، 1935، Librairie A. Colin.
3- تقويم نقدي لنظريات الصورة منذ ديكارت. انظر أيضًا النقد الأكثر شمولاً لموضوعات علم النفس التقليدي في مقدمة كتاب «موجز لنظرية العواطف»، (مدخل)، 1939، Hermann.
4- قررت الظروف خلاف ذلك. انظر يوميات الحرب: دفاتر الملاحظات عن حرب زائفة سبتمبر 1939 – مارس 1940، غاليمارد، 1995.
5- انظر جورج دوما، رسالة جديدة في علم النفس (1932 .P.U.F).
6- لا شك أنه كان حذرا من ميله إلى البنى التجريدية التي عاتبه أصدقاؤه عليها. راجع كتاب (قوة العمر) لـ سيمون دي بوفوار، 1960، Gallimard.
7- غاليمارد، 19
8- راجع دفاتر الحرب الزائفة، مرجع سابق.
9- عاتب العديد من أتباع هوسرل سارتر على «امتلاك أفكار على حساب هوسرل»، وحتى لتشويه فكر الفيلسوف. يخصص سارتر في كتابه (الخيال) بضع صفحات لرسم ما استوعبه من هذه الفلسفة، وما كان ينوي استعارته.
10- هذا ما نحن نشير إليه.
11- كتاب بينيه مع جي إم شاركو، المعروف بتأثيره على فرويد الشاب.
12- من جيل فرويد نفسه، كان بيير جانيه، الذي اشتبه في دور الجنس في مسببات العصاب، في ذلك الوقت منافسًا لأب التحليل النفسي: انظر، على سبيل المثال، (الآلية النفسية، 1889) و(من العذاب إلى النشوة، 1926).
13- Paris: Alcan, 1934.
14- راجع دفاتر الحرب الزائفة، مرجع سابق.
15- سارتر، تخطيط لنظرية الانفعالات (مقدمة)، 1939.
16- راجع دفاتر الحرب الزائفة، مرجع سابق

أقلام قصصية نسوية

لأن المرأة.. هي الغصن الدائم الحضور في حياتنا، ولان هذا الاحتفاء بوجودها لا يكون بمساواتها مع الرجل حسب، وإنما بتعزيز هذه المساواة وإيلائها الاهتمام.. إنسانة ومبدعة، فقد أثرنا ان نقدم هذا الملف الخاص بنصوص قصصية كتبت من قبل عناصر نسوية عراقية وعربية على ان نتواصل مع المرأة في كتابات دائمة.

وقد وضعنا القصص الخمس أمام بصيرة الناقد علي الفواز لتقديم قراءة نقدية لها وذلك استكمالا وتوافقا مع اهتمامنا بالأدب والثقافة النسوية عموما.

محرر أدب وفن

تعاسات من ورق

ايمان المحمداوي

لا أدري لماذا حين أقف عاجزة أمام تربصات الواقع بذاتي، لا أملك سوى الهروب نحو المتخيّل، ولا سيما علاقتي مع شخوص روايتي، فمعهم أكون أفضل حالا من السهر قرب أغنية متألمة أو قرب هاتف لا يرن أو قرب شاشة تلمع كقنديل خافت لا ينقل لنا سوى دمعة محترقة. ربما لو وجدت ما يسكّن كل هذا القلق العاصف بذاتي لنمت بهدوء.

قررت الاتصال بأحلام وإخبارها بأني سأجترح لها شرخا جديدا في مسيرة عشقها، وأروي التفاصيل الصغيرة التي تتعلق بذلك الشرخ في قصة جديدة. وأخذ التفكير مني زمنا قصيرا؛ لأني أعرف كل تفاصيل حياتها، ومن أين أبدأ معها فاتصلت بأحلام وأخبرتها بما يجول في رأسي. لكنها انتفضت، واتهمتني بأني أحسدها على سعادتها، وأسعى جاهدة لخراب بيتها، وتكلمت كثيرا وأنا أخضع للسكوت بمضض تحت ضغط ثرثرتها، ولكن بعد أن استفزتني ذكّرتها بأنها ليست سوى شخصية من ورق، صنعتها بنفسي وكل من شاركها حكايتها في رواية (امرأة في عيون نزقة)، ولكن لم تقتنع، وقالت بعصبية:

أنت لست بأفضل حال مني، كلانا شخصيتان من ورق في الرواية التي عشنا أغلب أحداثها سوية.

أنا الآن لست صديقتك على وسائل التواصل الاجتماعي، ولا علاقة لي مع شخصية (إيمان) في الرواية إلا تشابه الأسماء لا أكثر، أنا (إيمان) المؤلفة التي تسعى لصنع فضاء قصصي يتعالق مع فضاء الرواية التي كنت أنت شخصية فاعلة فيها. وكي لا أفسح مجالا للسارد العليم أو المشارك سأكون أنا الساردة التي أعلم كل شيء.

وعلى الرغم من الاندهاش الذي أصابها عندما سمعت كلامي، بادرتني بتساؤل لا يخلو من اللوم والعتب:

وما ذنبنا نعيش المآسي، ونقع تحت تأثير رؤاك دائما؟ هل نتحمل كل هذا العناء من أجل إمتاع القارئ؟

حاولت أحلام التملص من ضغط إيمان، لكنها لم تفلح، ورضخت للطلب في نهاية النقاش، لا سيما بعدما أن أيقنت أنّ لها دورا مهما في

كتابة يومياتها بضمير المتكلم، وكيف كانت تمارس أنوثتها بين يدي خالد، في أمسياتها الواعدة بالحب، يظللها الحلم الأبدي.
شرعت أحلام بكتابة يومياتها، ولكن الكلمات ما زالت مرهقة في تدوين ما عاشته وتعيشه الآن، فهي لا تجد ما يوصلها إلى أمنياتها المنشودة، ويبدو أن أحلام كغيرها من بني البشر ما تعودت البوح بأسرار السعادة ورغباتها المفضوحة، فكلما تعمّق القلم في أفق الطمأنينة نالته عتمة الارتباك، فتبوء محاولتها الكتابة بالفشل، وهكذا ظلت أحلام تسعى إلى تدوين الحب المترف بالشوق، لكنها لم تجمع سوى أوراق ممزقة. جمعت أحلام تلك الأوراق بعد أن دب اليأس في إمكانية رسم لحظات فرح يزهو في فضائها.
وأخذت تبحث عن سلة المهملات فرأت خالد جالسا فداهمتها التساؤلات التي لا إجابة لها وهي تتذكر ماضيها مع خالد وهو يبدد رتابة أوقاتها بابتسامته التي تجعل الأمل مشرقا أمامها، الأمل الذي ينبعث معه من جديد، وتتذكر كيف كانت تدّس رأسها تحت وسادتها علّها تغفو على حلم لا تصحو منه.
كان خالد منهمكا في كتابة مرافعته لجلسة الغد، لا يدرك ما يجول من حوله، والهمسات تتسابق في قلب أحلام وهي تنظر إليه "حتى الكلمات لا تجسد توصيفك، ملكت كياني بنبل أخلاقكَ واتزانك، جرى دمك في عروقي حتى دان له قلبي بالنبض، تتسرب في عروقي ومساماتي ورغباتي"، رفع بصره نحوها متسائلا عن سبب شرودها:
لم أجد سلة المهملات في مكانها.
قالتها وكأنها تهرب من فوضى المشاعر، فأشار إلى تحت الطاولة التي أمامه:
هنا.. كنت أرمي بعض القصاصات فيها.
حين اقتربت منه، جذبه سحر شفتيها، فقبلها، همست توشوشه: " يبدو أننا لن نتغير أبداً يا خالد". سحبت السلة من تحت الطاولة، فتناثرت تلك الأوراق الممزقة من يدها، فسألها:
ما كل تلك الأوراق حبيبتي؟
أحاول كتابة قصة جديدة طلبتها مني إيمان، لكني لم أحسن كتابة مساءاتنا المؤثثة بعشقنا الأبدي، فلتلك المساءات لغة لا يجيدها سوى إغواء حدقتيك.
اكتبي عن تلك المساءات وسحرها.
مشكلتي، أنني لا أملك أية قدرة على كتابة السعادات مثلما أكتب الأوجاع وأفصّل فيها.
ابتسم بخبث وغمز لها قائلا:
إذن، عليّ القيام بما يعيد لك تلك الأوجاع.
كيف؟
أخونك مرة أخرى.
ماذا!!؟
ضحك بقهقهة عالية، وسحبها إليه وهي تلكمه وكلما لكمته علت ضحكاته اكثر، ثم زمت شفتيها بقوة لتقول بعدها وهي تلوح بأصبعها:
إيّاك إيّاك.. لن احتمل ذلك ثانية.
هذه المرة ستكون بعلمك وليوم واحد فقط، كي أوفر لك مسوغات تساعدك على الكتابة، وستكون مع المرأة نفسها وأمام عينيك في كل تفاصيلها.
الحقيرة نفسها؟
أحبكِ أكبر من الحبّ، أحبكِ طويلا، كثيرا، وأبداً... ولن أتوقف عن حبكِ، هي لن تكون سوى أكذوبة من أجل الكتابة.
اسكت وإلا قتلتك ونفسي.
ضحك ورجع إلى كتابته بعد أن تمتم مع نفسه بصوت مسموع:

أنتِ حرة، فقط أحببت أن أساعدكِ.
سأعتذر من إيمان وانتهى الأمر.
***
بعد يومين اتصلت بها أسألها عن القصة وأين وصلت بها، فأخبرتني بما حدث، واعتذرت مني. ولكن راقت لي فكرة خالد وما سيؤول عنه من أحاديث كثيرة مع النفس، طمأنتها في خوض التجربة، مع ثقتها بحب خالد لها، واطلاعها على كل التفاصيل، فضلا عن قدرتها لمتابعة جميع مواقع التواصل الخاصة به، فما عاد يخفي عنها رموزها السرية، كما حفزها أكثر لخوض التجربة بإثارة رغبتها بإذلال تلك المرأة، حين تعلم أنها عاشت أكذوبة للمرة الثانية.
عاشت أحلام يومين عسيرين بين الرغبة والرهبة، حتى قررت أن تفاتح خالد بالموضوع، دهش خالد كثيرا من طلبها، فهي لم تكن سوى مزحة منه لاستفزاز غيرتها، ولم يتوقع منها الموافقة كما أخبرها، لكنها أصرت عليه، ليس حبا في الكتابة فقط، لكنه ثأرا من ساهرة تلك التي عيّشتها أسوأ أيام حياتها، ولتمعن في إذلالها مرة أخرى، شرط أن يتوقف عن إكمال اللعبة قبل التوغل معها في الممنوع.
تساءل خالد حائراً، إن كانت ستتواصل معه ساهرة بعد كل تلك الإهانات والذل الذي عاشته وهي تتوسل منه الرجوع إليها، فضلا عن مضيّ وقت طويل على انفصالهما، وربما هي الآن مرتبطة بشخص آخر، لكن أحلام أكدت له أنها امرأة رخيصة، لا كرامة لها، وسترجع مع أول إشارة منه، حتى وان ارتبطت بآخرين من بعده.
أخذت أحلام هاتف خالد ورفعت الحظر عنها من الماسنجر، وأرسلت لها رسالة بكلمتين ''اشتقت إليك''، انتظر الاثنان وهما يراقبان الشاشة، الرسالة وصلت لكنها لم تفتح، وبعد مرور ساعة أو أكثر بقليل ولم يأت الرد منها، ضحك خالد:
قلت لك لا يمكن أن ترد بعد كل ذلك الهجر والرسالة المهينة التي وصلتها منك، أتذكرينها في رواية (امرأة في عيون نزقة)؟ عساها لم ولن ترد، ما الضير في ذلك؟ ولم أنتَ منفعل هكذا؟
نهض من مكانه وذهب حيث تقف عند باب الصالة تحمل مغرفة الطعام، قبلها قائلا:
أحبكِ أنتِ فقط.
انشرح وجهها، قبلته وغادرت نحو المطبخ، رجع إلى كتابته وما هي إلا دقائق معدودة حتى جاءه اشعار الماسنجر، فتح الجوال تاركا ما بيده ليرى رسالتها:
عندما تداعب حروفك شاشتي، يتهشّم القلق وينجلي هبوب الظلام تغادر الغربة بوابتي، مع عناق هذه السعادة، اسمع صهيل الشوق، وهو يطرق بوابة الأمل، ينتظر لحظة هطول المطر. وراء تلك النافذة إشراقة جديدة والأرض تتوقف عن الدوران مع ارتعاش القلوب، وراء تلك النافذة شيء ما: لي ولكَ ولها. يرتسم كلّه بلون أخضر، يصير يدا تلامس أيادي العاشقين، لتخبرنا بإحساس دافئ بالوجود، وتأخذنا مع الريح ننطلق معها كالسهم، ما الحياة بلا مشاعر؟!
صرخ حينها صرخة المنتصر وهو ينادي أحلام ويخبرها بأن ساهرة ردت عليه، تساءلت أحلام عن ردها، فأخبرها بأنها تغازله، فطلبت منه ألا يرد ريثما تطفئ الموقد بعد لحظات وتأتي لترى ما يحصل بينهما، لكن شيئا داخله جعله يرد عليها برسالة تعمد اشعالها ليوقعها ولطالما أوقع

الفتيات بكلامه المعسول:
اشتقت كثيرا لأماسينا الرائعة، وحكاياتنا الحلوة.
ردت عليه برسالة تطلب منه الاتصال المرئي بالواتساب لأنها تشتاق إليه، اتصل لثوان، فرأى قامتها الممشوقة وهي تعرّي جزءا منها لإغرائه، لكنه أغلق النافذة الخضراء فوراً، وأرسل لها رسالة يخبرها أنه محاصر من زوجته، ولا يستطيع التواصل بغير الكتابة، فأرسلت له:
منذ اللحظات الأولى لانبثاق حروفك، وأنا أنتظرك بشوق عارم، أنصت لشدو طائر فارق موطنه، أمنّي نفسي بأن تفتح النافذة وتتأملني، تعانقني، وتذوب في مملكتي.
أحس بنشوة تدب في روحه، فلم يتوان عن الكتابة إليها:
حبيبتي الأغلى كم أشتاق لكلماتك الساحرة، تدبُّ بي كَارتعاش خافق للحياة في الجذور المَيّتة، ولا أعلم كيف صبرت كل ذلك الوقت بعيدا عنك؟!

***

كانت أحلام منشغلة جدا في تحضير العشاء ولا يمكنها ترك الموقد، لكنها أطلت للحظات على خالد تخبره أن يصبر عليها لعشر دقائق وستكون معه.
حين علم خالد أن أحلام متورطة مع نار الموقد، قرر أن يتورط هو بتلك اللحظات مع ساهرة، وما أرَقّها! تثيرُ فيه عواطف وذكريات قديمة، تعصف بروحه عَصفاً ، فيلجأ إلى الصور المعلقة في الذاكرة، فتح معها اتصال مرئي، وبين نشوة ولذة نسي وجود أحلام، حتى أتت لحظة انغماسه في المكالمة، فلم يشعر بوجود أحلام، وهي تأتي بهدوء من خلفه وتنظر إلى الشاشة حتى انتبهت ساهرة لوجود أحلام عبر الكاميرا تقف خلف خالد، فأغلقت ساهرة الاتصال، حينها فقط انتبه خالد لوجود أحلام، حاول التبرير لها بأنها مجرد اكذوبة، هو لم يخرق الاتفاق ولم يحصل شيئا بينهما، وأحلام لا ترد عليه، حاول تقبيلها، دفعته ودخلت غرفة النوم وأغلقت على نفسها، طرق الباب، وراح يناديها ولم تجب عليه أبدا، توسلها كثيرا ولكن من دون جدوى، لم يعلم ما يفعل، قلق كثيرا عليها، خشي أن يحدث لها مكروه، لعن ساهرة ولعن نفسه، صرخ بها يلومها لأنها ورطته معها، لكنها لم ترد، قضى ليله ممددا على عتبة بابها يرجوها أن تخبره أنها بخير ليطمئن فقط، وحين هددها، بأنه سيكسر الباب ردت عليه ترجوه أن يتركها حتى الصباح. تمدد على مضض من دون أن يغمضَ له جفن، يتقلب من جنب إلى جنب متوسداً الآلام والذكريات.
مِن اللحظات الأولى لساعات أوَّل الليل، انتشر ذلك الإستيحاش الرهيب والصمت، فلا يكاد يسمعُ لَـهما شيئاً سوى انفاسهما المتصاعدة، زفير التوجع والأنين المكلوم، توسدا أرض الوهاد وناما في ذلك العمق من الضيق، خائفين مستوحشين مع خُطى الليل الوئيدة كَنَفَثٍ مِن ضَباب أو سَراب.
ما بَعد منتصف الليل سمع خالد أصواتَ استغاثة بوضوح متنام، لَه وقع في الروح، لا يمكن لأحد التوغّل في أعماقه وإدراك كنهه، استيقظ مفزوعاً، طرق الباب ولكن لا رد، لم يجد بدا من كسره، وجدها ملقاة على الأرض تنفسها ضعيف، حملها للمشفى بسيارته وقضى ليله في الانتظار، قُبيلَ إطلالة الفجر، في الغبش الضبابي، فكّر وطال التفكير، ما الذي أوصله إلى هنا، كأنَّ لساهرة سحرا

يشدُّه إليها شدّا بعد أن تركها كل ذلك الزمن، في حلقه غصّة يابسة، كيف لها أن تربكه؟ لقد قتلت تلك اللعينة البسمة فما عاد لها مكاناً في تجعدات زوايا شفاههما وأعينهما.

في الصباح استقرت حالة أحلام وسمح لها الطبيب بالمغادرة، لكن صمتها لم ينكسر، ليس هناك سوى أصوات في داخلها، أصوات ذات لكنة مغمغمة، تولول في نبرات هي أقرب إلى النحيب منها إلى الكلام. قضى الاثنان فترة مشحونة بالانفعالات والأسى عندما أخذت النار تسري في قلبيهما. اتصل بي خالد ليخبرني بما جرى ويطلب مساعدتي بإقناع أحلام بأن ما يدور في عقلها مجرد خزعبلات، وليس هناك حبا يسمو فوق حبها، وما كانت هذه الأحداث إلا أكذوبة اتفقا عليها.

إلا أنني حين سمعت ما فعل خالد بعد كل ذلك الحب، شعرت بتساقط جثث الحروف المشوهة، ضاعت مني في هذا المدّ الشاسع ترتدي لون التراب الرمادي، بينما كان صوت خالد يفتقر إلى التوازن والتدبير السليم، يتحدث بلوعة مريرة، متوجساً على نحو غريزي أن نهايته المحتمة تنتظره في كل خطوة يخطوها نحو أحلام، لذا طلبت منه إمهالها بعض الوقت.

***

أقترب خالد من أحلام وهي مستلقية على فراشهما المحبب لديهما، تحدجه بعينين رخوتين عاتبتين، تحتضر بهدوء واستسلام، كأن مدامعها ملّت منها أو جفت فصولها، أتى صوته على الرغم من خفوته متشظيا، محاصرا بالانكسار، ردد كلمات الاعتذار على مسامعها لأكثر من مرة مقراً بذنبه، لم يزدها كلامه سوى دهشة الاستغراب، لتخبره عزمها على الانفصال.أخذت أفكر في أحلام وخالد وهما في خضمّ الهلع، ووجدت انه لا بد مَن أحد يشرق عليهما بالأمل ليعيد لهما هدوء النفس وصفاء الروح المرهقة كل ذلك الوقت، ولم أجد أفضل مني وأنا أتقمص شخصية الساردة المشاركة في الأحداث للتدخل بينهما، كي يطويا صفحة الوجع الذي زرعاه بأيديهما.

لا أعلم إن ملّت مدامع أحلام منها أو جفت فصولها، حتى تعالى رنين هاتفها الخاص، تكهناتها كانت في مكانها، لا بد أنها أنا، أصلا من غيري يجيد تعزيتها وانتشالها من الهزيمة القاتلة والأحاديث الكثيرة مع النفس فنحن معا فتحنا "بالفعل" صفحة الألم.

وأخذت أقول على لسان تلك الساردة: عندما ننهي علاقة ما فإننا نجهز أنفسنا لبداية جديدة، فالنهايات والبدايات في تعالق وجودي دائم، وكأنها تمتح من نواميس الطبيعة، فلا يحق لنا فتح باب النهايات من جديد، وحين أجهشت في البكاء وهي تصر على الانفصال عن خالد بعد خيانته الثانية، كان لابد لي أن أذكرها بأنها ليست سوى أكذوبة، وإنها وخالد وساهرة ليسوا سوى شخوص من ورق، ابتدعتها في مخيلتي، لإيصال فكرتي، ولا يحق لأحد اتخاذ القرار بديلا عني، انتفضت وهي تردد "أنت صديقتي" وأنا أحاول إقناعها، ما فعل خالد إلا ما كتبت له من نص، ولا وجود لساهرة، والآن عليها أن تنسى ما حدث وتحيا سعادتها مع حبيبها، فأنا لا أؤمن إلا بالنهايات السعيدة.

أوراق امرأة

حسينة بنيان

وأنتِ تُحبين الحياة احتملي بعض الشغفِ من وجوهٍ لا تريدينها أن تقتربَ منكِ فأنتِ والشمس توأم لذلك تصلُ حرارتكِ الى شِغاف قلوبهم. سأبدأ بحكايتك المعهودة مُذ كُنتِ طفلةً يانعةً تشعرين بذكائك الحاد وأنتِ تتحدّينَ ذلك الوالدَ الذي لم يشعر بذكائك كان يتصوّرُ أنَّ الولدَ يعلو بدرجةٍ على البنت.. تعالَي يا سليمة هذا المنخلُ هل تستطيعين أن تملئيه بالماء فكانت الاجابةُ وبعنادٍ وحزم.. أنا أستطيع وضعهُ بشكلٍ مائل وأضعُ فيهِ الماء بحيث لا ينسكب. طبعاً تعلمين أنّهُ ينسكب ولكنّكِ تتحدَّين الواقع.. مرّت السنون ولكنَّ الصورَ محفوظةٌ حيث تتذكرين حينما أجبركِ أخوكِ على خلعِ حذاءَكِ الرياضي الجديد الذي كُنتِ فرحةً به وأنتِ تلبسينهُ مهيأةً للخروج صباحاً الى المدرسةِ. خلعهُ منكِ ليحتذيهِ هو وحين اعترضت حَصلتِ على علقةٍ قاسيةٍ من والدكِ فاضطررت الى احتذاء القديمِ ووصلتِ الى مدرستكِ باكيةً حزينةً.. دائماً كنتِ تُحبين الصعود وتقليد الأولاد كنتِ تتساءلين لِمَ لا تكن حريّتي مثلَهم؟ لِمَ لا أخرجِ للشارع.. لِمَ يقولون أنّكِ كبرتِ وهم أيضاً كبروا وها أنتِ صبيةٌ مراهقةٌ تقتحمين المقاعدَ الدراسيةَ وتتفوقين في المدرسةِ لكنَّ الاحتواء ينقصكِ فتقعين في حُبِّ ابن الجيران بدونِ هدفٍ مجرّد نظراتٍ متبادلةٍ. كان لطيفاً هادئاً كم تمنيتِ أن ينظرَ اليك.. لقد تنبه لتلك النظرات التي تُقابلهُ وهو يفتحِ البابَ صباحاً عند خروجهِ لمدرستهِ ..أحقّاً تنبه اليَّ؟ أحقّاً سيُعجبُ بي؟ هذا ما كان يجولُ في خاطركِ.. أيتُها التقيّة تنبهي! هذا ما كانت تقولهُ لكِ جدتكُ الجميلة.. لا يشغلكِ شاغل عن دروسكِ كانت الطرف الإيجابي في حياتك تلك الجدةُ الديمقراطيةُ التي تحبُّ الحياة والفنَّ والشعر.. لكنّكِ أطّلعتِ على قصصِ ألف ليلة وليلةٍ وقصص المنفلوطي وأُخرى كثيرةٍ وعرفتِ كيف يكون الحبُّ فاصطنعت لنفسكِ قصةً خاويةً انتهت بتركِكِ التفكير بذاك الشاب الجميل وتهيأتِ لحياةٍ أفضل. قد يكون الفكرُ الّذي اعتنقتيه

قد أبعدك عنهُ وأعتقدُ أنكِ كنتِ مُجبرةً على ذلك.. هيأت لك الظروف الجامعية من هو جديرٌ بكِ وقد يكون إحساسا آخر.. أنّهُ الفكر الذي تلتمسينه بالآخر فأقنعت جوارحكِ بذلك. سيكون هو حتماً المناسب هذا ما قلتيهِ لي في يوم ما فأنا صديقتكِ المقرّبةُ لديك وجالت خطوَّتُكِ نحوهُ.. سأكون معه سيكونُ معي.. أليس كذلك؟ وأبتدأ الطريق.. أنّهُ مُرٌّ هكذا كان ومازال.. الخيانةُ تتراقصُ أمامك. امرأة أُخرى. نساءٌ أُخر.. صَخِبٌ أنتَ.. الهوسُ طريقك والخمرةُ المزدانةُ بالسكرِ.. علقة أُخرى تحصلين عليها حين تُفكّري بإيقافه إذن لم يتغيّر شيءٌ البتّةَ من علقةِ والدك الى علقةِ ذلك الرفيق الذّي ظننتِ أنّكِ بوجودهِ ستُحلّقينَ في السماء. ما زلتِ على الأرض أيتها الترابية. ما زال التُرابُ عالقاً في شفتيكِ وما زال الاحمرار في عينيكِ الناطقتين بالألم.. أنتِ الآن الأمُّ وذات الشهادة العلميةِ المشار اليها بالبنانِ. ماذا دهاك هل ستدور الأرضُ مرّةً أُخرى لتأخُذَ جُهداً آخراً منكِ .. أيتها اليساريةُ الغارقةُ بهموم الآخرين .هكذا أنتِ يا صديقتي وجهك الذي لا يُبشّرُ بخيرٍ كما كان يقولها لكِ أخوك الأكبر.. الحربُ تدورُ وتعودين مرّةً أُخرى الى عصبيةِ أبيكِ.. البيت الذي ظننتِ بأنّهُ سيحتويكِ قد أُفرغ من الحياة بسبب تلك اللعينةِ الحرب المجنونةُ لتُضيفَ لكِ صفحةً أُخرى سوداءِ لصفحات حياتك الشاقّةِ وها هو العلمُ يملأُ الشوارع وهو يلتفُ على أجساد أولئكَ الصبيان المقهورين. أهكذا هو المستقبل أهذا ما حلمتِ به.. اليوم ستذهبين لحضور فاتحةِ الشاب أحمد زوج صديقتكِ ماجدة وغداً ستحضرين فاتحةَ صفاء شقيقُ آمنة زميلتُكِ في العمل وهكذا تكون الأمسيات.. كلٌّ يعلنُ استشهاده بسبب الطاغيةِ وحروبه.. ها هُنَّ الارامل صديقاتكِ ما زلن في أروعِ شبابهنَّ ضُربَتْ عليهّنَ الذلّةُ وهنَّ يحاولنَ التخلّصَ من الحداد.. ما حولهُنَّ يُشيرُ عليهنَّ أمّا الارتباط بمن يحميهنَّ وأمّا القبوع بالبيت، بالأمس صعدت واحدةٌ من المنكوبات مع سائق سيارةٍ مصري الجنسية من الذين قدموا للعمل في البلاد بسبب غياب الرجال في الحرب الرعناء مع الجارةِ المتطرّفة ليوصلها الى بيتها حتى قامت عليها القيامةُ أتصعدُ مع المصري وهي أرملةٌ. لماذا؟ انها الخطيئةُ هكذا بنظرتهم الدونيةِ لها ولأمثالها من المنكوبات.. هكذا يمطرُ المجتمعُ أمطارهُ اللاذعةَ المصحوبةَ بذراتِ رملٍ من صحراء أولئكَ البدو الذين لم تُغيّرهم الحياةُ المدنيةُ عن معتقداتهم وأفكارهم المتراجعة الى الوراء. أنهم يا صديقتي قساةُ القلوب الخاويةِ من كلِّ علم إلاّ من الاضطهاد لإنسانة تشبههمُ في الخَلقِ وليس لها خطيئة سوى أنّها أُنثى.. هذه هي حياتُك التي عشتيها يا صديقتي وبقيتِ عليها حتى صار الأسودُ أبيضَ وأصبح أبنكِ شابّاً رائعاً. أخبركِ أنّهُ قادمٌ من ذاك اليوم من جامعته بعد أن أنتهى الموسم الدراسي وفجأةً انقلب الموسمُ والنبأ العظيمُ قد وصلكِ. لقد وأدوه. انها الطائفيةُ يا صديقتي تنكبكِ حين الصبر. ماذا؟ وصوتُكِ يُعالج الصدمةَ.

أنّهُ ولدي إنسانٌ مدنيٌّ ما ذنبهُ.. أهكذا ينتهي الأمرُ.. أيتها الثكلى أحزني حزناً مريراً.. أنّهُ النهرُ الذي جفَّ وهنا توقّفَ القاربُ.. ستحملين العبء كلّهُ. لكنّكِ ستبحثين عن الحبِّ..

لقد وجدتيهِ مرةً أُخرى بعد رحيل السنين.

إيلا

تماضر كريم

تردّد صاحب التكتك وهو يرى المبلغ المرتفع الذي أعطته له تلك السيدة، ذات الشعر البني المقصوص على طريقة الرجال. لم يخطر بباله في هذا الصباح العادي جدا، حيث أفاق على صوت زوجته الحاد، وهي توقظ الأولاد للذهاب إلى المدرسة. مرّت على أنفه كما في كلّ صباح رائحة البيض المقلي بزيادة. ثم فتح ذات الحنفية الصدئة، وغسل يديه بالماء العكر الذي اعتاده من بضع سنين، بذلك الصابون الرخيص ذي الرغوة الخفيفة. ارتدى ايضا كما في كلّ يوم سترته الخضراء الغامقة، تلك التي جلبتها أمّه عندما أتت من بيتها في المدينة، لزيارته في حي سبع قصور، الحي الذي تصفه بلهجتها المتذمرة "يمه هاي منطقتكم شو ما بيهه ولا قصر". في ذلك اليوم قالت له أنها صادفت رجلا يبيع الستر المستعملة، واشترت منه هذه السترة الفاخرة بمبلغ خمسة آلاف. ثم مرّ كما في كلّ يوم بصفٍ مرصوص من بيوت يدعونها الحواسم، وعبر المجرى الذي تصل إليه مياه تصريف المطابخ والحمامات، حتى إنه صادف الصِبية أنفسهم الذين يعبثون بالتراب، والمرأة التي تنبش في المزابل، والخضّار الذي يدور بعربته في الشوارع، نعم، إنه الصباح الذي اعتاده، ولا شيء خطر بباله سواه، عداها هي، الطويلة، الممتلئة قليلا، بملامحها الناعمة، وطريقتها السريعة في الحديث. مدتْ يدها حيث كانت تقف في تقاطع (البنوك). لفت انتباهه لسانها الثقيل قليلا، وهي تشرح له أنها تريد جولة في بعض أحياء بغداد. تردد للحظة. انتظر أن تسأله كم يريد. لكنه بفطنته أدرك أنها ستدفع جيدا. عدّل من ياقة سترته الخضراء، وكبس محرك التكتك بقدمه، فانطلقت خفيفة، تمرق من بين السيارات، لتتفادى الزحام، وتسلك طرقا فرعية. عِبر المرآة كان يسترق النظر للمرأة ذات البلوزة الصفراء، والساعة الرمادية الكبيرة. تلمع في يدها التي تمسك دفترا صغيرا، وإلى جانبها حقيبة ظهر سوداء. راحت تدون أشياء، وهي تراقب الناس والطرقات. من دون أن يظهر عليها انفعال ما. استطاع أن يميز لون عينيها البنيتين المكحلتين، وعنقها الناصع وشعرها البني المقصوص بعناية.

شعر بألم ما في قلبه، كم من يصحو على

نقطةٍ مضيئة تلوح في أفق معتم، فتظن أنك ستموت إن لم تصل إليها. في ذات اللحظة العجيبة تلك عرف أنها دخلت بضراوة إلى قلبه، وأسره شكلها البسيط العميق، وطريقتها في وضع القلم على شفتيها وهي تتأمل الشوارع الضيقة في باب المعظم، والبيوت العتيقة الصامدة في وجه السنين. انتابته حيرة لا يعهدها في نفسه، كيف يبدأ حديثها معه، كان يود أن يسألها مثلا من أين أتت؟ وماذا تريد أن تشاهد تحديدا؟ انتظر منها أن تبادر هي بكلمة ما، فقد حرص ألا يبدو متطفلا. ولم يكن انتظاره طويلا، إذ سألته فجأة عن مكان الإعدادية المركزية "يقولون إنها هنا.. هل تستطيع أخذي إليها؟"

شقت التكتك طريقها نحو الإعدادية، عبر الدرابين الضيقة، وكان يرى عينيها تلتهمان الأمكنة. -هل تبحثين عن مكانٍ ما؟ بحسّه أدرك أنه السؤال المناسب لبدء حديث يتمناه مع امرأة يبدو عليها أنها أضاعت شيئا ذات عام. بدت كما لو أنها أفاقت من حلم، على صوته، وعادت للتو إلى العالم من رحلة بعيدة -أبحث عن ذكريات أمي وأبي. -هل كانا يعيشان هنا؟ -نعم.

-أستطيع مساعدتك. اعطيني المعلومات التي لديك عن المكان. -أظن أنه قريب من الإعدادية المركزية. يقول أبي أنه كان مدرسا فيها قبل أن يتم إجباره على الرحيل.

-الرحيل؟

- رحل إلى إسرائيل...جميع اليهود هنا تركوا منازلهم ورحلوا. قالت جملتها الأخيرة، وهي تتفحص البيوت الموصدة، والبيوت التي تحولت إلى مخازن، فيما بدا ما يشبه الدمع يلتمع في عينيها الواسعتين. احتاج بضع دقائق ليرتب أفكاره حولها.. إنها امرأة يهودية، قدمت للبحث عن منزل أبويها. ربما لتراه، أو لتسترده. بعد دقائق كانا أمام الإعدادية. تناهت إلى أسماعهم أصوات الطلبة، وقد شارف الوقت على الحادية عشرة صباحا. اقتربت من جدار المدرسة، تحسست الطابوق، كمن يتحسس قبر ولي من الأولياء. بدت كأنها تتخيل كيف كان والدها يدخل ويلقي دروسه هناك، وقد تذكرت كلّ ما أخبرها إياه، عن تلك الأيام وما خلّفته من حنين، وكيف يضجُّ الآن في قلبها، ويطفو على ملامحها باحثا عن أثرٍ ما. عادت إلى مقعدها في التكتك الأزرق، وهي تخبره أن المنزل ليس ببعيد، لكنها ليست متأكدة من مكانه تماما. غمره إحساس هائل أن إيجاد المنزل بات مهمته اليوم، فقد كان ذلك كفيلا بسعادتها.

أرته الصور الباهتة التي بحوزتها. ثمة زقاق ضيق، بشرفات متقاربة لبيوت متقابلة. إنه يعرف جيدا هذه الأزقة، وهي ليست كثيرة هنا في باب المعظم والميدان ودرابين القشلة، لكنها متشابهة، ولابدّ من وجود علامة ما يستدلان منها على المنزل المقصود. في حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر، اقترح عليها أن يأكلا شيئا. وافقت على الفور، فأخذها إلى مطعم قريب يعرفه. كان وجودها إلى جواره قد لفت الأنظار، أدرك أن هيأته البسيطة وهيأتها الفاتنة، هي السبب. تكدّر مزاجه قليلا، وتمنى لو أن أحدا غيره لا يراها. بدت ملامحها راضية تماما، وهي تشاهد الدجاج فوق طبق الرز. نسي الناس، وانشغل برؤيتها وهي تأكل طعامها بشهية واضحة وعفوية بديعة. حتى إنه لم يبالِ بالأكل كثيرا. لم تحاول منعه من دفع الحساب. أشرقت روحه لأنها لم تفعل. عندما

انطلق بالتكتك من جديد، ليكمل البحث معها، شعر أنه على وشك التحليق. وبقايا طعم الشاي والسكائر التي دخناها تداعب حواسه المتأهبة. دخلا زقاقا ضيقا. اقترحت عليه أن يمشيا. هلّل قلبه للفكرة.

راحت تحدق في الأسطح والشرفات المتقاربة. أحيانا كانت تمدّ يدها لتلمس الطابوق، وتلتقط الصور. في لحظة انشغالها بالتصوير تعثرت وكادت تسقط.

- انتبهي.. هذه الشوارع مليئة بالحفر.

- ما اسمك؟

- عمار.

- إنه اسم جميل. اسمي إيلا.

- إيلا! هل هو اسم يهودي؟

- نعم.. يعني شجرة البلوط

- هل تقرأ؟

- لا...كان آخر كتاب قرأته هو في المعهد كي أنجح.

- أنت غير مطلع على تاريخ العراق إذن؟

- ليس كثيرا.. فَي معهد الإدارة لا يعبئون بالتاريخ.

ضحك ضحكة متهكمة باحثا في وجهها عن ضحكة مشابهة، لكن ملامحها كانت جادة وهي تمشي بخطوات سريعة في ذلك الزقاق حتى شارفا على نهايته، ووجدا نفسيهما أمام زقاقين آخرين متفرعين عن الأول. أخرجت الصورة الباهتة مجددا، وأخذت تطالعها باحثة عن تفصيل ربما لم تلتفت إليه. كان ينظر مثلها إلى الصورة:

-انظري! زخرفة الشرفات هذه غير متشابهة.. ثمة اختلافات صغيرة قد تقودنا لمنزلك. -حقا؟ كيف تبدو الشرفة التي في الصورة برأيك؟

-لا اعرف بالضبط.. لكن يمكننا مع بعض التدقيق الوصول إلى شيء ما. ربما لو سألنا كبار السن من أصحاب المحلات القريبة.

- حسنا، لنفعل رجاء. وهما يسيران، كان كتفها أحيانا بسبب عدم انسياب أرض الشارع، يحتك بكتفه. ويبدو له وجهها من الجانب فاتنا، وشعرها الصبياني رقيقا وجذابا. كان قلقا من سرعة مرور الساعات وهي إلى جواره، لم يرد أن تسكت أبدا، سألها، وهو يحاول دفعها للسير ببطء:

- وأنت، ماهي دراستك؟

- درست التاريخ، وأنا الآن أدرّسه في الجامعة.

- ما معنى أن ندرس تلك الأشياء التي حصلت في الماضي؟! فيما بعد لم يستطع أبدا نسيان نظرتها المعاتبة المستغربة، وهي تقول بنبرة لا تخلو من غضب:

- أشك كثيرا أننا سنفهم حاضرنا من دون فهم الماضي. كل محاولاته اللاحقة في الحديث معها كانت لكي يرمّم ما اعتقده من فجوة في التفكير بينهما. خمّن ذلك عندما سألته بصوت مرهَق إن كانت سببت له التعب أو كان يودّ الرحيل:

- أنا بخير تماما. وسنجد المنزل. ابتسامتها الكبيرة جعلت قلبه يخفق، واطمأن إلى رغبتها في بقائه معها. وصلا عند شارع المتنبي. اجتازه مارا بمحلات بيع الكتب، والبسطات المتناثرة، حتى وقفا قرب مقهىً شعبي، ودلفا إليه، أخبرها أنه مقهى الزهاوي. تركها تتأمل الصور على الجدران، ثم راقبها بشغف وهي تشرب الشاي وتدخن. طلب منها صورة المنزل، ثم غاب دقيقة، فيما راحت هي تتأمل أثاث المقهى الخشبي القديم، ويبدو أنها تستغرق في أفكارها. أشار إليها للخروج، وراحا يقطعان المسافات صامتين. عندما

وصل بها إلى ذلك الزقاق الضيق القديم، كانت الشمس قد أوشكت على الغروب. كان عمال المخازن والمطابع يغادرون، في حين كانت المنازل موصدة تماما، وهادئة، وبدت كما لو أنها تموج بالحزن والغموض والحنين. فيما راحت أشعة الشمس تنسلُّ من الزقاق، لتجد العتمة لها مكانا، خيّم صمت عميق، يشبه صمت القبور، أخرج هاتفه وأشعل المصباح.

- إيلا.. أظن أن المنزل قريب من هنا. أخبرني رجل مسن أن أمثال هذه الشرفات هي في زقاق حسن باشا -يا إلهي! أتمنى أن نعثر عليه.

- لكن قد يتعثر بحثنا بسبب الظلام. ينبغي رؤية الشرفات بوضوح.

- كلا.. سنكمل ما بدأنا اليوم، حتى لو اضطررنا للرجوع وجلب مصباح. كانت صورة المنزل بين يديه، وهو يمر على المنازل، متفحصا إياها بدقة، فيما كانت هي تراقب ملامحه بلهفة، باحثة عن انطباع تعرف منه أنهما وصلا. اكتسبت ملامحه فجأة مظهرا مبهرا، وبدا كما لو أنه توقف أكثر من المعتاد أمام أحد المنازل:

- أنظري إيلا أخذت الصورة بارتعاشه واضحة، وراحت تطابقها مع المنزل الذي أمامها، مستعينة بضوء مصباحها وبقايا آخر أشعة الشمس المتوارية. ظهرت كل المعالم بوضوح، شكل الباب، والجدران، والشرفة المزخرفة، ثم تصورت المسافة بين المنزل والإعدادية، إنها مسافة منطقية، تطابق حكايات والدها، وبقايا ذكرياته. بدت كما لو أنها تهمس للباب بأشياء. تركها تتأمل المنزل، واندهش من محاولتها فتح الباب المقفل.

- أرجوك لا تحاولي الآن.

أفلت الشمس تماما، وتضاءل شحن الهاتف. أمسك يدها وهو يحثها على الرحيل. اضطر إلى جذبها قليلا. راحا يسيران ببقايا ضوء الهاتف الخافت. حتى لاحت الأضواء لهما. عندما وصلا إلى التكتك، كانت كفها في كفّه. صعدت إلى التكتك، وهو يتحسس رطوبة كفه، مأخوذا بالدموع على وجهها الساهم. قال بانفعال، تشوبه لذة الانتصار:

- ايلا.. غدا سنعود.

- سأسافر في الصباح. قاد التكتك إلى حيث تقيم في فندق بغداد. تلألأت الاضواء في الطرقات. كان كل شيءٍ يسير إلى نهايته المحتمة، حتى الأضواء تنكسر على الشارع، وتلاقي مصيرها هناك على الإسفلت. وها هو التكتك ايضا، يصل إلى الفندق، شعر ايضا إنها نهاية شيءٍ جميل، مثل الأضواء المتكسرة. قبل أن تنزل، خرج صوتها متكسرا هو الآخر، متكسرا ومجروحا:

- شكرا لك. لولاك لم أجد منزلي. تردد وهو يشاهد حفنة الدولارات في يدها. كان المبلغ كبيرا، هكذا بدا من حجمه في كفها ذات الأصابع الناعمة، رغب بشدة في الإمساك بكفها وعصرها، لكن المال بدا حاجزا شاهقا. أطبق بيده أصابعها على المال.

وصعد التكتك شاقا طريقه بين السيارات، وفي الطرقات المختصرة، وهو يراقب تكسّر الأضواء.

زمن الشرفة

شميسة غربي

سيدي بلعباس – الجزائر

جالس على كرسيه المتحرّك؛ في الشرفة العريضة... يستعد لِمَلْءِ رئتيْه بالهواء النّقيّ.. يستعدّ ليعيش حكاية جديدة من حكايات الشارع الطويل...حيث البشرُ في ذهابٍ وإياب، تسْتعْبِدُهُم الحرَكة، ويجْري بِهِمُ الزّمَن بيْنَ مشاغل الحياة... هذا صاعد، وذاك نازل، هذا يائس ، وذاك آمِل ، هذا أعمى ، وذاك بصير، هذا عنترة ، وذاك أرْنبة ! وبين هذا وذاك، وَقورٌ هادئُ الخطوات، مُشاغبٌ؛ نزِق في مِشْيته؛ وكأنّه يسْتعجل فوْضى الأشْياء ليقطف راحته، ويِنْعَمَ في هذيانه...! آخر؛ يُراقب المارّة؛ متى تحين فرصة السطو على حقيبة امرأة، أو جيوب شيخ طاعن في السنّ بعد أن خرج من مصلحة تقاضي المعاشات..

كعادته؛ ارتخى "أيْمن" وراح ينْظر إلى أفواج المارّة الذين يقطعون الشارع الكبير في اتجاهاتٍ مختلفة، وبهُموم مُتناثرَة...

بحَثَ بِعَينيْهِ الوَاسِعَتيْنِ عن "ندى الصباح" بين الأقدام المُتدفّقة؛ على أرْضٍ؛ عدَدُ قبورِها أضعاف عدد أحيائها....! مدّ يدهُ إلى كأس الشايِ الدافئ وتناول حبّاتٍ من المكسّرات؛ يُمَلّحُ بها ريقه؛ فقد جفّفتْهُ جرعات الأدوية منذ شهور... عندما قرّبَ كأس الشاي مِنْ فِيهِ؛ ظهرتْ "ندى الصباح" – كما كان يحلو له أنْ يُسمّيها – فتاةٌ من الأفارِقة السّود؛ الذين غزو هذه المدينة بأعداد مُعْتبرة... حتى أصبحت المدينة تغُصُّ بِهِمْ، فلا يكاد يخلو شارع أو حيٌّ منهم، وكأنّهم خطّطوا للتّوَزُّعِ المُنَظّم في أفْوَاج، تتناوب على مدار الأسبوع بين المحلات والأسواق والحدائق والمساجد وحتى بين المقابر يوم "الجمعة"، حيث يُلاحِقون زُوّارَ المقابر للفوْز بما يُتصَدَّقُ به على الأمْوات... ونجحوا في مسْعاهم، حتى أصْبحت العلاقة بينهم وبين كثير من الزوار؛ علاقة طيبة؛ دفعت بالطرفيْنِ إلى الاتفاق على اللقاء في الجمعة المقبلة، من أجل أخْذِ التبرُّعات المختلفة: ثياب، أفرشة، أغطية، أواني، حقائب بالية، فضلاً عن الصدقات الرئيسية؛ والمتمثلة في التمر والفطائر وقوارير الماء وبعض الحلوى للصبيان...

ظهرت "ندى الصباح" بلونها الأسود البراق؛ تحمل بين يديْها الصَّغيرتيْنِ وعاءً بلاستيكياً تجْمعُ فيه الصدقات... ابتسم طرَباً ... وراح يتابع حركاتها وخطواتها وابتساماتها وقد لمعت أسنانها لمعاناً لافِتاً. اليوم ...تغيّر لوْنُ الوِعاء وحجْمه أيْضاً.. إنه بنفسجي وأكبر من وعاء الأمس... رأسُها الصغير، نِصْفُ مُغَطى بخمارٍ مزركش، داعبتْ أطرافه أوتار البِلى، فبهُتَتْ ألوانه، وانسلّتْ خيوطه.. كانت تتحرك في كل الاتّجاهات.. تقطع طريق المارة وهي تبسط الوعاء أمامهم، عندما تتوقف المركبات امتثالاً لإشارات المرور؛ يُهرْول الطيف المتحرّك... تمدُّ ذراعيْها الهزيلتيْن وهما تعانقان الوعاء البنفسجي داخل نوافذ المركبات، تفترّ شفتاها عن كلمات...تسقط بعض الصدقات في الوعاء... تُغافِلُ المارّة أو تُغافل "اللحظة" ، ثمّ ترمي بالصدقات في جيب فستانها الطويل.. حالُه من حال الخمار.. صِنْوان في التآكل، وانطماس اللون...

يُنْهي "أيمن" كأس شايه؛ رنّات هاتفه؛ تُلْهيهِ عن مُتابعة حركات الفتاة... ينظر إلى الرقم.. إنها عمّتُه، تسأل عنه في كل حين... تتفقّد أحواله.. يعرف مدى حبّ هذه العمة له... يعرف مدى انشغالها بشأنه.... أنْهَى "أيمن" المكالمة؛ بضحكة كبيرة، سببُها نُكتة جميلة حَكتْها العمّة.. فَهِمَ أنّها تريدُ أن تُخفّفَ عنْه، وَدّعَها وهُوَ مُمْتَنٌّ لها.... وضع الهاتف جانباً، وبدأ يتابع حركات "ندى الصباح" في هذا الصباح المشرق...تظهر كالظلّ تارة، وتختفي بين الجموع تارة أخرى... تتسلل بين السيارات والشاحنات بِقَدَمَيْنِ ونعليْنِ مُهْترئيْنِ؛ تخرج منهما أصابع طويلة، مُغْبَرّة، تُلامِسُ التّرَاب... بِانْشراح؛ تتفقّدُ الفتاة جيْبَ فسْتانِها... تسْتشْعِرُ امْتلاءَهُ وربما ثِقَله... تضعُ يدها الصّغيرة بإحْكامٍ على فتْحةِ الجيب... يُتابعُها بعيْنيْه الواسعتيْنِ، تغيبُ لفترة... ينْتظرِها حتّى تعود...

يُحدِّث نفسه: "لعلّها ذهبتْ لتضع ما جمعتْ بين يديْ أسرتها...فعلاً إنها صغيرة ومسؤولة!" لحظات وتعود الفتاة... تعود ومعها طفلٌ لا يتجاوز الثامنة من عمره.. يتأملها "أيمن"، يلاحظ أنها استبدلت النعليْنِ بشبشب أحمر قديم، يبدو كبيراً على مقاسها، تجُرُّهُ بعناد كلما حاول التملّصَ من قدميْها الصغيرتيْن...لعلها صادفتْهُ بجانب سور قُمامَة الحيّ، أيْن اعتادتْ بعض النساء التخلص من الأشياء القديمة، حتى لو كانت ما تزالُ صالحَة للاسْتعْمال...

وقفتْ تتحدّثُ مع الطفل، وكأنها تُلَقِّنُهُ آليات الحِرْفة...! تارة؛ يهزُّ الطفل البريء رأسه الصغير الخالي إلا مِنْ شُعيْرات خشناتٍ مُبعْثرات مُدوّرَات، وبِيدِه قطعَة خبْز كبيرة؛ يسيل مرَقُها على مِرْفقيْه كلما وضعها بيْن أسْنانه النّاصِعة البياض.

تثاءب "أيمن" وشبّك أصابع يديْهِ ووضعهما وراء رأسه وغاب في ملاحقة المنظر... عندما أنهى الطفل خبزه؛ ناولتْه الفتاة وِعاء بلاستيكياً أصفر، أصغر من وعائها البنفسجي... ثمّ أشارتْ بيدها، تدُلُّهُ على الطريق الذي يجب أن يتواجد فيه طِوال اليوم... هرول الطفل ضاحكاً، مسروراً وكأنه تسَلّمَ القيادة...!

وقفتْ "ندى الصباح" تُعَدّل من شأن خمارها الذي كاد يسقط من على رأسها... تُثبّتُهُ بإصرار رغم أنه أصبح شبْهَ خِمار...

بعيْنيْنِ حادّتيْنِ؛ التفتت يمينا وشمالاً، أخرجتْ قارورة ماء صغيرة، أدْنتْها مِنْ فيها، وبدأتْ تشرب والقطرات تسيلُ على صدرها وتُبلّلُ فستانها، تُحاول أنْ تمسح بيده الأخرى ما تقاطر... تغلق القارورة بإحكام، ثمّ تبدأ نشاطها من جديد... الوعاء البنفسجي في وجه المارّة.. منهم مَنْ يتفضّل بما تيسّر، يضعه في الوعاء، منهم مَن يتجاهل الفتاة ووعاءها، ومنهم مَنْ يذهب ثمَّ يتدارَك؛ وكأنّه غفل عن شيء؛ فيلتفتُ ويعودُ بعد بضْعِ خطوات؛ يضعُ ما في يمِينه؛ وينْصرفُ وقد تلألت بسمة الفتاة شكراً وامتناناً لهذا الكريم النبيل...

ثآليل الشارع الطويل..

وهو يتابع حركات "ندى الصباح" يُفاجِئهُ صُراخ امرأة، يتصاعد من الجهة الأخرى المقابلة للصيدلية الكبيرة... تتجمهر الجموع، يكثر اللغط، تتلاحق السيارات في طابورٍ طويل، يتعقّدُ نظام المرور، تحْضرُ الشُّرْطة، تفضُّ الاكتظاظ... يظهر رجلٌ غاضب؛ يُلَوّحُ بـ: "كارط" الترخيص في الهواء.. هيجانُهُ وما يتلفظ به مِنْ وعيد وتهديد وكلمات نابية؛ كل ذلك؛ يُثْبِتُ أنه من المُدْمنين...تناهى إلى مسمع "أيمن" من الشرفة؛ أنه ضرب البائعة في الصيدلية، لأنها لم تُعْطِهِ ما يطلب، رغم امتلاكه للوصفة الطبية و"كارط "الترخيص... أفهَمَتْهُ أن هذا المطلوب قد نفد... تعنّتَ... أقسَمتْ له الأيمان...لسوء حظها؛ كانتْ وحدها في المحلّ، جرّها، رفسها، واقتحم المكان كالثور الهائج، يبحث بنفسه بين صفوف الأدوية.. جرتِ المسكينة نحو الشارع وأنفها ينزف، تصرخ وتستنجد... رُمِيَ الرجل في سيارة الشرطة المصفّحة، وهو يغلي غليان الماء في القِدر... شيئاً فشيئاً؛ بدأ الانفراج يتحقق في الشارع... يتذكّر "أيمن" أن مثل هذه الحادثة؛ قد سبق ورآها منذ شهور... وقعتْ ليلاً، ولِحُسْن الحظ؛ كان البائعُ المناوِبُ رَجُلاً؛ تسلّط عليْه اثنان مّمنْ فقدوا السيطرة على النفس، ومع ذلك استطاع أن يُخرِجَهما من المحلّ بأقلّ الأضرار، وتحت أنظار عُشّاق السهر على كراسي الشارع الطويل الذين سارعوا إلى مُساعدته...

تفقّد "أيمن" "ندى الصباح"... يمسح المكان بعيْنيْه.... أين هي؟ لعلها خافتْ؟ لعلها غيّرتِ المكان؟ أين هي؟؟ تساءل: " ولماذا أبْحثُ عنْها..." حاول أن يُوهِمَ نفسَهُ بأنّهُ غيْر مُهْتمّ...! لحظات وعاد يبحث... انتابه القلق، غمره القنوط، ضاقتْ به الشّرْفة... يريد أن يُطلّ بكامل جسمه على أبْعَد مكانٍ في الشارع... ينْظر إلى رِجليْه المُتصَلّبَتيْنِ أسْفل الكرسي المُتحرّك، يشعر بحُمّى تأكل رَأسه، تشْخَصُ عيْناه، يضع يديْهِ على حافة الكرسيّ، يقطع الأنفاس، يعضُّ على شفتيْه، يُغْمض عيْنيْه، يضغط بكل قوة على حافة الكرسي، يتريّث وكأنه يستعد لِلّحْظة... ثمّ يئنُّ أنيناً خافتاً مُتلاحقاً، و.... يقف.... على قدميْه....! يتصبّبُ عرَقُه، يحمرّ وجهه، تنتفخ أوداجه، يتسمّر في وَقْفتِه.... يراها من بعيد؛ والوعاءُ بيْن يديْها، تمْشي بخطواتها الواثقة... يشْعُرُ بِالِانْشِرَاح... تمنى لوْ ترفع رأسها قليلا لتراه.... ليلوّحَ بإحدى يديْه نحْوَها...

الوجه الثاني

منال الأخرس*

بعد مرور تلك الأعوام جلست أمام مخزن أسراري، أتفحص بعض صوري في الميدان مع صديقتي نجاة تلك الحسناء ذات العيون الواسعة والنظرات الحادة والملامح المحددة والشعر الأسود المائل للأحمر، كانت غير راضية عما يحدث.

أتذكر صوتها الغاضب وكلماتها الِصاخبة والمعارضة لما يحدث بكل صراحة: أنا مع الريّس ولست مع أغلب تلك الأحداث، أين الوفاء مع البطل الذي حافظ علينا. كان حبها للجيش لا يقل عن حبها للرئيس.

وقعت من يدي صورة كانت التقطتها لي نجاة أمامَ دبابة خلف دار القضاء العالي، كان حجمي ضئيلاً للغاية أخَذَتني أفكاري لفترة بالية؛ حينها كان الألم في حياتي هو الحياة، إذا غاب عني بعض الوقت استدعيه بكل السبل، فقد كنت لا أحتمل أي نسيم من السعادة والراحة.

كنت كلما تنتابني السعادة أشعر أني طائر في السماءِ؛ أحلق في الهواءِ؛ قدماي تبحثان عن الأرضِ ولا تجدانها، كان وزني ينعدم وأفقد الجاذبية؛ فانجذابي للأرض عندي هو أصل الحياة، حتى وإن كان البديل التحليقَ في الهواء والتجولَ في السماء بين النجوم الساطعة حيث النقا، كانت عندي الجاذبية مع العذاب أفضل من شعوري كريشة يطوِحها الهوا؛ لا تثبت على حال.

لا أنكر أن السعادة شعور فريد ذقته مرات ومرات، من فرط فرحتي به كنت لا أحتمله، كنت أرفرف من شدة فرحتي أحيانا.

لكنني كنت أعجز عن الصمود على تلك الحال؛ إنه شعور ثقيل رغم ثقله يحملني فوق الأرض ويترنح بي في كل اتجاه عدا الأسفل. بينما كنت أطيل النظر نحو الأسفل، في غمرة تلك النوبة الأخيرة من السعادة حاولت أن ألمس بقدمي الأرض، لم أجدها.

تعجبتُ! فدوما حينما كنت في نعيم الجاذبية الأرضية لا أنظر إلا إلى السماء، لم أكن أنظر مطلقا حولي أو حتى أسفل قدمي، كانت عيناي معلقتين في السماء. إلى ماذا أنظر؟ لا شيء محدد، لكنني كنت دوما أنظر لأعلى فقط.

الآن أمكث في حِصن الجاذبية أغرقتني جبالها الحزينة، كدت أتوه في دروب تعاستِها.

تلك المرة كنت أنظر إلى أسفل قدمي فقط

لا أحتمل النظر لأعلى. لا زلت أسبح في ظلمات العذاب وإذا ببصيص من الضوء ينير أمامي طريقي، إني أتشبث به لكنه يأخذ عيني لأعلى وأعلى كما كنت قبلا.
إني اقترب من البهجة التي أبحث عنها فيهما.
الحين أدركت وجودي، إني استعيد توازني بينهما؛ جزء في الأرض وجزء في السماء، عذاب الأرض وسعادة السماء. إنها البهجة التي كنت أبحث عنها حقا بين النقيضين.
فالغوص للأسفل فقط عذاب والتحليق في السماء فقط ضياع.. إن الوجود بينهما هو البهجة.
الآن أرتشف كوبا لا ينضب من البهجة.
رحيقه السري مكتسب من عمق الأرض وفضاء السماء. يمنح من يتناوله الخلود، ويمده بطاقة البقاء بهما معا.
يستطيع شاربه السير فوق الأرض والتحليق في السماء في ذات الوقت.
يمنح شاربه أيضا التوازن، فهو ليس أبيضا وليس أسودا ليس مملوءا وليس فارغا؛ هو بين كل هؤلاء هو خليط من كل الأشياء..
شدتني صورة أخرى التقطتها نجاة مع جندي يرتدي ملابسه ذات المموه، تذكرت معها كيف صنعت الثورة بنا الكثير؛ ففي أثنائها وبعد التنحي شعرت أن الكذبَ والتضليل لن يكونَ لهما مكان.
حينها جاءني يقين أن الظلم لن يعرف مخلوقا على وجه الكرة الأرضية مرة أخرى.
تذكرت يوم كنا نسير في أحد الشوارع المحيطة بميدان التحرير في أعقاب الأحداث الساخنة قلت لها:
الدنيا تطير بي من فرط السعادة؛ مما أغدقته الثورة علينا من أجواء ليس لها مثيل، وليس لها وصف دقيق يليق بها، كانت أجواء تشبه المدينة الفاضلة؛ فالكاذب لن يكذِب بعد اليوم. والسارق لن يسرق بعد اليوم.
التَفَتَتْ نحوي قائلةً:
المفارقة العجيبة أني لم أتعرض للسرقة أبدا في حياتي، إلا في أعقاب الثورة. هل تلك مصادفة؟
كانت البلد تُسرق كل يوم لكني لم أتعرض للسرقة المباشرة قط؛ فقد كنت قبل الثورة أُسْرَق بشكل غير مباشر وبعدها أصبحت أُسْرَق بشكل مباشر.
ربما لأن السارق أصبح قريبا ومتمكنا أكثر من ذي قبل؟
قلت:انظري حولك كم طفل يخطف كل يوم بل كل لحظة؟
كم حادث بشع يحدث كل ساعة؟ فالبلطجة أصبحت سيدة الأحداث.
كم حالة نصب تتم في وضح النهار؟ كم عامل فقد عمله؟ وكم أسرة فقدت أعز ما تملك؟ كم شهيدا ضاع منا؟ فما دمنا عاجزون عن أخذ حقه. فقد ضيعناه وضيعنا حقه.
قالت نجاة:
سوف يرفع الله عنا تلك الغمة، فالأمور تسير على ما يرام ونحقق ما نحلم به، ومصر في طريقها إلى العالم؛ بفضل كل مخلص وكل متفان.
ما يحدث من سرقات ونهب وخطف؛ هو أعراض جانبية تصحب أي ثورة، هي إفرازات غير مرغوب فيها، لكنها طبيعية في حالتنا، سوف ترجع الأمور لنصابها حتما عما قريب.
قلت له:
أشعر أن شيئا بداخلي مخطوف، بداخلي

شيء لا أعرفه مسروق، ولكني على يقين أنه عزيز.
عدلنا المسار حقا. نسير على الدرب حقا. لكن ما الذي أخذ منا؟ أي شيء ثمين أضعناه؟ إذن ما الذي فقدناه؟
كل ما أشعر به أنه شيء مهم. لكني لا أعلمه. أنا لا أجد إجابة عن هذا السؤال بكل صَيغِه.
كيف أسترده في حين أني لا أعرفه؟ هل سأعرفه يوما؟ هل سأسترده يوما؟
قالت: كان قرار تعديل المسار أصعب من قرار الثورة ذاته. اخترنا الأصعب، واجهنا قدرنا المحتوم، لا زلنا نواجه وفي الأفق نور يتلألأ، كلما سرنا تأكدنا أننا في الطريق الصحيح.
قلت:
بعد أن نجحنا في إعادة الثورة، بعدما تهنا عام كامل، وكدنا أن نفقد كل شيء وبلا رجعة. فإما أن نسترد كل شيء؛ الماضي والواقع والحلم أو الاستسلام. وكان القرار وقد كان.
وعاد لنا كل شيء، حتى الألم، حتى الظلم، حتى مرارة ما قبل الثورة؛ إلا أن حافزنا الوحيد هو الوطن. لا شيء غيره. يكفي أننا في حضن مصر، يكفي أنها بين ضلوعنا.
ولكن هل ستنتصر الإرادة الصادقة في القضاء على الظلم والألم والمرارة؟
هل سيأتي يوم يتوارى فيه الفساد الذي يطل برأسه من كل الأركان ليعلن عن انتصاره حتى الآن ولسان حاله يقول "لن يجدي معي شيء، ثوروا كل يوم، لن انتهي، لن أتراجع عن مكاني أنا استحوذ على كل شبر فلا متنفس إلا لي".
هو يحتمي بأعداء الوطن الذين سينقضون على آخر أمل لنجاة مصر من مخطط الشر.
إذا حاولنا الثورة على ذلك الفساد البغيض.
حقا للفساد من يحميه.
قالت:
الثورة الحقيقية على الفساد وعلينا أن نتمسك بالصبر.
انصرفت صديقتي متجهة للمترو وسرت وحيدا في طريقي.
لا زلت واقفا أمام مخزن أسراري، كمن يبحث عن شيء. مررت على ذكريات ليست قريبة، سرعان ما جال أمامي ما حدث، لا زلت أذكر كلماته: عن الظلم والبكاء وجملته التي لا زالت ترن في رأسي - حتى البكاء يظلم – أظن أنه رجل نادر؛ لم يقترف ذنبا في حق أحد، لم يظلم أحدا. هكذا ظن، هكذا يشعر، هكذا يفكر بل أنها هي الحقيقة. يشهد من حوله بذلك..
ذات مساء سحبتني خطواتي إلى منزله - الذي يواجه منزلي مباشرة - كنت أعلم أنه لن يزورني رغم رغبته في ذلك. كان يأبى خشية أن يتهمه جيرانه بالجنون - فالطبيب النفسي لا يدخل بيته عاقل في عرفهم - طرقت الباب، لم انتظر طويلا، فتح وتلقفني، أدخلني في الحال. رحبت به جلس على أريكة بجوار نافذة تطل على حديقتي الصغيرة، كان يبدو هزيلا تملأ ملامحه هزيمة بينما عيناه بها بريق من دموع تكاد تقفز، لم يترك لي فرصة لأي كلام بل تولى هو الأمر، تركته يحكي ويحكي:
لماذا أبكي وأعاني من الظلم الذي يحاصرني في كل مكان؛ في لقمة عيشي، في شربة مائي، موطن رزقي، في الهواء وفي الأجواء؟
كان دوما يتعجب من حاله:

ما دمت أنا المظلوم الذي لم يرتكب ذنبا، لم يظلم أحدا لماذا يزورني البكاء المؤلم والمرير؟
لماذا لا يزور ظالمي مرة؟ فلو فعل لكف عن ظلمه وندم على كل لحظة مارس فيها الظلم.
لماذا أبكي؟ كلما تذكرت كيف أضنى ذلك الشخص نفسه لكي يحجب عني رزقي الذي قسمه لي ربي من فوق سبع سماوات؟
كيف لم يتوان لحظة في التخطيط والتدبير لمنع حقي عني؟ كيف استطاع أن يستقطب الجميع في صفه ضدي؟ كيف جمع ذكاءه وخبراته وخبرات الشياطين لإنجاح مخططه ليغلق أمامي كل نوافذ الرزق؟ – كما تخيل – كان عجبي لتفرغه من أجلي ومن أجل منع أية بوادر أمل.
تركته يسترسل كان لديه سيل لا ينضب من الألم والحيرة والدهشة:
"أجل كان يحاربني لم يشغلني الأمر في حينه. لكن بعد مرور الوقت تيقنت من نواياه. لا أعرف لماذا كل هذا الكره؟ كل هذا الحقد؟ هل ظن أنه سيأتينني رزق من ربي عن طريق الخطأ؟ وبالتالي عليه هو أن يصحح مساره؟
لا أدري كيف كان يفكر؟ لا أدري لماذا يفعل كل هذا.
لكني أعلم جيدا أنه سبب رؤيتي لرسول الله صلى الله عليه وسلم في منامي، كان الحبيب راضيا عني مبتسما في وجهي، عانقني وقبلني، هي لحظة تهون من أجلها كل المتاعب وكل المقالب وكل البكاء وكل الدموع.
استطرد قائلا:
أشعر أنني من الصفوة، لم أشغل بالي مطلقا أن ينتقم منه ربي أو أن يرفع ظلمه عني، لم اكتشف حقيقة ما يضمره حتى وقت قريب، كنت اعتقد أن ما يحدث هو مجرد مصادفة. ليس أمرا متعمدا ومدبرا من أجلي.
عندما أدركت الحقيقة ضحكت في نوبة هستيرية، ثم انتابتني عاصفة من البكاء والدعاء؛ دعوت ربي أن يأخذ لي حقي؛ لن أستعين بأحد سواه وكفى، قررت ألا أستسلم للظلم؛ قاومت ولا زلت ولم يتوان هو الآخر في هجومه الذي أصبح الآن واضحا. حتى جعل الجميع يتعاطف معي، لجأت لكبير يخافه ويهابه فتعاطف معي إلا أنه فجأة انحاز لظالمي وإذا به يتنصل من وعده بإنصافي، طالبته بنصرة المظلوم؛ هاجمني بنظرات جعلت مني أنا المتهم والمخطئ، تعجبت مرة أخرى؛ نجح عدوي في تشويه صورتي. كان صمتي انتظارا لعدل المقسط دوما ، استرحت الآن . حتى وإن لم يكف ظالمي عن ظلمه؛ بل أنه زاد في طغيانه ولم أبال.
كان الرجل يبكي في كل جملة خرجت من فمه، علمت فيما بعد أن من ظلمه هو ابنه، لازلت أراه يبكي رغم مرور وقت طويل على ذلك اللقاء.
تأهبت للخروج متجها للمنزل وما أن اقتربت من الباب فاتحا إياه ذات الليلة وجدت إحدى الصديقات العزيزات أمامي، لم تكن مهمتي في إقناعها لزيارة عيادتي الجديدة سهلة ففي اللقاء الأخير لمحت شحوبا بملامحها وهبوطا بحماسها الذي يميزها دوما. منذ أيام جمعتني الصدفة بها في النادي، جددت دعوتي "لماذا لا تزوريني فى عيادتي لتأخذي فكرة عن نجاحي؟ "وكان صمتها كالعادة. إلا أنى

أحسست بزيارة وشيكة منها فبحكم خبرتي كانت بها حاجة للابتعاد عن ضوضاء نفسها، وفعلا حضرت كما توقعت.
جلسَت في استرخاء تام، وأخذت تروى لي في تدفق:
كنت أغالط نفسي فهو لازال في جزيرتي التي منحته مفاتيحها وخريطتها السرية. أدركت أنى كنت أخدع نفسي، ظننت أنى كلما أطلعته على مقتنياتي سيزداد تمسكا بي، لجأت إلى إعلامه عن نقاط ضعفي عله يتجنبها، أوضحت له أنه كلما تجنبها سأعود إلى نفسي الحقيقية؛ فأنا أمر بمرحلة غريبة عنى، أعيش أوقاتا غريبة عن ذاتي وعن حقيقتي ؛أنا لست أنا، أنا لست كذلك، أنا أفضل من ذلك، فقط أريد أن أستعيد ثقتي بنفسي وبالعالم وأنت هذا العالم فساعدني .
قلت لها وماذا فعل؟
بادرتني:
فاجأني رده الذي حيرني وقتها كثيرا، لقد اتهمني أنى لست على طبيعتي، ما زادني اعتمادي عليه إلا ارتباك أكثر وتغريب أكثر. تيقنت أنى مسنودة على حائط كلما لجأت إليه أجده يميل بى ليس لعدم قوته وإنما لأن أساسه ليس صلبا فهو لم يأكله الصدأ بل لإنه مصنوع من مادة مطاطية لا تمنح قاصده القوة بل تبخل حتى أن تسنده واكتشفت أنى لجأت لحائط ليس مائل فقط بل هو أردأ أنواع الحوائط وتأكدت أن ما أتلفه الدهر لن يداويه إلا الدهر ،فأزمتي التي أصابتني كان أساسها أنى أثق فى غيري كثيرا وما كان منهم إلا أنهم يخذلونني على أقصى درجة وإلى أسوأ درجة ،ظننت أن الحب هو خير دواء فتشبثت به إلا أنه لم يكن كما تمنيت؛ فذالك القلب لم يكن بمستوى حبي ،حاولت كثيرا أن احتفظ به فهو أملى لأستعيد ذاتي الحقيقية وما جنيت إلا ألماً أكثر وغربة أكثر وارتباكاً أكثر.
أدركت أن الحب أيضا يكون داء إذا لم يكن دواء، فالعثور على الحب ليس معناه الشفاء فربما يكون بداية لمعاناة جديدة، زادت به آلامي إلى ذروتها وكانت قناعتي أن أول خطوات نجاتي هي التخلص من هذا الحب العقيم رغم جراحي وأسقامي وحقا ما ذهبت إليه فتعافيت شيئا فشيئا وأنا الآن في طريقي لاستعادة ما فقدت من ثقتي ونفسي فهل من أمل جديد لحالتي يا طبيب؟
على الفور كان ردى: إنك الأمل لهذا العالم فأنت تجسيد لنجاة البشرية من زحف اليأس إليها. استمري فأنت على الطريق لذاتك الحقيقية التي أخفتها عنك تراكمات وإحباطات فرضها عليك الواقع ووضعتهِا على عتباتك الظروف.
سألتني في براء ة: هل سأحب مرة أخرى؟
احترت وفي بحثي عن الرد جاء بخاطري رد سابق التجهيز: الأمل كبير رغم ما حققته المادة من سيطرة على عالمنا.
بأمل يتضاءل في صوتها قالت: هل هناك حب حقيقي في عالمنا؟
لم أخف أمامها أنى في حيرة من هذا العالم ولم أنكر أنى أبحث مثلها عن هذا الحب
-لست لأني طبيب نفسي عندي طريق سحري يوصلها إليه، خشيت أن تكتشف أنى أنا الآخر حائط مائل فتزداد حالتها سوءا وتتفاقم أزمتها -ثبتت نظري نحوها وهاجمني صمت طويل.

---

* قاصة وصحفية مصرية، لها عدة مؤلفات، وحصلت على العديد من الجوائز

الجمهور منتجاً ثقافياً ومصدراً للإبداع

أ.د. علوي الهاشمي*
البحرين – خاص

ونحن نعيش تحت وطأة جائحة كورونا الثقيلة، لا يمكنه الحديث عن أي مشهد من مشاهد العمل الاجتماعي الراهنة في حياتنا العربية أو العالمية، بما في ذلك المشهد الثقافي.. من دون ربط ذلك بعملية التواصل الالكتروني (الافتراضي) عبر الفضاء السيبراني، كالذي نقوم باستثماره اليوم في جميع اللقاءات الافتراضية. فكلا العاملين مرتبط الواحد منهما بالآخر ارتباطا شرطيا في الصفة والوظيفة: الفايروس المستجد كوفيد 19 والتواصل الإلكتروني المستشري واقعا عمليا بديلا للقطيعة التي أحدثها الفايروس، وذلك بفرض القطيعة ونشرها بين البشر جميعا أفرادا ومؤسسات في مختلف أرجاء الكرة الأرضية وعبر مختلف المجالات الحيوية والتخصصات الفاعلة كالتعليم والإعلام والثقافة والأدب وباقي عمليات التواصل المباشرة بين البشر.

وهي عمليات تقوم على سنن التواصل اللغوية نفسها، بوصفها -أعني عملية التواصل الإلكتروني- لغة مكتملة العناصر والأطراف كاللغة نفسها أو هي لغة بالفعل، عناصرها المرسل والرسالة والمرسل إليه وتتأثر شبكتها الحية بالسنن اللغوية التي تحفظ عملية التواصل القائمة بين جميع العناصر والأطراف. فإلى أي مدى تأثرت لغة التواصل الثقافية بفعل الجائحة الراهنة عالميا، وعربيا بصورة خاصة، وأثرت في لغة التواصل وأطرافها المتعارف عليها في المشهد العربي الثقافي، وهو ما يمكن تلمس انعكاساته على الرسالة الثقافية نفسها سلبا وإيجابا على حد سواء؟ ولا أظن أحدًا من المشتغلين بعملية التواصل الثقافي يستطيع أن ينجو من هذه الآثار وانعكاساتها على مجال اشتغاله.

إن عنصر "المرسل إليه" نظرا لأهميته كمعيار يمكن من خلاله قياس أثر التغيير الحاصل بين دور الجمهور كمرسل إليه قبل الجائحة وبعدها.

إن الجمهور يمثل في لغة التواصل المرآة العاكسة بدقة لمختلف عناصر الرسالة بأطرافها المذكورة، بين ما كان عليه الحال قبل استخدام لغة التواصل عن بعد (الكترونيا) وبعده مما هو قائم في الوضع الراهن بعد

انتشار الوباء عالميا.
فذاكرتي الثقافية الشخصية مسكونة بمثالين يصلحان للمقارنة ولمس الفارق بين حال الجمهور بالأمس واليوم أو في الماضي والحاضر.
وأبدأ بالمثال القريب الذي لم يمر عليه أسبوع ويتمثل في ندوة افتراضية أقامتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الألكسو) بمناسبة اليوم العالمي للطفل بعنوان (تنمية الطفولة المبكرة في الأوضاع الطارئة والأزمات) والتي لم يحضر بثها المباشر على منصة الفيس بوك غير بضع عشرات من الجمهور، على الرغم من أهمية الموضوع والمناسبة وشهرة المؤسسة العالمية. الالكسو !
صحيح أن الندوة قد تم نشر تسجيلها بعد ذلك وشاهدها عدد كبير من المتابعين بلغ المئات بل الآلاف! لكن ذلك يطرح مفهوما آخر للجمهور بوصفه مرسلا إليه! غير الذي استقر في أفهامنا وذاكرتنا العربية الثقافية منذ أن شاهدنا جمهور مؤتمرات الأدباء العرب ومهرجانات الشعر التابعة لسلسلتها المنتظمة سنويا في تنقلها وانعقادها في مختلف أقطار الوطن العربي منذ منتصف القرن الماضي حتى اليوم.
كما لا تنسى ذاكرتنا البعيدة والمتوسطة جمهور أو جماهير شعراء عرب مثل نزار قباني أو محمود درويش أو الجواهري أو غيرهم من شعراء الوطن العربي الذين يقاس حجمهم أو حجم شهرتهم قياساً على جمهورهم، مما يمكن أن يفرز أوصافًا مثل شاعر جماهيري للواحد منهم، على عكس الحال مع شعراء آخرين كبار كذلك في المعيار النقدي المحض. وإن أنس لا أنسى تجربتنا كشعراء شباب في مطلع سبعينات القرن الماضي في البحرين إثر تأسيس أسرة الأدباء والكتّاب نهاية عام 1969 وإقامة أولى الأمسيات الشعرية وسلسلة الأمسيات التي تبعتها في غضون أشهر عام 1970 وقد كان يحضرها من الجمهور عدد لا يقل عن 1500 شخص من الجنسين ومن مختلف الطبقات والشرائح الاجتماعية يستمعون ويصفقون لشعراء شباب في مقتبل العمر ويحاورونهم بعد إلقاءهم قصائدهم، ناهيك عن جمهور شعراء عرب كبار كانوا يزورون البحرين مثل نزار قباني ومحمد الفيتوري والجواهري ومظفر النواب.
وكان حجم الجمهور ونوعه أحد أهم معايير الحكم على الواحد من هؤلاء الشعراء العرب الكبار على الرغم من أهميتهم جميعا كمبدعين وروادا للشعر العربي الحديث والمعاصر.
أعرف أن حصر العدد التراكمي للداخلين والمشاركين والمعلقين على ما يشاهدونه من أمسيات شعرية أو قراءات شعرية أمر سهل ودقيق في المواقع الاجتماعية، لكنه يتم بصورة جماعية عن طريق حاصل جمع الأعداد الفردية المتراكمة، وليس ككتلة واحدة تفاعلية يتم انصهارها وتفاعلها الاجتماعي في إطار مكان واحد وزمان واحد أيضا، بما يخلق ما كنا نصفه برد الفعل الجماعي المشترك الذي يصنع واقعا جديدا محسوسا وملموسا ومسموعا يُدّوي صوته الجماعي القوي وهتافاته الواحدة المشتركة في المظاهرات والمواجهات السياسية التي تساهم في تغيير التاريخ .

---

*شاعر وباحث واكاديمي من البحرين ، له عدة مؤلفات

دموع النجوم

هاشم شفيق*

الدموع التي سقطت
لم تكن دموعك،
كانت دموع النجوم،
دموعك
ها هي تغسل الأواني
وتملأ المرايا،
الدموع التي سقطت،
لم تكن دموعي
كانت دموع السحاب،
بينما دموعي
هي تلك التي بللت وسادتك،
بقعت الشراشف،
وجرت تحت سريرك،
الدموع التي سقطت على الارض
وعجنت التراب
وحولته طينا،
كانت دموع أخواتي،
دموع أمي
غسلت المجرات،
دموع أبي
نزلت بيضاء،
متلالئة على المحراث،
أما الدموع التي أغلقت الحدود مؤخراً،
فكانت دموع المهاجرين.

---

*شاعر عراقي يقيم في لندن

بقايا موعدين ونصوص

فاروق فياض

بقايا موعدين

ربما تنتهي قصتنا
بعد موعدين
وقصيدتين
وقبلتين أو اكثر بقليل
وبعض الأغنيات
لكنها الذكريات...
ناقوس يحاصرنا
كأننا كنائس في حضرة النسيان
وربما يطرق برقي ليلك في غفلة
فيوقظ فيك حنينا خفيا
وتندمين
في لحظة لا يشفع فيها الندم
وربما تمرين بليلي أشباحَ ذكرى
شبيهة بالعدم
كم كانت روحي معتقة بالعشق
فالعشق يزيح بعض الألم
كنت واهما
واعترف
أنكِ وهم جميل
تعثرت فيه صدفة
فانهزم !
لم أقل ...
تريثت
لأني مثقل بالنكبات
وقلت ...

فلذت بالحذر
لأحلق عاليا فوق الخسارات
وامنح عشقا سيأتي
ما يستحق من الأغنيات

شبه

الحقد شبيه الحب
في ارتكابه الحماقات
وعلى الطيبين ان يكونوا اكثر ذكاء
لاكتشافها وفي الوقت المناسب
اما العشاق
فليكونوا اكثر حمقا
لان بهم حاجة اليها دائما

القصيدة

مثلما يفعل نقار الخشب
وهو يختار الأشجار القديمة
للسكن والطعام
تنقر القصيدة رأس الشاعر

وبمهارة الطائر
تنتقي ذكرياته القصية
او الندية
كجراح طازجة
فيسمع زقزقة الكلمات على أوراقه
حينها
يستطيع الذهاب الى صباحه
وهو متوج بالأغاني

رؤيتان لنافذة واحدة

خلف النافذة
وحيدا هناك
يرى عالما من التكنولوجيا
يعبد طريق الهلاك
امام النافذة
أشجار هناك
تعانق عصافيرها
لصنع الحياة

إهداء اليها ...!

اهدي كلي اليكِ
فيرجع منك بعض إلي
وبعضي يحاور بعضي عليك
فيشتاق كلي إلى شفتيك
اني احلق كطير حزين
بكل الفيافي
ولا سماء تسعف في لحظة الوجد
سوى عينيك
واشعر ان جروحي تهدهد
وتغفو برفق على راحتيك
غريبا .. خذيني من الطرقات
خذيني مني ومن تعبي اليك
وخبئيني بعيدا هناك ..
كي استريح، أبدا، في مقلتيك

قراءات متعددة

الشعر

يحول العينين الى نحلتين
ترفرفان ببطء على الصورة المزهرة
وتمتصان رحيق اللغة
فتصبح النساء زهورا
والقلب فراشة عابرة.

الرواية

تحول العينين إلى كاميرا
والراس الى شاشة سينما

المسرحية

تحول العينين الى ستارتين
والجبين إلى خشبة

التاريخ

يحول العينين الى دمعتين
فما بين غزو وغزو
أبطال وقتلى
سبايا واسرى
ونساء على الجانبين
ما بين أرملة وثكلى
بينما الارض تسع الجميع
للعيش ان شئنا
ورغما عنا ذات يوم
تصبح قبرا

الفلسفة

تحول العينين الى عنقاء
تحلق عاليا من رماد الأسئلة.

السياسة

تحول العينين الى منظار
يرصد وجهة نظر العدو
فالأيديولوجيا قبل السلاح
تطلق الرصاصة القاتلة.

مسرحية «خيبة زفاف»

علاء حسن*

الشخصيات:

الرجل الأول: في الخمسين من عمره، يعاني من الشعور المزمن بالخيبة والفشل، هو الزوج الأول للمرأة، تركها بعد شهور من زفافه، وغاب عنها سنوات طويلة.

الرجل الثاني: عمره قارب الستين، يعاني من فقدان حاسة السمع فضلاً عن فقدان ساقه بحادث انفجار، اعتادت زوجته استخدام لوح الكتابة والرسائل النصية المتبادلة عبر الهاتف للتفاهم معه.

الشاب: في الثلاثين من عمره، خريج جامعة وعاطل عن العمل.

المنظر:

غرفة نوم يتوسطها سرير لشخصين، أثاثها ومحتوياتها غير مرتبة، يبدو عليها الإهمال، على حافة السرير توجد ساق صناعية، وعكاز بجوار الرجل الثاني، الذي يبقى طيلة العرض مستلقيا على السرير، وقد غطى جسده العاري بغطاء. في الجانب الأيمن من الغرفة باب الحمام. على أحد جدران الغرفة صورة زفاف بحجم كبير، يظهر الرجل الثاني مع زوجته. في مكان آخر من الغرفة لوح كتابة بالقرب من باب الدخول الى الغرفة، يستخدم في كتابة كلمات للرجل الثاني، الذي يعاني من فقدان حاسة السمع، توجد نافذة قرب الباب تطل على الخارج، تغطيها ستارة قديمة.

(نسمع أصوات طرقات قوية جدا على الباب، ثم يدخل الرجل الأول الى الغرفة. تكشف الانارة عن رجل نائم على السرير، الفوضى تعم المكان)

الرجل الأول: (يضع منديلا يغطي أنفه وفمه) الرائحة لا تطاق (يتجه نحو باب الحمام ويغلقه ثم يخاطب الرجل النائم على السرير) أنت يا رجل الأصوات والرائحة الكريهة لم توقظك من نومك، يبدو أنك في سبات عميق (يلقي نظراته باستياء على محتويات الغرفة) انهض يا رجل، استقبل صباحك بالنظر الى صورة شبابك، جدد حيويتك (ينقل الساق الصناعية إلى مكان آخر من الغرفة) الرائحة الكريهة ستنقلك إلى عالم آخر، قبل حلول موعد أجلك (تصدر حركة من الرجل الثاني النائم على السرير) أنت على قيد الحياة؟ (يستخدم

العكاز لإيقاظ الرجل الثاني من نومه) يا رجل نوم الضحى حماقة، انهض، انهض.
(أصوات تصدر من الخارج يطلقها بائع قناني الغاز)
الرجل الثاني: (يستجيب لحركة العكاز على جسده ثم يزيح الغطاء ويكشف عن وجهه) باشر عملك، أخبرتني زوجتي بأن عامل المجاري سيصل صباح اليوم، أرجوك انجز عملك بسرعة.
الرجل الأول: لست عامل المجاري، جئت لمهمة أخرى.
الرجل الثاني: لازمني الأرق طوال الليل، ما زلت بي حاجة الى النوم.
الرجل الأول: بوصلة عقلك، تشير إلى اتجاه خاطئ.
الرجل الثاني: الوقت يمضي، الرائحة ستقضي علينا، انجز عملك، وأنقذنا.
(أصوات تنطلق من الخارج، تصدر من الباحثين عن شراء أشياء قديمة للبيع)
الرجل الثاني: (يرفع رأسه ويسنده على لوح السرير) من أنت، لا وقت لدي للحديث، انجز عملك، هيا أسرع.
الرجل الأول: (يحتفظ بالعكاز) المهمة صعبة مع رجل خرف.
الرجل الثاني: أنت عامل المجاري، هكذا أخبرتني زوجتي، ماذا تنتظر، أين عدة العمل؟ كيف تعالج انسداد المجاري؟ أتظن أنك أتيت لنزهة؟ يا رجل انجز عملك قبل وصول زوجتي.
الرجل الأول: دع عقلك يستعيد قواه، لست عامل المجاري، لابد أنك سمعت، أو حدثتك عني زوجتي؟ أو شاهدت صورتي، قبل ان تضعا صورة الزفاف هذه.
الرجل الثاني :(يستخدم لغة الإشارة لبيان فقدانه حاسة السمع) لا تبدد وقتك، أمامك عمل طويل وشاق، الرائحة تقتلنا.
الرجل الأول: رائحة قذارة، لكنك اعتدت عليها.
الرجل الثاني: (يشير الى لوح الكتابة) استخدمه، لأعرف من تكون.. وماذا تريد؟
الرجل الأول: (يكتب على اللوح) لست عامل المجاري.
الرجل الثاني: من تكون إذاً.. كيف دخلت إلى بيتي؟
الرجل الأول: إنه بيتي، والمرأة زوجتي.
الرجل الثاني: أعرف أساليب الاحتيال، أخبرني ماذا تريد، وقبل ذلك اخرج من الغرفة، لأرتدي ملابسي، ناولني عكازي، وتلك الساق.
الرجل الأول :(يكتب بعد مسح العبارة السابقة) لن أخرج.
الرجل الثاني: بل تخرج الآن، كن رجلاً، وعد لعقلك ورشدك.
الرجل الأول :(يكتب على اللوح ويقرأ) البيت بيتي.
الرجل الثاني: إنك مجنون مختل العقل، التسلل الى بيوت الآخرين جريمة، اخرج وأنقذ نفسك من العقاب.
الرجل الأول: (يستغني عن الكتابة على اللوح) أعرف الطريق الى بيتي.
الرجل الثاني: (يتحدث من دون أن يسمع ما يقوله الرجل الاول) الفوضى لا تمنحك حق تهديد رجل أعزل.
الرجل الأول: ستبقى في سريرك حتى ينقضي الأمر، وتعرف من أنا، وكيف انتحلت حياتي؟
الرجل الثاني: أنا قادر على مواجهة ضعفي، لن استسلم لمحتال دعي.

(نسمع اصوات تصدر من الخارج يطلقها باعة الخضراوات)
الرجل الأول: ليس من السهل على المرء كشف فجيعته أمام شخص أصم.
الرجل الثاني: لا خيار أمامك سوى الخروج، سأتصل بمن يعيدك الى مشفى المجانين.
الرجل الأول: (يحتفظ بتلفون الرجل الثاني) سأتصل بزوجتي، وأخبرها بعودتي، هذا رقمها عرفته من الرسائل النصية التي بعثتها اليك (يحاول الاتصال ولكن من دون رد من الطرف الآخر).
الرجل الثاني: كف عن حماقتك، أعطني هاتفي وعكازي، اخرج من غرفتي دعني أرتدي ملابسي.
الرجل الأول: (يستخدم الهاتف ثانية ولكن بلا جدوى) لا ترد، الهاتف مغلق.
الرجل الثاني: أرني صفات رجولتك.. سواء كنت مجنوناً أم عاقلاً، أعطني عكازي.
الرجل الأول: الرجولة هي سبب هروبي، غادرت بيتي في لحظة حرجة، طاردتني اللعنة حتى تواريت عن الأنظار، تركت بيتي وزوجتي وكل شيء، استسلمت لمشيئة الأقدار.
الرجل الثاني: ضع نفسك في مكاني، من صفات الرجل النبيل مساعدة الآخر.
الرجل الأول: هربت لأحتفظ ببقايا النبل، الأقدار رسمت مسار حياتي، قررت العودة اليوم، مسكت عنان القدر وقادني نحو سنوات مضت، أبغي التخلص من أعباء الماضي، يا له من عبء ثقيل.
الرجل الثاني: أعطني الهاتف لأضع حداً لهذه المهزلة.
الرجل الأول: (يقترب من صورة الزفاف ويستخدم العكاز في الإشارة الى وجه الرجل الثاني) وجودك في الصورة تعبير صادق لتفاصيل المهزلة، انتحلت ما تبقى من سنوات عمري، عرفت التسلل الى حياتي من نافذة عجزي وضعفي وغيابي. الفوضى جعلتك قناص الطرائد الضعيفة العاجزة عن الجري.
الرجل الثاني: لا أسمع ما تقول، أنت تحدث نفسك، وأراك بهيئة جلاد يستمتع بتعذيب ضحيته.
الرجل الأول: اسأل، من أين للجلاد كل هذه القسوة؟ لا خيار للضحايا سوى الاستسلام، أنا واحد من هؤلاء، وحين استعدت قواي، قررت العودة بإرادتي، ثم وجدت الجلاد في سرير نومي.
الرجل الثاني: أنت رجل تلبسك الوهم، صادفت الكثير من أمثالك، تختلق مهزلة لتكون بطلها، أعطني عكازي.
الرجل الأول: حياتنا مهزلة رائحتها قذرة.
(نسمع أصواتا تنطلق من الخارج)
الرجل الثاني: تخلَ عن عنادك، من المعيب وجودك في غرفة نومي.
الرجل الأول: ارتكبت جريمة بحق نفسي يوم استسلمت لضعفي، لم أكن أقوى على حمل خيبتي، الفشل لازمني، أصبح جزءاً مني.
الرجل الثاني: حدث نفسك بما تشاء، أنا لا أسمعك، كن رجلا وأعطني عكازي، كفَ عن تعذيبي.
الرجل الأول: لا أنوي تعذيبك، سأجعلك تشعر بعذابي، منذ سنوات تطاردني خيبة الفشل، قررت العودة للتخلص من الماضي، من تعاستي، وحان الوقت لإزالة أعبائها. إنك لا تسمع لا تقوى على خطوة واحدة،

هيأتك واحدة من صور تعاستي.
الرجل الثاني: (بصوت مرتفع) أنتم يامن هناك ساعدوني، رجل اقتحم بيتي، يريد قتلي.
(نسمع أصواتا تنطلق من الخارج تصدر من الباحثين عن شراء اشياء قديمة)
الرجل الأول: اصرخ، اصرخ، مهما صرخت وتوسلت، عالمك أصم لا أحد يغيثك، أو يسمع نداءك، اصرخ (يتجه نحو لوح الكتابة ويكتب العالم أصم) العالم أصم.
الرجل الثاني: أنا أصم، هذا قدري، فقدت ساقي وحاسة سمعي يوم قابلت الموت عندما كان يجول في الطرقات، يطرق أبواب الجميع، يدفعهم لجحيم الأرض. للأسف لم أمت، منحني الموت عاهة مستديمة، ما جدوى التشبث بالحياة بعكاز وساق صناعية.
الرجل الأول: (يكتب على اللوح ويقرأ الجملة) هل تعرفني؟
الرجل الثاني: كلا، أعرفك الآن شخصاَ سارقاَ أو محتالاَ مختل العقل.
الرجل الأول: الحقيقة فوق الشبهات، لا يدركها شخص أصم، ما دمت متذمراَ من حياتك غادرها، ودعني أصحح مسار حياتي.
الرجل الثاني: أكتب ما تريد.
الرجل الأول: أريد زوجتي (يكتب الجملة على اللوح)
الرجل الثاني: ابحث عنها في مكان آخر، أخطأت العنوان.
الرجل الأول:(يكتب على اللوح) أريد صورة زفافي.
الرجل الثاني: لا أعرف كيف أحدث شخصا فقد عقله.
الرجل الأول: (يشير الى صورة الزفاف التي تجمع المرأة بزوجها الثاني) لا بد إنها حدثتك عني، ذكرت اسمي، ومازالت تحتفظ بأشياء أخرى تثبت وجودي في حياتها.
الرجل الثاني: الرائحة لا تطاق، دعنا نخرج.
الرجل الأول: ستبقى في مكانك، حتى أعثر على صورة زفافي، لتعرف من أنا ومن أكون.
الرجل الثاني: وجودك في بيتي قذارة.
الرجل الأول: حين تعجز عن مواجهة المفاجآت لا تستسلم لقدرك، قف في مكانك المنزوي، تخلص من أعبائه. أنت (يشير الى الرجل الثاني) الماضي بكل قبحه، أنت سنوات غيابي بسخفها وفواجعها.
الرجل الثاني: أراك تحدث الجدران، متى تدرك خطورة انبعاث رائحة القذارة، أنت جزء منها.
الرجل الأول: الماضي انقضى، والحاضر أتعس، الآن حانت لحظة المواجهة، من القادر على تصحيح بوصلة زمنه، أنا المجنون كما تدعي، أم أنت العاجز عن سماع حديثي؟ هيا استعد للمواجهة.
الرجل الثاني: يا رجل الرائحة تقتلنا.
الرجل الأول: قلها ثانية، أنا رجل ولم أستسلم، قادر على استعادة وجودي.
الرجل الثاني: القذارة خطر يهددنا، وأنا عاجز كما تراني.
الرجل الأول: (يكتب على اللوح ثم يقرأ) أنا رجل.
الرجل الثاني: لكنك عاجز، عاجز عن إنقاذنا.
الرجل الأول: عاجز، صفة لازمتني منذ ليلة زفافي، كلمة فجرت بركان ألمي،

انتظرت المستحيل، لم أعد أقوى على الانتظار، هربت إلى المجهول، عاجز كلمة استحوذت على حياتي في سنوات غيابي، سرقت كياني، حطمت نفسي.
الرجل الثاني: رجل تقوده الأوهام.
الرجل الأول: جئت أشغل فراغا تركته رغماً عني.
الرجل الثاني: الأوهام تقود صاحبها إلى السجن أو مشفى المجانين.
الرجل الأول: لن أستسلم، عدت لأعيش بقية عمري مع زوجتي.
الرجل الثاني: أعطني عكازي، ودعني أرتدي ملابسي.
الرجل الأول: عكازك وساقك مقابل الخروج من بيتي.
الرجل الثاني: أعطني الهاتف.
الرجل الأول: الخروج من بيتي خيارك الوحيد.
الرجل الثاني: نحن نحدث الجدران، أنت في عالم أوهامك، وأنا أنتظر الوصول إلى المحطة الأخيرة، لن أنتظر المودعين، أنا مثل غيري ضحايا نكبات وآلام، يا لتعاسة تلك اللحظة، حين منحني قدري العودة إلى حياة كرهتها، لماذا أنصفني القدر؟ وجعلني أمام الموت، كم حسدت القتلى، لأنهم غادروا ورحلوا، وهناك من لوّح لهم في محطة الرحيل.
الرجل الأول: ارحل الى حيث تشاء، من حقي المكوث في محطة شيدتها أحلامي، أصابني العجز فجأة، استسلمت للضعف، قررت الهروب أبحث عن الخلاص، أنت قتلت حلمي وأملي لكني لن أتراجع.
الرجل الثاني: ما جدوى العيش على مضض، وانتظار موعد الرحيل، أحيانا يدنو الموت مني، لكنه يأبى كتم أنفاسي، لعبته خبيثة لئيمة، لا يعرف الرحمة، كم كان جاحداً حين تركني معلقاً بين الوجود والرحيل.
الرجل الأول: ما تبقى لك من العمر لا يستحق العيش، أنت في الهامش المهمل من الحياة كما تقول بإصرارك على سرقة حياتي ستحمل مزيداً من الآثام والذنوب.
الرجل الثاني: زوجتي تعاني المرض الخبيث، غادرت البيت هذا الصباح لتلقي علاجها، من واجبي أن اكون معها في محنتها، لعلها تستعيد عافيتها، لم تنتظر مني المساعدة، لكننا اتفقنا على مواجهة الأقدار معا، حتى يحين موعد المصير المحتوم.
الرجل الأول: إنها زوجتي، تركتها شابة يافعة تتمتع بكامل عافيتها، بعد أسابيع من زفافي استسلمت لعجزي، ارتكبت حماقة بل جريمة بحقها، تركتها بمفردها، تنتظر وتنتظر بلا جدوى. من تلك النافذة الضيقة عرفتَ كيف تتسلل إلى بيتي، وتضع على جدران غرفة نومي صورة زفافك.
الرجل الثاني: لا أحد يمتلك طلقة الرحمة ويستخدمها في الوقت المناسب، حين يصبح الموت أمنيتك تخونك الشجاعة، تستسلم لقدرك، تنتظر الرحمة من رصاصة طائشة.
الرجل الأول: لا تنتظر مني تحقيق أمنيتك، ابحث عن الموت وسط الرصاص الطائش في الخارج، ستجد حلاً يضع حداً لمهزلة حياتك.
الرجل الثاني: أعطني عكازي، أو اقتلني بأية وسيلة تشاء.
الرجل الأول: ما عدت لأقتل احداً، جئت أبحث عن حياة تركتها هنا، أنا واثق بأن هذه الغرفة تحتوي اشياء تركتها تثبت حقي،

أنت لا تسمع، لكنك تدرك جيداً من أكون.
حين تعود زوجتي ستكتشف الحقيقة بنفسك.
الرجل الثاني: اتركني إن كنت عاجزاً عن قتلي، أو أعطني عكازي.
(أصوات إطلاق نار في الخارج مصحوبة بلغط)
الرجل الأول: ننتظر عودتها، حينذاك ستعرف من الطارئ على حياتها.
الرجل الثاني: كف عن تعذيبي، أيرضيك وضعي المزري؟ كن رؤوفا بحالي
الرجل الأول: مصيرك بيدك، احزم أمرك، وتخلص من حياتك.
(صوت إطلاق الرصاص يتزامن مع طرقات على الباب، ثم يدخل شاب الى الغرفة يبدو عليه الخوف والهلع)
الشاب: (مخاطبا الرجل الأول) احكم غلق الباب، أنهم يطاردوني.
الرجل الأول: لا أحد يستطيع الدخول، الرائحة الكريهة تطرد من يقترب.
الشاب: يطاردوني منذ أسبوع، يريدون قتلي.
الرجل الأول: المجرمون يتناسلون، امتهنوا القتل وارتكبوا أبشع الجرائم.
الشاب: لا تطلق أحكامك جزافاً على شخص لا تعرفه، وأستغرب وجودك هنا في بيت جاري.
الرجل الأول: ضع لثامك على وجهك، اجعل نفسك عامل المجاري، وتخلص من مطارديك.
الشاب: لا أجيد مثل هذا العمل.
الرجل الأول: لأنفاذ نفسك.
الرجل الثاني: (مخاطبا الشاب) أرجوك ساعدني، أعطني العكاز.
الشاب: دعنا نساعده.
الرجل الأول: الأمر لا يعنيك.
الرجل الثاني: لا أعرف كيف تسلل إلى بيتي، إنه مختل العقل يتلذذ بتعذيبي.
الشاب: من المروءة والشجاعة مساعدته، أنت تفرض عليه إرادتك بالقوة.
الرجل الأول: (ساخرا) المروءة؟ أنا الآخر أبحث عنها منذ زمن بعيد.
الرجل الثاني: خذ عكازي، اطرده من بيتي.
الرجل الأول: البيت بيتي، والمرأة زوجتي.
الشاب: الرجل جاري، أعرفه منذ سنوات، لا تؤجج عذاباته بجنونك.
الرجل الأول: أطلق ما شئت من الصفات على المجنون، إنه عاد ليصفي حساباته ويستعيد حياته.
الشاب: أمرك غريب، لست ساذجا لتمرر عليّ أكاذيبك.
الرجل الثاني: ماذا تنتظر.. اطرده من بيتي، إنه محتال، مختل العقل...؟!
الشاب: (مخاطبا الرجل الأول) ماذا تريد؟
الرجل الأول: صورة زفافي.
الشاب: الآن أيقنت بأنك مجنون.
الرجل الأول: ابحث عنها ستجدها في الغرفة، أو في مهملات تحت السرير.
الشاب: المغفلون يصدقون كلامك، أنصحك بالخروج، واترك الرجل آمنا في بيته.
الرجل الثاني: ماذا تنتظر؟ احسم الأمر وضع حداً لسلوكه العدواني.
الشاب: ابحث عن صورة زفافك في مكان آخر، أنك لا تستطيع إعادة الماضي.
الرجل الأول: الماضي انقضى تخلصت من ثقل أعبائه.
الشاب: رميت أعباءك هنا على كاهل هذا الرجل العاجز، أعطني العكاز.
الرجل الثاني: الرائحة تقتلني، تكتم أنفاسي.

(نسمع أصوات لغط تصدر من الخارج)
الرجل الأول: إنها رائحة آثامكم، طاردتني ولاحقتني في سنوات غيابي.
الرجل الثاني: (يصرخ) أنتم يامن هناك ساعدوني.
الشاب:(يقترب من الرجل الثاني ويضع يده على فمه) لا تصرخ، أنا هنا لمساعدتك.
الرجل الأول: أنت عاجز عن مساعدة نفسك. هناك وراء الجدار من ينتظرك.
الشاب: هناك من يريد قتلي، وأنت تساومني على حياتي.
الرجل الأول: كلنا في مستنقع، الرائحة الكريهة تهدد وجودنا.
الشاب: دعنا إذاَ نبحث عن خلاص.
الرجل الأول: فات الأوان.
الرجل الثاني: أعطني عكازي، أنتما تريدان قتلي.
الشاب: اعط الرجل عكازه، من المعيب استعراض قوتك أمام شخص عاجز.
الرجل الأول: الضعف قدرهُ، لم أكن اتصور منتحل حياتي، يبدو بهذه الصورة المزرية.
الشاب: أناشد ضميرك دعنا نساعده.
الرجل الأول: أتناشد قاتلك أن يرحمك؟ لقد هربت منه، قادتك قدماك الى هنا، استمتع بملاذك الآمن حتى تجد مخرجا يحفظ حياتك.
الشاب: هربت من القتلة.
الرجل الأول: أنا هربت من نفسي، عندما عجزت عن مواصلة حياتي.
الشاب: أمجنون أنت؟ لا تضعني في حيرة.
الرجل الأول: لا فرق بين العقلاء والمجانين حين يتلبسك الخوف، وتخشى الخضوع لمصير تعس.
الرجل الثاني: اتصل بزوجتي ولتعد بسرعة.
الشاب: نبعث لها برسالة
الرجل الأول: (يحاول الاتصال، ويأتي الرد بأن الهاتف مغلق) لا جدوى من الإتصال.
الشاب: (يكتب على اللوح ويقرأ) الهاتف مغلق.
الرجل الثاني: أكتب لها رسالة.
الشاب: (يقترب من الرجل الأول) أعطني الهاتف.
الرجل الأول: قف مكانك لا تقترب.
الشاب: دعنا نعرف أخبار المرأة، أنا جارها.
الرجل الأول: الأمر لا يعنيك، أنا الأجدر بمعرفة أخبارها.
الرجل الثاني: إلى متى أنتظر؟ أريد الدخول الى الحمام.
الرجل الأول: افعلها في مكانك، لا تتحرك.
الشاب: يا لك من سجان فاقد الرحمة والضمير.
الرجل الثاني: كفى، كفى أيرضيكما تعذيبي.
الشاب: الرجل لا يقوى على تحمل الألم.
الرجل الأول: (يرمي قنينة ماء فارغة للرجل الثاني) خذ.. أظنها تفي بالغرض.
الشاب: أنت تخطف الرجل وتجعله رهينة.
الرجل الأول: سلوك سائد هذه الأيام.
الشاب: اسمع أنا لا أخاف منك، لطالما واجهت من هدد حياتي وسرق أحلامي، رفعت صوتي مع الآخرين لدحر القتلة.
الرجل الأول: إنهم يملؤون الزقاق، بإشارة واحدة تكون بقبضتهم.
الشاب: تستطيع أن تكون واحداَ منهم بإرادتك، أيشرفك قتل شخص أعزل ورجل عاجز عن الحركة؟ أنت الوحيد قادر على مساعدته.

الرجل الثاني: (يرمي الرجل الأول بقنينة الماء) اخرج من بيتي (صارخا) ساعدوني.
الرجل الأول: اصرخ، دعهم يسمعون صوتك، ويجدون ضالتهم.
الشاب: (يتجه نحو الرجل الثاني ومع الحديث يستخدم لغة الإشارة) كف عن الصراخ، سأجد وسيلة لمساعدتك.
الرجل الأول: عكازه مقابل صورة زفافي.
الشاب: ما زلت مصراً على جنونك.
الرجل الأول: لا أطلب المستحيل مجرد صورة مرت عليها سنوات.
الشاب: (يشير إلى الصورة المعلقة على الجدار) إنها الصورة الوحيدة في البيت.
الرجل الأول: هناك صورة أخرى، التقطتها في يوم زفافي، ابحث عنها وستعرف حقيقتي.
الرجل الثاني: ما عدت قادراً على تحمل الألم.
الشاب: لا أحد يصدق أوهامك.
الرجل الأول: حقيقتي هنا في هذا البيت، حان موعد كشفها.
الشاب: حقيقتك وهم تلبس عقلك المريض.
(نسمع أصوات إطلاق نار تنطلق من الخارج تصاحبها صرخات ولغط غير مفهوم)
الرجل الأول: مازالوا يبحثون عنك، التزم الصمت وأبحث عن صورة زفافي.
الشاب: لا تضعني في خيار عسير بين الموت أو الاستسلام لا وهامك.
الرجل الثاني: (يصرخ) أنتم يامن هناك ساعدوني.
الشاب: لا تصرخ، لا تطلب الرحمة من أعدائك.
الرجل الثاني: خذ عكازي، لا أقوى على الانتظار.
الشاب: اعطه العكاز، ارحم حاله.
الرجل الأول: لا أطلب الثأر أو الانتقام من الرجل، لكنني أراه يلخص محنتي ومرارة سنوات غيابي.
الشاب: لكنك تهدد الرجل في بيته.
الرجل الأول: البيت بيتي والمرأة زوجتي، تلك هي الحقيقة.
الشاب: لا أحد يصدق قولك.
الرجل الأول: صورة زفافي تثبت من أنا، واجهوا حقيقتي بشجاعة.
الشاب: كن ما شئت، من منعك من الاستمرار بحياتك؟
الرجل الأول: هربت من نفسي، تطاردني لعنة عجزي.
الشاب: صالح نفسك، وأصلح عجزك.
الرجل الأول: كيف؟ والحاضر يرفضني يمنعني من العودة لزوجتي.
الشاب: المرأة انتظرت عودتك، ولكن بلا جدوى، ارتبطت برجل آخر، وهو الآن زوجها.
الرجل الأول: اليوم عدت لأعيش سنوات عمري الضائعة.
الشاب: ابحث عن حياة أخرى تصنعها لنفسك.
الرجل الأول: من يستطيع صنع حياته؟ أنت، أنا، أم الآخرون، حاضرنا مختطف ومستقبلنا مجهول، تشبثت بالماضي لأعيش بقية عمري.
الشاب: ماضيك قادك لمأزق حاضرك.
الرجل الأول: كلنا في مأزق، خلاصي بالعثور على صورة زفافي.
الرجل الثاني: الرائحة لا تطاق، أيرضيكما بقائي في سريري، سأموت غرقا بالمياه

القذرة.
الرجل الأول: دعه يدفع ثمن آثامه.
الشاب: الرجل بريء لم يرتكب جرما عندما أصبح الزوج الثاني لأمرأه تركها زوجها الأول، وغاب سنوات طويلة.
الرجل الثاني: (مخاطبا نفسه) انهض ازحف، لا تطلب الرحمة من هؤلاء.
الشاب: (يحاول مساعدة الرجل الثاني) قواك تخونك.
الرجل الأول: اتركه في مكانه، أخبره من أنا، اكشف له الحقيقة.
الشاب: يا رجل ارحم حاله اعطه عكازه.
الرجل الأول: فات الأوان (يرمي العكاز خارج الغرفة) ليزحف نحو عكازه.
الشاب: سلوك أحمق لا تكن جلاداً لرجل بريء.
الرجل الأول: اجلب عكازه إن استطعت، هيا اخرج وواجه من ينتظرك في الخارج.
الشاب: القسوة لا تمنحك القوة، عجزك رافقك في ماضيك وهيمن على حاضرك. عرفت حكايتك منذ كنت صغير السن، عودتك المتأخرة لا تعني استعادة حياتك السابقة، لا تستطيع اعادة الزمن إلى الوراء.
الرجل الثاني: أسرع واجلب عكازي.
الشاب: (يكتب على اللوح) لا أستطيع.
الرجل الثاني: ماذا تنتظر؟ اخرج واجلب العكاز.
الشاب: أنت لا تسمع، ولا ترى ما يجري في الخارج.
الرجل الثاني: عكازي على بعد خطوات، كن شجاعا وساعدني.
الرجل الأول: في مثل هذه اللحظة قررت الهروب، استسلمت لعجزي وتواريت عن الأنظار.
الشاب: حكايتك باختصار، أنك فشلت في ليلة زفافك وقررت الهروب.
الرجل الأول: هربت من كلمات وأوصاف أحالت حياتي الى جحيم يستعر.
الشاب: جحيمك صنعته بنفسك. اليوم جحيمنا يصنعه الآخرون، وأنت واحد من هؤلاء.
الرجل الأول: اخرج واجلب عكازه أنقذه من الجحيم، أعرفت معنى العجز الآن، إنه الفشل الخذلان الهروب.
الشاب: شجاعة الأعزل لا تحميه من حامل السلاح.
(أصوات استغاثة مصحوبة بأطلاق الرصاص)
الرجل الثاني: تحرر من خوفك، اطرحه على الأرض واجلب عكازي، بقوتك تتحدى المستحيل.
الرجل الأول: طلق زوجتك وخذ عكازك (يكتب على اللوح كلمة طلقها) طلقها.
الرجل الثاني: لن أخضع لمطالبك.
الشاب: أنت تسلب كرامة الرجل، تطلب منه المستحيل.
الرجل الأول: هو من سلب حياتي، حان موعد رد الحساب.
الرجل الثاني: استعن بأي شخص في الخارج، هيا أسرع ساعدوني.
الرجل الأول: لا يستطيع الخروج الموت بانتظاره (يستطلع ما يجري في الخارج عن طريق الباب ثم يغلقه).
الشاب: المروءة شجاعة، دعني اخرج سأضع حداً للمهزلة.
الرجل الأول: قف في مكانك، لا تغامر بحياتك، إنهم ينتظرون لحظة خروجك.
الشاب: دعني اخرج سيكون مصيرنا الغرق

في مياه قذرة.
الرجل الثاني: اتصل بزوجتي، أخبرها بما يجري.
الشاب: لا أحمل هاتفي تركته في بيتي. (يكتب على اللوح) لا أحمل الهاتف.
الرجل الثاني: استخدم هاتفي اتصل بها.
الشاب :(للرجل الأول) لنجرب الاتصال.
الرجل الأول: (يجرب الاتصال) هاتفها لا يرد.
الشاب: (يكتب على اللوح) الهاتف لا يرد.
الرجل الثاني: حاول مرة أخرى، الرائحة الكريهة تقتلني، سوف نغرق بالمياه القذرة. ساعدوني.
الرجل الأول: (ينظر من النافذة الى الخارج) اغلق فمه، إنهم يقتربون، وأنت تقترب من نهايتك.
الرجل الثاني: أنا لا أسمع ولكنني أشم رائحة المياه القذرة.
الشاب: اهدأ، اهدأ أرجوك.
الرجل الأول: لا خلاص من المياه القذرة، سوف تنتشر، وأنتم غرقى في مستنقع أفعالكم وآثامكم.
الشاب: لا تحملنا آثام غيرنا، لم نقترف الذنوب ليكون مصيرنا معلقا بين حياة رثة، موت يطرق أبواب الجميع.
الرجل الأول: الآثام تراكمت، وضاعت فرص النجاة.
الشاب: امنحه طوق النجاة، لا تحمله أسباب هروبك، أنت عدت لتنتقم من عجزك وفشلك، الرجل كما تراه لا يقوى على النهوض من سريره.
الرجل الأول: طوق نجاته بيده، يطلق زوجتي ويرحل.
الشاب: لا تحمله أخطاء ماضيك، عش الحاضر واخضع لواقعه.
الرجل الأول: يطلقها ويرحل، وإلا سيكون مصيره الغرق بالمياه القذرة.
الشاب: القذارة تهدد الجميع.
الرجل الأول: (تصله رسالة نصية عبر الهاتف) وصلت رسالة منها.
الشاب: ماذا تقول؟ اقرأها.
الرجل الأول: (يسلم الشاب الهاتف) انظر، اقرأ.
الشاب :(يكتب على اللوح) ماتت.
الرجل الثاني: اجلب عكازي.
الرجل الأول: (يحمل ساق الرجل الثاني الصناعية) حذار من الخروج.
الشاب: لا أطيق الرائحة الكريهة.
الرجل الأول: إنها خيارك الوحيد للحفاظ على حياتك (يخرج حاملا ساق الرجل الثاني الصناعية، فيما ترتفع أصوات الرصاص في الخارج)

إظلام تدريجي مع موسيقى الختام

---

*كاتب وإعلامي عراقي

دفاتر ضياء حسن.. قراءة جمالية

د. معتز عناد غزوان

عرف الفنان العراقي ضياء حسن بأسلوبه المتميز في الرسم من خلال تعامله مع سطح اللوحة وتقسيماتها الفضائية التي اخذت اشكالها تنساب بحسب التقسيمات اللونية المتضادة احيانا والمنسجمة في احيان اخرى، لقد مثلت لوحاته الهوية الشخصية والتعبير الذاتي المرتبط بأفكاره وتنوع الشكل وتداخل الالوان وتشابهها بجمالية نسقية تدعو الى الدهشة والنشوة. وهذا ما يذكرنا بجهود الفنان موندريان وأعماله الجريئة التي حاول التعبير عنها باختزال الواقع والطبيعة والبيئة الى اشكال والوان، واصفاً اياها بالقولبة الجديدة او اعادة التشكيل، ولعل ضياء حسن على ايمان تام بان نسق الحياة اليومية وظاهرها يرتبط بالبساطة والتوازن من خلال لوحاته الجديدة الخارجة عن المألوف ودفاتره الملونة، والتي من شأنها ان تنتج متعة جمالية ورفاهية للإنسانية، كما قدمها لنا (موندريان) وبشكل موجز، مبادئ أساسية ومهمة لمنجزه الفني وأثره في المجتمع الإنساني. فهو اولاً وقبل اي شيء رسام وليس فيلسوفاً، ومن ثم فقد نشأت نظريته هذه من خلال ممارسته للرسم وليس عكس ذلك، لاسيما انه يشابه الى حد كبير فلسفة موندريان في القولبة الجديدة او اعادة التشكيل.

يؤكد ضياء حسن في منجزه الجمالي بان الفن التجريدي، هو تكوين متناغم دائماً، بغض النظر عن حجم ولون العناصر الموجودة فيه، وطالما كانت تلك العناصر متكافئة ومتساوية، بهذه الطريقة فانها ذات قدرة تعبيرية وجمالية جادة ومؤثرة، وهنا تتشابه فلسفته هذه مع فلسفة موندريان الذي يقول: "يظهر الفن للحياة كيف يمكن ان تكون الاشياء، اذ يبين ويكشف الفن التشكيلي بان الحرية الحقيقية ليست مساواة متبادلة انما هي تكافؤ متبادل في الفن، فالأشكال والالوان لها ابعاد واماكن مختلفة، بيد انها متساوية ومتكافئة في القيمة، وبالطريقة نفسها، ومن خلال تكافؤ متبادل اوسع للعناصر الذاتية الفردية، اذ يمكن ان تكون حياتنا افضل مما عليه الآن،

حيث يخلق الفن نوعاً من التكافؤ والانسجام المتبادل بين مكوناته الشكلية، وتظهر الحاجة الى هذه الحرية في حياة الانسان".
ومن وجهة نظري كمتابع لأعمال ضياء حسن فانه بالتأكيد جزء من تجربة مهمة في الرسم العراقي المعاصر ومغامر استطاع ان يختط أسلوبه بتشكيل جديد وبناء معاصر متقن كما قام به من قبله (موندريان) ولاسيما عندما كان جزء من مدرسة الدائرة والمربع التي كان يرأسها الفنان والكاتب الفرنسي ميشيل سيفور، والتي تأسست عام 1920م، إذ كانت هذه المدرسة انطلاقة جديدة في عالم الفن الحديث ولاسيما الرسم التجريدي من خلال تعامل فناني هذه المدرسة التجريدية بالعلاقة ما بين الدائرة والمربع كأشكال معبرة وحية، واستطاعوا التعبير من خلالها عن خلجاتهم وإرهاصاتهم ومشاعرهم التي ارتبطت بالجمال والقدرة التعبيرية والتقنية والأسلوبية. إذ وضعوا شعاراً لتلك المؤسسة او المدرسة يكون فيها للدائرة والمربع دورهما الكبير.
ان المتتبع لأعمال ضياء حسن يؤكد نظرته على ان الفن غير التقليدي موجه كخطوة اولى نحو التوازن الذي ينتج من خلال التخلص من جميع أنواع التكرار والرتابة. فضلاً عن ان الفن غير التقليدي هو فن غني بالأشكال ذات المعاني والدلالات المحددة والمعينة، كالإشارات الرمزية والمجازية التي تمتد الى شيء غير مرئي خارج إطار اللوحة، كما ان هناك اصطلاحات عدة، كاستخدام المنظور للإيحاء بالابعاد الثلاثة، والعمق، واستعمال القيم الضوئية والظل لإظهار القولبة عبر التجرد عن العناصر الذاتية والرمزية والسردية فضلا عن (الخدع) فالفن الحر هو فن قادر على اظهار وبيان تراكيب مكافئة ونقية لنا تدعونا الى الاستمتاع والتغذي بالجمال.
لقد مثلت تجربة ضياء حسن وتشكيلاته الجمالية انعطافاً مهماً في ميدان يواجه الخيال او حتى الغرابة والخروج على المألوف والمعاصرة اليوم وغيرها من المدارس المهمة التي كانت متوهجة بفكرها ومنطلقاتها لتأتي تجربته الذاتية الناضجة محولة الطبيعة من أشكال واقعية الى اشكال مجردة وتقسيمات فضائية لونية مدهشة.
لقد طغت الأشكال المجردة ولاسيما المربعات والدوائر والمساحات اللونية في معظم فضاء اللوحة لديه فضلاً عن الدفاتر الملونة التي استطاع ان يقدمها لنا بحلة جديدة وبتزويق رائع وخطاب جمالي مؤثر وحتى وجود بعض الحروفيات العربية، بل انها أصبحت نظاماً أسلوبياً خاصاً به. اذ مثلت تلك الدفاتر عبر تكويناتها الجمالية ونظامها الخاص في توزيع الكتل والتكوينات المختلفة التي كان يجمعها احيانا في أسفل الصفحات مع فضاء لوني واحد، او أسفل الصفحات وبفضاء لوني متنوع في احيان اخرى. وهذا ما يذكرنا بحكم نقدي للناقد والفنان الفرنسي (ميشييل سويفور) في حديثه عن تجربة (موندريان) اذ يقول "يرسم موندريان فراغاً كبيراً في العدم، وفي هذا العدم لون ابيض نقي كالعدم نفسه، فهو يمتد ويمتد ويمتد، بعيداً ليصنع الفراغ.. وبعيداً وكأنه يزرع هناك بذرة نقاء وصفاء.. ليخلق فضاء جديداً ايجابياً، فانه يحتوي على بذرة جديدة بكل معنى الكلمة" انها صورة ناقد يحلل ما يجده من أفكار تقترب الى روح الواقع وجدلية العلاقة

ما بين الشكل والفراغ واللون والتكوينات المضافة الى اللوحة كالحروفيات عند ضياء حسن وتجربته الابداعية، من خلال ذلك نؤكد بان ثنائية (التجريد) و(الابداع) هما جسد واحد لخطابه المعاصر ولاسيما تلك الدفاتر الملونة. وبالتأكيد ان الملهم الحقيقي في أعمال ضياء حسن هو البيئة والطبيعة والمرجعيات الثقافية والاجتماعية التي نشأ فيها وارتبط روحيا بها، وهنا يؤكد المفكر والفنان (بول كلي) ان الفنان الحقيقي لا يستعير من الطبيعة، إنما يكون منها ومثلها. وقد اتبع النحات والرسام (جان آرب) هذا المبدأ، اذ يقول "ان الفن ينمو عند الرجل كما تنمو الفاكهة من الأشجار، فالرسوم البسيطة هي رموز تمثلت في معظم أعماله، اذ وجدت الطبيعة نفسها بقوة، مطواعة، قوية، لكنها ليست سهلة، بل شديدة، تبقى مطواعة للإنسان ورباطة جأشه".

ان أسلوب ضياء حسن في منجزه الإبداعي الذي خرج فيه على حدود اللوحة المتعارف عليها بأربعة أضلاع ليكون لوحات دائرية تدور حول مركزها بألوانها وأشكالها وجمال تكوينها، فضلاً عن دفاتره التي اخذت قالب الكتاب وصفحاته، و السطوح الملونة التي نشعر بها وندركها من الالوان الاساسية (الاحمر، الاصفر، الازرق) او القيم اللونية (الاسود، الابيض، الرمادي)، التي يمكن ان تمثل حوار التضاد والانسجام، والتي وصفها الفيلسوف الاغريقي (سقراط) بقوله ان العالم هو عبارة عن تفاعل مستمر ما بين المتناقضات او الاضداد: فلا نهار بدون ظلام، ولا ابيض بدون أسود، ولا خير من دون شر. ان هذه الاضداد او التناقضات في أعمال الأعرجي هي في تفاعل مستمر ومتنام، فهي حركة متجهة نحو الاتزان والانسجام او الهارمونية. اذ يصطلح الفيلسوف الإغريقي (هيراقليطس) على هذا النمط من التكوين في ان كل الوجود قابل للحركة ولكن لن يبقى منه شيء. فضلاً عن ذلك، فقد أراد ضياء حسن تحقيق تفاعل مستمر بين هذه المتناقضات او الأضداد في معظم لوحاته ودفاتره الملونة. والتي وصفها (موندريان) بالتوازن الديناميكي أو الحركة الديناميكية.

المفقود والموجود من المهيمنة الفردوسية في قصائد الشاعر عبود الجابري

ليث الصندوق*

ضمن المرحلة الأخيرة لتطور البحث الشكلاني، أي مرحلة (إدماج الصوت بالمعنى) أقرّ جاكوبسون بأن مفهوم (المهيمنة) كان مفهوماً مثمراً، وقد عرفها كونه "عنصراً بؤرياً للأثر الأدبي، أنها تحكم، وتحدد، وتغير العناصر الأخرى، كما أنها تضمن تلاحم البنية"[1] وهي "عنصر لساني نوعي يهيمن على الأثر في مجموعه، ويعمل بشكل قسري، لا راد له، ممارساً بصورة مباشرة تأثيره على العناصر الأخرى"[2] إنها العنصر الإجباري في الأثر الأدبي وفي سياق زمني محدد، وفي حدود ذائقة جماعية معينة، كحضور أو غياب عدد المقاطع في الشعر المقطعي، أو القافية أو النبر.

ويوسّع جاكوبسون مفهومه للمهيمنة بتوسيعه لمفهوم الوظيفة الجمالية، إذ لا يمكن للأثر الإنشائي "أن يُحصر في الوظيفة الجمالية، بل هو يتوفر إضافة إلى ذلك على وظائف أخرى، وفعلاً فبنيات أثر إنشائي ترتبط في الغالب ارتباطاً وثيقاً بالفلسفة وبخلق اجتماعي معين"[3]. أن ربط جاكوبسون للمهيمنة بمرحلة الصوت والمعنى وتوسيعه لوظائف الأثر الإنشائي خارج الحيثيات الجمالية يشجعنا أن نسحب مفهوم المهيمنة خارج إطاره القسري للنوع أو الجنس الأدبي ليشمل الإحالات الدلالية النوعية المائزة في الأثر الشعري لشاعر ما، وبالتالي ستكون ضمن القاموس الشعري لكل شاعر مهيمنته الدلالية الخاصة به.

وعلى وفق هذه الإمكانية بوسعنا تشخيص المهيمنة الدلالية التي تشغل الحيز البؤري الأوسع في قصائد الشاعر عبود الجابري، وتلك المهيمنة هي الفردوس المفقود، أو الوطن في صورته الأوسع، مع احتمالات تضييقها حسب متطلبات سيرورته التخييلية ليتحوّل إلى بيت، بل وإلى ما دونه فضاءً وتشكلاً، فلتلك المهيمنة مجالها الدلالي المتسع، وتقلباتها الرمزية التي بموجبها يتلاعب الشاعر بسيمياء المكان، ويشكلها كيفما شاء. فالوطن والبيت والمنفى والضياع والتشرد والغربة مع ظلالها وتنويعاتها هي نماذج علاماتية من المجال السيميائي للشاعر وإن تبادلت دلالاتها بأخرى مقاربة لها في

المعنيين البعيد والقريب. ومع هذا الحضور، والحضور المغيّب تتجدد المهيمنة، ويفرض تجددها على النصوص ألا تكرر نفسها من جهة، مع إبقاء خيط دقيق يربطها ببعضها من جهة أخرى.

أما الاستراتيجية التي يتبعها الشاعر في تلبية متطلبات مهيمنته، وإقناع المتلقي بجدوى مظاهرها المتقلبة والمتباينة، فمن المفارقة أن تكون استراتيجية تغييب، فهو لا يقدمها كما يُتوقع منه على وفق المعينات المرجعية الموروثة للدلالات المألوفة وتواتراتها في الأدبيات المتداولة والمستهلكة، بل كما تفترضه خطاطة تستعين بتقنيات المفاجأة والصدمة اللتين تأتيان بالنقيض من المترادف والقرين، وبالغريب من النمطي والمعتاد، وبالبعيد من القريب وبالعكس. وتحت قشرة هذا المزيج ينمو المعنى مفارقاً الأصل الذي نشأ منه ليصدم المتلقي الذي يبدأ بالبحث عن العوامل التي دفعت لتلك المفارقات الصادمة.

ليكن مدخلنا للبحث عن مفاتيح تلك المهيمنة قصيدة (همهمة) حيث تتشكّل من مفصلين، المفصل الأول مخصص لاعترافات أنا المتكلم. أما المفصل الثاني فمخصص لتشريعاته، وما بين المفصلين، أو ما بين الاعترافات والتشريعات ثمة رابط خفي تختزله العنونة (همهمة) عبر انتمائها إلى جذرها اللغوي (الهم) وما يتفرّع عنه من معان لعل الأدنى منها إلى مضمون النص أنها، بحسب الفيروزآبادي [4] "تردد الزئير في الصدر من الهم" وليس ببعيد عن ذلك الأدنى، وبحسب الفيروزآبادي أيضاً[5] أنها "الكلام الخفي" . وربما جمع الشاعر المعنيين في توليفة نصيّة شاء لها أن تكون ذات منحيين متضادين، فهي من جهة ساخنة صخّابة كونها تمتح من صدر موّار بالهموم، وهي من جهة أخرى هادئة خفيضة النبرة كونها موصومة بـ (الكلام الخفي) لكن رابط العنونة ليس وحده ما يجمع المستويين، بل أن رابطاً آخرَ أقوى هو لُبّ المفصل الثاني أي (التشريع)، فالاعترافات، أي المفصل الأول تأتي أو يأتي معها مفصلها في أثر التضارب ما بين اعتراف المتكلم/المذنب بعدم مسؤوليته عن التشريعات من جهة أولى (سأعترف بأني لم أشرّع)، وما بين اعترافه الصريح في المفصل الثاني كونه المسؤول عن التشريع ، بل هو مشرّع بارع (أعترف بأني مشرّع بارع للخوف مما لا يُخيف) أو (أنا مشرّع خجول لكراهيتي للأوطان).

وعلى هذين المنحيين المعجميين المتضادين (الصاخب والخفي) تتوالى هموم الشاعر متراصة ضمن المفصلين المذكورين، واللذين يمكن تطويق أبعاد ملامحهما العامة كالتالي:

المفصل الأول:

وهو مفصل الاعترافات، وضمنه يعرض الشاعر بين يدي قارئه ثلاثة اعترافات، بيد أنه قبل الخوض في تفصيلاتها يقرّ ابتداءً بالذنب (كما ينبغي لمذنب). وبالتالي فهو يقطع الطريق على كل احتمال بالبراءة، كما أنه يقرن هذا الاعتراف المسبق بالمتطلبات التي ينبغي عليه أداؤها بوصفه مذنباً، وتلك المتطلبات هي اعترافاته الثلاثة.

لكن قبل الدخول في تفاصيل تلك الاعترافات ينبغي التساؤل: أمام أية محكمة يقف هذا المتهم، ومن هم قضاته، لاسيما أنّ النص موجّه من المتكلم إلى نفسه، دون أن تكون هناك أية إشارة صريحة إلى مخاطب ما. بيد أن المفصل الثاني يُختتم بإشارة مموهة إلى

مخاطبين اثنين معنيين بأزمة الشاعر الروحية من دون أن يتوجه إليهما الخطاب مباشرة هما (الله والوطن) وسنأتي إلى ذلك في حينه.
أما الاعترافات الثلاثة التي شكلت البنية الدلالية للمفصل الأول فهي:
1 -(سأعترف بأني لم أشرّع قانون الأبواب)
2 - (... ولأني لا أملك بيتاً)
3 - (سأعترف كذلك بكراهيتي للنوافذ)
كل اعتراف من الثلاثة مدعوم بتفاصيل من مجاله الدلالي، فاعترافه الأول ألزمه بالبراءة من كل لوازم الأبواب (النحاس والحديد والخشب) وفضّ علاقته ب (بالأقفال والمفاتيح). أما الاعتراف الثاني فقد جاء بصيغة ضمنية وخالية من فعل الاعتراف إذ تمّ تمييع دلالته المكثفة في المسوّغ الجُرمي الذي اضطره للاعتراف وهو عدم امتلاكه بيتاً (... ولأني لا أملك بيتاً). أما حرف العطف (الواو) السابقة لهذا التسويغ فهي التي أدرجته ضمن التسلسل الثاني لقائمة الاعترافات الثلاثية. والجريمة التي تمخض عنها هذا التسويغ تمضي بدورها ضمن ثلاثة مسارات:

المسار الأول:

تدفع إليه سذاجة بالتفكير بالبيت المفتقد، أو بمجاله الدلالي، أو بكل ما يحيل إليه البناء بمظهره العام، أو بكل ما يمكن أن يكون ملاذاً أو حمىً:

(ولأني لا أملك بيتاً
فإن من السذاجة أن أتعب نفسي
في التفكير بالأسوار وارتفاعاتها)

المسار الثاني:

يمضي باتجاه التغاضي، أو عدم العناية بالتفاصيل الدقيقة للمجالات الدلالية للبيوت ممثلة بمواد بنائها: (فلا يهمني إن كانت من حجر أو من زجاج).

المسار الثالث:

فتعبر عنه حالة عدم الاهتمام بساكني البيوت، وضمن هذا المسار جاء الذكر على ساكنين اثنين محتملين هما (الطيور وعابري السبيل) وعلى طريقتي التعاطي (المأوى والمتكأ) اللتين تتوافقان مع طبيعة كل منهما:

(لا يهمني إن كانت مأوى للطيور
أو متكأً لعابري السبيل)

في الاعتراف الأخير/الثالث (سأعترف كذلك بكراهيتي للنوافذ) يضع المجال الدلالي للنوافذ جانباً بعد أن استنفذ طاقة هذه الآلية في الاعترافين السابقين، واكتفى بتبيين سبب كرهه للنوافذ بوصفها عيناً مخصوصة للتلصص. ويبدو أن سبب الكره هنا لا ينصب بالدرجة الأولى على النوافذ على الرغم من أنها لا تسلم منه، بل ينصب الكره أساساً على فعل التلصص إلى حدّ أنه يكره التلصص حتى على من يطرق بابه، ومن دون شكّ أن فعل الطرق هنا يأتي كنية لفعل التلصص، بينما الباب هو كنية عن الذات، فكأنه أراد القول إنه يكره أن يتلصص حتى على من يتلصصون عليه.

المفصل الثاني:

مع الاعتراف الأخير يُختتم المفصل الأول ويبدأ المفصل الثاني، ولكن هذا الاختتام، وتلك البداية غير منفصلين عن بعضهما كما سبق التبيين، لأن اعترافات المفصل الأول استُفتحت بإقرار الشاعر عدم مسؤوليته عن تشريع قانون الأبواب، وما تمخّض عنه من الاعترافات الثلاثة السابقات هي تفرعات متباينة عنه، بينما المفصل الثاني هو تجلية لطبيعة تلك التشريعات والتي يمكن ردّ دوافعها بالإجمال إلى الاعتراف الثاني من

المفصل الأول، أي (... ولأني لا أملك بيتاً)، فنمطا التشريعات الاثنان اللذان تمخض عنهما المفصل الثاني يدوران في فلك الحرمان من البيت، وقد تتسع دلالة البيت استعارياً لتشمل الوطن. وهذا هو محور المهيمنة الدلالية التي ستنيخ ظلالها على أغلب قصائد الشاعر.

أما طبيعة تشريعات هذا المفصل فمقرونة بضمير المتكلم عن عمد إصراراً منه على الاعتراف بمسؤوليته الشخصية عن:

1 – (الخوف مما لا يُخيف) ولا يكتفي الشاعر بإصراره على تشريع هذا النمط من الخوف، بل يقرنه ببراعته في تشريعه (أنا مشرّع بارع للخوف مما لا يُخيف) مع تفريعه لأنماط الخوف الذي لا يُخيف التي تضم (التشرّد والرياح الباردة والحنين لمعطف دافئ والجلوس على الرصيف أو على مقعد مهجور):

(أنا مشرّع بارع للخوف مما لا يُخيف
التشرّد مثلاً
ومصاحبة رياح باردة
الحنين مثلاً آخر
لمعطف يقيك ثرثرة البرد في ضلوعك
والجلوس حيثما تكلّ قدماك
على رصيف أو على مقعد مهجور
وذلك أقصى ما يُمكنكَ
أن تهديه لنفسك من الترف)

ومن الواضح أن تلك التفرعات التي وصمها الشاعر ساخراً بأنها (لا تُخيف) هي الدافع الأساس للخوف، لأنها ببساطة بدائل البيت كما هي في واقع الضائع والمشرّد حتى ليصبح تأمين بعض تلك المتطلبات البسيطة هدية ونوعاً من الترف:

(... أقصى ما يمكنك
أن تهديه لنفسك من الترف)

2 – وعلى الضد من إصرار الشاعر على الاعتراف بمسؤوليته الشخصية على التشريع (ببراعة مما لا يُخيف) تراجع بضع خطوات إلى الوراء لتتحول براعته إلى خجل حين يتعلق الأمر بكراهيته للأوطان (أنا مشرّع خجول لكراهية الأوطان). وإذا كنا نتفهم دوافع الكراهية لدى من فقد البيت، يبقى السؤال لماذا الخجل؟ ولماذا كراهية الأوطان؟ وإمعاناً في تعقيد الإجابة على السؤالين يقرن الخجل من كراهية الأوطان بردود أفعال تتوافق معه (أي مع الخجل) في النعومة واللين: (شتائم ناعمة/ النظر بعين دامعة/ تحريك اليدين بهمهمة) وبضم تلك الردود إلى بعضها، وتوجيهها الوجهة التي خطها لها الشاعر، مع ربطها بدعائم دلالية من المفصل الأول ربما نكون اقتربنا من الإجابة على السؤال الثاني، فليس من المنطقي أن يأتي الشاعر بردود أفعال مناقضة لـ (الكراهية والشتائم والنظر إلى السماء وتحريك اليدين) عندما تكون الأوطان هي المسؤولة عن تشريد أبنائها ، أو بالأحرى مسؤولة عن المظلمة التي ألمح إليها في المفصل الأول عبر (... لأني لا أملك بيتاً) والتي سينتهي إليها المفصل الثاني بوضوح:

(أنا مشرّع خجول لكراهية الأوطان
بشتائم ناعمة ربما
والنظر بعين دامعة إلى السماء
وتحريك اليدين بهمهمة
لن يفهمها إلا الله
وأبناؤه الذين لا بيوت لهم
ولا أوطان)

إنّ هاجس البيت والوطن هما المهيمنة الدلالية التي ينفتح لها قاموس الشاعر بصور ومفردات المنفى والتشرّد والضياع والغربة

ثم يضفي على هذا المزيج الصوري والبياني ما يزيحه عن دلالاته المعيارية وعن سياقاته النمطية ليطلقه رموزاً تستقبل أكثر من معنى ومن تأويل. ففي قصيدة (قبل أن يجنّ الفتى) تبرز ظاهرة التذكر قرينة لظاهرة النسيان، فالفتى يتذكر لينسى استعداداً لاستقبال المنفى الذي يعني محو الذات، لذلك يستقبله بحزن:

(وكعادته، يغرق في التذكر طويلاً
ليمحو الأسماء والأمكنة
ويمضي إلى منفاه حزيناً)

ومع ذلك تفشل محاولته في (التذكر/ النسيان) لأن وحدتي هذه الثنائية الضدية تتبادلان موقعيهما، وعندئذ يتحوّل النسيان إلى تذكر، ومع هذا الانقلاب المفاجئ يمضي الفتى إلى منفاه حزيناً من أجل أن:

(يعيد قراءة صور المدن القديمة
تلك المدن
التي تشتعل في رماد المكاتيب)

وكما تذكّر الفتى لينسى، ثمّ نسيَ ليتذكّر، يكرر الشاعر ثنائية أخرى ذات صلة بمهيمنته، وما يتفرع عنها من دلالات ورموز. وفي ثنائيته هذه التي نستلها من قصيدته (دير الآباء اليسوعيين) يسير لا ليصل، بل ليضيع، ممثلاً ضياعه بحجر يركله طفل:

(ها أنا ذا أسير في الشارع ذاته
أنحدر في مشيتي
كما لو كنت حجراً صغيراً
يركله طفل عابث)

أما الافتتاحية فقد مضت إلى الطرف الأقصى من دلالات البيت، ولكنه هذه المرة البيت النقيض للساكن النقيض، إنه الظل الذي تأوي إليه الشمس، أو تستند إليه، ولا فرق مجازياً ما بين الإيواء والاستناد فكلاهما يحيلان إلى الراحة والاطمئنان، ولكنّ الغريب في هذه الافتتاحية الغرائبية أنّ الشاعر هو الموكل بالبحث عن ظل تستند إليه الشمس، وليست الشمس هي المعنية بإيجاده لنفسها، وإن الشاعر يحلف بعجزه عن إيجاد هذا المسند وكأن هناك من يُلزمه على هذا البحث:

(وأيم الله أني لا أجد ظلاّ
تستند إليه الشمس
عندما تكفّ عن هذيانها المضيء)

في قصيدة (في الحب أكثر مما ينبغي) يكون السؤال عن البيت، أو عن طريق البيت، هو ذاته السؤال عن الذات، وعندما يضيع الطريق إلى الأول، يفقد المرء طريقه إلى الثاني، إنها حالة تداخل في الاتجاهات، أو حالة تماهي يصبح فيها الاثنان واحداً، وبذلك تدخل الذات ضمن مجازات قاموس المهيمنة، فالجملة الابتدائية بعد أداة الشرط غير الجازمة (لو) أو ما يسمى بـ (حرف امتناع لامتناع) ونعني جملة (ولو كنت أعرف أين أنا) أحالت إلى نمطين من الضياع، نمطين متماهين في بعضهما، أو ناجمين عن بعضهما، الأول هو الضياع في المكان، ويحيل إليه اسم الاستفهام (أين)، والثاني ضياع الذات، ويحيل إليه ضمير المتكلم (أنا):

(أعرف أنك ستسألني السؤال ذاته
أين أنت؟
ولو كنت أعرف أين أنا
لأرشدت قدمي إلى طريق البيت)

ومن الطبيعي أن تُركز كل احتمالات البحث عن هذه المهيمنة في حدود المكان، ولكن ليس المكان الفيزياوي بأبعاده الثلاثة، ومرتسماته الجغرافية، إذ متى كانت الحلول الواقعية، والمظاهر الطبيعية من خواص الشعر؟ إنها ضديدته، لأنها ستحوله عندئذ إلى مقولات منطقية وإلى محمولات مغلقة، ولذلك يركز

الشاعر بحثه عن عناصر مهيمنته في اللامكان. وفي اللامكان لا يبحث عن البيت، لأنه سيحمل البيت والمرأة المخاطبة معاً على ظهره، وهذا هو حاله في قصيدته (في الحب أكثر مما ينبغي) حيث يتجسد الضياع في ثلاثة مواقع: أولها في الفعل (أدور) الذي يحيل إلى عدم الاستقرار، وثانيهما في مفردة (البحث) المفارقة لمفردة (العثور)، وثالثهما في اللامكان:

(أنتِ في البيت
بينما أحمل البيت على ظهري
وأدور بكما
بحثاً عن زقاق ليّن
لنتحدّث عن الحب في اللامكان)

والضلالة عند الجابري لا تختزن دلالة يقينية مناقضة لدلالة الإيمان، بل تأتي دوماً بمعنى الضياع، والضياع لا يهدد استقرار المرء فحسب، بل يمتدّ أثره حتى إلى الحجر. وإن كان الاستقرار في الوطن هو نهاية لسردية الضياع بالنسبة للمرء الضال، فأن الرأس هو المستقر لسردية الضياع بالنسبة للحجر الضال. أما زجاج الآخرين فهو قرين المنفى. ثمّ يتبدّى فعل الاعتراض (أي اعتراض طريق الحجر المتوجه إلى زجاج الآخرين) كمحاولة لإيقاف تكرار تجربة المنفى، حتى لو نجم عن تلك المحاولة شجّ الرأس. وهكذا تتميّع المسافة ما بين عناصر المجاز المتباعدة، وتصبح إحدى ممكنات التأويل كما يلي:

- الحجر الضال = المرء الضائع
- الرأس = الوطن أو المُستقر
- زجاج الآخرين = المنفى

(تعرّف جيداً
على الحجر الضال
اعترض طريقه برأسك
حينما يكون متجهاً إلى زجاج الآخرين)

———————

* شاعر وناقد عراقي

الهوامش

1- عدد من المؤلفين، نظرية المنهج الشكلي – نصوص الشكلانيين الروس، ترجمة: ابراهيم الخطيب، الشركة المغربية للناشرين المتحدين ومؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 1982، ص 81
2- نفسه ص81
3- نفسه ص83
4- الفيروزابادي، القاموس المحيط، تحقيق د. يحيى مراد، القاهرة، مؤسسة المختار، ص1119
5- نفسه ص1119

تأسيس المتحف العراقي
بين رسائل المس بيل والوثائق العراقية

د. رهبة أسودي حسين

بعد الاحتلال البريطاني للعراق وضُعت الآثار القديمة بعهدة دائرة المعارف كتدبير تمهيدي، فبعد ان احُتلت بغداد بمدة وجيزة صدر بيان باسم قائد الجيش العام ينص على وجوب المحافظة على الآثار القديمة والنصب التذكارية، وعلى منع المتاجرة بالعاديات المزورة، وقد بُني البيان على القانون التركي، فمنع تدمير او تشويه أي نصب تذكاري قديم او موقع تاريخي، ومنع بيع الاثار القديمة الا بإجازة، وقد زار مواقع الحفريات الالمانية في بابل أحد الحكام السياسيين، ووجه بالحفاظ على ما عُثر عليه من آثار احكم خزنها بعناية، وعيّن الحُراس في مواقع الآثار للحيلولة دون نهب الزوار لها.

وفي ربيع 1918 أُجريت التنقيبات خلال مدة قصيرة من الزمن في (اريدو وتل اللحم واور القديمة والعُبيد) وقد أرُسلت جميع الآثار القديمة التي عثُر عليها في اثناء التنقيب الى المتحفة البريطانية وكانت اللُقى التي عُثر عليها في (العُبيد) ذات اهمية فائقة تعود الى زمن لا يتأخر عن سنة (3000) قبل الميلاد. وتم نقلها الى (المتحفة البريطانية) وبالنظر لما شعرت به السلطة البريطانية من خطر تعرض اللُقى الثمينة للاخطار المختلفة فقد قررت ان تمنع القيام باجراء أية تنقيبات أخرى حتى تكون حكومة ما بين النهرين قد اسست دائرة خاصة للاثار القديمة مزودة بعدد كافٍ من الموظفين والخبراء فلم يجر اي تنقيب من بعد ذلك.

وفي ربيع 1920 زار بين النهرين البروفسور (اي تي كلي) الذي يشغل كرسي الاشوريات والادب البابلي في جامعة (بيل) وكان الغرض من زيارته ان يؤسس في بغداد (مدرسة امريكية للابحاث الشرقية) تنفيذاً لما ورد في وصية الدكتور ويليام هيز وارد حيث اهُديت بموجبها مكتبة بابلية قيمة الى بغداد لقاء بعض الشروط، وفي الوقت نفسه تقريباً جاء البرفسور برستد، الاستاذ في جامعة شيكاغو، بحملة من المختصين الى العراق فزار عدداً من مواقع الآثار القديمة، وكانت مقترحات المس بيل العاجلة بخصوص الاثار:

1. اقامة سلطة آثارية على غرار الدائرة الموجودة في مصر او تلك التي كانت قد اسُست في فلسطين، وستكون هذه السلطة حامية لجميع المواقع والنصب الأثرية القديمة، كما سيقع على عاتقها واجب منح الاجازات للاشخاص والجمعيات المختصة بالحفر والتنقيب بموجب شروط توضع مقدماً، ومن الضروري ان يجري تحت إشرافها استقصاء آثاري شامل.

2. تؤسس السلطة الآثارية متحفا في بغداد حالما يتيسر المال اللازم لها، ولكن الحصافة والفطنة يجب ان يستعان بهما عند الاحتفاظ بالآثار القديمة فان اللُقى التي يمكن أن تتأثر بجو البلاد يجب ان لا تترك في بغداد. كما ان الآثار ذات الاهمية الخاصة للبحث الآثاري يجب ان تتهيأ للطلاب في أماكن أمينة.

لقد عملت المس بيل على متابعة اعمال الصيانة الآثارية بنفسها فهي تذكر بخصوص طاق كسرى "نحن نبحث الان فيما يمكن عمله لتقوية أسس طاق كسرى ننقذ جدار الجبهة العظيم ليس هناك أمل بسقوطه الا ان فيه تصدعا بارزا من الخارج وقد حفرنا بعض الحفر بالقرب من الاسس، فذهبتُ في صباح الاحد الباكر مع الميجر ويلسن (المهندس المعماري) لتفقدها أنه يقترح ان نبني دعامة ساندة كبيرة في محاذاة الاسس تحت الارض وأخشى ان نضطر الى تمديدها بصورة مائلة قرب الجدار الى علو يناهز مئة قدم فوق الارض، مما سيشوه المنظر، ولكنها سوف تبقي الجدار سالما على قدر الإمكان".

وتتكرر زياراتها للمناطق الاثارية فتقول "توجهت الى الديوانية... وكان غرضنا ان نرى تل نفّر، ففعلنا، ونفر اشد المواقع الآثرية لفتا للانظار رأيته هنا على الاطلاق، فالتل كبير متسع، يعلو هرم معبده علوا شاهقا فوق السهل ويستطيع المرء ان يرى بوضوح طوبوغرافية البلد من جدول النيل القديم، مجرى الدغارة السابق، الذي يخترقه من الوسط، ومن السهل تصور المعبد مع مكتبته ومدرسته الدينية في أحد الجانبين والمدينة التجارية في الجانب الاخر.. وتمتد في حقبة طويلة من الزمن تبلغ ثلاثة أو اربعة الاف سنة". كانت المس بيل تعمل على اقرار قانون تنقيب الآثار و"قد طلبتُ من (الملك فيصل) قبل كل شيء معاونتي في تمشية (قانون التنقيب) الذي كنت قد أعددتهُ بعناية فائقة بعد استشارة السلطات القانونية، وقد تعهد بتشريعه في مجلس الوزراء ان له آراء صائبة جداً حول الآثار... وقد وافق على اقتراحي بوجوب تعييني مديرة مؤقتة لدائرة الاثار في حكومته، إذا وافق السر بيرسي على ذلك، علاوة على واجباتي الاخرى وعند ذاك ستتسنى لي تمشية كل شيء بموافقته راساً، وسيكون ذلك شيئا ممتازاً".

وقد تم تعيينها مديرة فخرية لدائرة الاثار وقد ربطت الدائرة بوزارة الاشغال وتمت مناقشة القانون في جلسة مجلس الوزراء وبحضور المس بيل ووزير الاشغال (صبيح نشات) الذي وضعت لائحته واخذت بالدفاع عنه بعد قراءته لمدة ساعتين فقرة فقرة وتمكنت من امراره بصورة مبدئية. ولكن القانون كان هدفاً لدراسة ياسين الهاشمي، وقد طالب بادخال بعض التعديلات عليه، فمثلاً لم توضع في القانون المذكور الاحتياطات اللازمة لمراقبة الآثار عند التنقيب ولما سأل المس بيل عن ذلك، أجابته ان الاعتماد

في ذلك يتوقف على شرف المنقبين. ولما لم يكن ياسين الهاشمي واثقاً من شرف هؤلاء عرض على مجلس الوزراء اقتراحاً اوضح فيه بان كل الجماعات التي اشتغلت بالتنقيب عمدت الى تهريب الآثار والمتاجرة بها وطالب بمنح الوزير صلاحية اجراء المراقبة على اعمالهم ولكن مجلس الوزراء لم ينظر فيها نتيجة لتدخل المس بيل، وسعى الهاشمي مرة اخرى لتقديم مقترحاته في تموز 1923 (خلال غياب المس بيل) عندها أيقن أن المجلس سيسنده وبالفعل نجح هذه المرة عندما وافق المجلس على مقترحاته بجلسته المنعقدة في 5 تموز 1923 وقد صيغت مقترحات الهاشمي في قانون مؤلف من ستة أبواب ومواد مختلفة.

تذكر المس بيل حادثة تبعث الأسى حيث كان اقتسام الاثار يتم عن طريق (طره كتبه) بين المس بيل التي تنقل الاثار الى بغداد وبين البعثات الاجنبية التي تأخذ طريقها الى المتاحف العالمية، فقد اصرت على الحصول على منظر الحلب الشهير الى المتحف العراقي "ان منظر (حلب البقر) الفريد يشير الى الحياة في هذه البلاد من عهد سحيق في القدم". ان هذا المنظر (تقدر قيمته بعشرة الاف باون استرليني على الاقل وسوف لا اخبر الحكومة العراقية بذلك، لئلا يقرروا بيعه فيسودن وجهي ووجوههم. وتقدر قيمة (حشرة الجعل الاسود) بالف باون ولكني حصلت عليه بتوفيق من الله عن طريق الاقتراع بالنقود (طره كتبه) "كانت المس بيل تذهب الى المناطق الاثارية لغرض شراء ما يعثر عليه سكان هذه المناطق جراء حفرهم فيها وهي "(ارخ) العاصمة البابلية العظيمة في الجنوب... وقد وجدت هناك ان سكان احدى القرى المجاورة كانوا يحفرون في التل الاثري ويستخرجون بعض اللقى، فاشتريت منهم لمتحف بغداد اختاما واسطوانات ومقدارا من لقى (التيراكوتا) ببضع آنات فقط".

تعد مسؤولية الحفاظ على الاثار مسؤولية كبيرة، فهي تذكر عندما تعرضت بغداد الى الفيضانات كيف حافظت على اللقى الاثارية "نقلت جميع اللقى الثمينة جداً، وتقدر قيمتها بعشرات الالاف من الباونات وأقول بالمناسبة أنها لم تستخرج لو لم أكن أنا هنا لأضمن حمايتها على الوجه المطلوب.. أقول نقلت كل هذا وكانت شذر مذر الى البناية الجديدة ولا تعد هذه مسؤولية تجاه العراق فقط بل تجاه العلم الآثاري بوجه عام". وبعد حصولها على المكان المخصص كمخزن تقول في رسالة لها: "كم يعجبني ان تشاهدوا المتحف أنه سيكون متحفا حقيقيا بالتمام، يكاد يشبه المتحف البريطاني الا انه أصغر منه بقليل. وقد اوصيت بصنع جارورات طويلة غير عميقة مركبة في دواليب لتحفظ فيها كسر الفخار بحيث يكون بوسعك ان تسحب احداها فتتفرج على القطع السومرية، ثم تسحب الثاني فترى الخزف البارتي وتسحب غيره فترى اللقى القديمة جدا، ثم اللُقى العربية والخزف العربي وكل شيء. وفي رسالتها المؤرخة في 7 تموز 1926 اي قبل وفاتها بـ (5) ايام تذكر لوالدها "أنا جداً مسرورة لأنكم استلطفتم صور متحفي، واتمنى لو انني استطيع تصوير غرف الطابق الثاني لأنها بحالة مرتبكة الان... اجد من الصعب جداً عليّ ان أنظم أمر الدواليب فحتى الدولابان الصغيران اللذان استطعت ان ارتبهما حتى الآن قد استنفدا شيئا كثيراً

من الفكر واعادة الترتيب قبل ان يصبحا في وضع مرضٍ، وتأتي بعد ذلك كتابة الرقع والعناوين، ومن حسن الحظ ان كاتبي العربي يتمكن من كتابتها كتابة جميلة، لذلك فأن كل ما يترتب عليّ هو ان أعطيه قائمة بما يجب ان يكتب ازاء كل قطعة، وأتركه، يتم واجبه بينما أكون أنا منشغلة بعملي في الدائرة".

وبهذا مرّ تأسيس المتحف بمرحلتين: المرحلة الأولى بتخصيص بعض الغرف في بناية السراي (القشلة) في الطابق الأسفل، حيث ولد المتحف في العام 1923، وكان لا يحتوي إلا على مجموعة صغيرة من القطع الأثرية المختلفة، ثم تطور حتى نمت مجموعاته في 1926 بسبب تعدد البعثات (التنقيب الأثرية)، فضاقت به الغرف الصغيرة وصار من الضروري إيجاد محل مناسب له، ولكن ظروف 1926 لم تكن لتسمح بإنشاء بناية خاصة للمتحف العراقي، لذلك خصُصت له البناية التي كانت ملحقة بمطبعة الحكومة (حالياً المتحف البغدادي)، ولم يكن المتحف يحتوي في بادىء الأمر سوى قاعة واحدة كبيرة (معرض ومخزن) احتوت على آثار صخرية ومقادير من القطع الفخارية، وهذه هي المرحلة الثانية من تأسيس المتحف التي استمرت حتى سنة 1930 حيث حدث تغيير كبير في أمانة المتحف، ففي مطلع سنة 1931 طرأ تبدل في إدارة الآثار القديمة، فاتجهت بعد ذلك معظم الجهود نحو إصلاح حالة المتحف الداخلية وتكريس قسم من العناية لاتخاذ التدابير الفعالة للمحافظة على المواقع الآثارية. تضمنت الإصلاحات الداخلية في بناية المتحف وجعلها لائقة من حيث المظهر، وفتُحت الصناديق المكدسة وتم عرضها ضمن معرض فصلي في (1930 - 1931) لقي استحسانا على الصعيدين الداخلي والخارجي، وقد ضمت إدارة المتحف (الشعبة الفنية والتي تضم: المختبر والتصوير الشمسي والنجارة والتسجيل وتصنيف الآثار) أما الشعبة الإدارية فتضم (الكادر الإداري: المدير والمشاور وأمين المتحف..). أما قاعات المتحف فهي سبع قاعات أُعدت لعرض الآثار وعلى وفق الفترات التاريخية المختلفة لتاريخ العراق القديم، وعلى الرغم من ذلك كانت هناك رغبة في ضرورة البحث عن بناية أو بناء متحف جديد نظرا للتوسع في عمل البعثات الأثرية وتكدس القطع الأثرية في صناديق من دون عرضها.

والوثائق العراقية التي تحمل اهتماما بتأسيس متحف يليق بقطع الآثار المختلفة ومنها ما حملته الوثيقة المؤرخة في (سري/ 4 أيلول/ 1929) والتي رفعها وزير المعارف إلى رئيس الوزراء والتي تضمنت "رأيت من أن الواجب يدفعني لعرض ما يأتي حول المتحف العراقي.. لا يخفى ان بناية المتحف الحالية ضيقة جدا. وبسبب هذا الضيق أصبح من الصعب المحافظة عليها ومراقبتها، حيث أن الآثار التي ترد إلى المتحف تبقى موضوعة في الصناديق، ولا يمكن طبعا عرضها على الناس... وفي الواقع ان شخصا أو شخصين امريكيين قد راجعا الحكومة بشأن بناية خاصة للمتحف. على أنني لا أرى من الموفق ان تعير الحكومة اهتماما كبيرا لمراجعات من هذا القبيل لتهمل واجبها الأصلي بهذا الشأن. وأعتقد أنه حتى إذا تحققت أمثال تلك المراجعات فأن الضرر الذي يتأتى يكون أكثر من النفع المنتظر منها. فبناء على ذلك ارى أن الواجب يقتضي

على الحكومة العراقية ان تعين عرصة لبناية المتحف العراقي وتستحضر الخطة اللازمة لإنشائه على أساس التوسع التدريجي وان تدخل في الميزانية القادمة المخصصات الممكنة لتنفيذ هذا المشروع..

أرجو تأييد فخامتكم لهذا المشروع الذي يضمن شرف التأسيس للحكومة العراقية، ولا يجعله منحصرا بأجنبي عن البلاد..''، علما ان الوثيقة المؤرخة في (20/ اب/ 1929) الموجهة إلى وزير المعارف من سكرتير مجلس الوزراء بخصوص أن هناك مبادرة في أن أحد الامريكان يتبرع بمائتي ألف دولار لبناء متحف للآثار في العراق، وان مجلس الوزراء مرحب بهذه المبادرة، ويؤمل النظر في مسألة قبول هذه الهبة أو عدمه إلى أن يقدم العرض الرسمي للهبة، ويطلّع على الشروط التي يشترطها الواهب، وقد وافق(الملك صاحب الجلالة على هذا العرض). فمقدمات هذا العرض جاءت على وفق الوثيقة المؤرخة في (5/ ايلول/ 1929) وعلى وفق (الاجتماع مع الملك فيصل في 3/ تموز/ 1929 والمعتمد السامي البريطاني والقنصل الأمريكي، حيث تشكلت لجنة منهما مع ممثل الجانب العراقي حسين أفنان.

لقد كانت غاية الهبة تقوم على الاكتتاب لجمع المال المطلوب لبناء المتحف. ويبدو أن هذا المشروع لم يُكتب له النجاح أو المباشرة بالإنجاز وليستمر المتحف في المكان نفسه (شارع المأمون) وعلى وفق ما جاء بدليل الجمهورية العراقية لعام 1960، حيث حدد موقعه، كما تضمن الدليل ساعات زيارة المتحف، مشيرا إلى تشييد مشروع بناية جديدة خاصة بالمتحف العراقي من قبل وزارة التخطيط في جانب الكرخ (الصالحية) على مساحة 45000 متر مربع، والمبنى مكون من طابقين وتتخلل المعرض مساحات خضراء ويتألف من (13) قاعة متباينة المساحات. وضع تصاميم المتحف مهندس ألماني وأنجزته شركة لبنانية بدأت عام 1957 وانتهت منه عام 1963، وافتتح في 9 تشرين الثاني 1966.

الهوامش

1- العراق في رسائل المس بل: ترجمة: جعفر الخياط قدم له وزاده تعليقا عبد الحميد العلوجي، وزارة الإعلام، بغداد، دار الحرية، 1977.
2- المس بيل: فصول من تاريخ العراق القريب، ترجمة جعفر الخياط، مطبعة دار الكتاب، بيروت، 1971.
3- دليل المملكة العراقية... لسنة 1935 – 1936، (رئيس التحرير: محمود فهمي درويش صاحب الامتياز: يعقوب خوري)، مطبعة الأمين، بغداد، 1935.
4- دار الكتب والوثائق: البلاط الملكي/ الآثار العامة، و12/ ص3، رقم التسلسل 1863/311.
5- دار الكتب والوثائق: البلاط الملكي/ الآثار العامة، و11/ ص3، رقم التسلسل 1863/311.
6- دار الكتب والوثائق: البلاط الملكي/ الآثار العامة، و13/ ص3، رقم التسلسل 1863/311.
7- دليل الجمهورية العراقية لسنة 1960: الأستاذ محمود فهمي درويش، والدكتوران مصطفى جواد وأحمد سوسة، دار مطبعة النعمان، بغداد،1961.

آخر ما كتبه الأديب الراحل شكيب كاظم قبيل رحيله مؤخرا وخصنا به

موت المعري.. موضوعا خلافيا

الفيلسوف الأعمى الذي نقل الفلسفة إلى الشعر

شكيب كاظم

اختلف الباحثون بشأن ميتة فيلسوف المعرة الأعمى؛ أبي العلاء المعري (363 - 449)، فقد قال بعضهم إنه مات متجرعا سما بعد أن ضايقه المؤيد في الدين داعي الدعاة الفاطمي (470هـ) من خلال رسائله الخمس التي وجهها إليه، الأمر الذي دفعه إلى الموت، فلا يعقل أن يقُدِم رجل بلغ من الكبر عتيا، إلى إماتة نفسه وفيه شيء من إيمان، والمعري على الرغم من كل الذي قيل فيه وعنه؛ مؤمن وليس في ذلك مراء، إذن كانت وراء هذه الميتة أسباب للبحث والتنقيب والتنقير في بطون الكتب، وصولا إلى الحقيقة، فرجعت إلى مجموعة من الكتب التي بحثت في الموضوع العلائي، للدكتور طه حسين (1973) وكتاب (أبو العلاء المعري.. ناقداً) للباحث العراقي د. وليد محمود خالص، وكتاب (أبو العلاء المعري) للدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) (1998)، وقد ترجّح أنه مات ميتة طبيعية، فقد إعتل - كما تقول بنت الشاطىء - في اوائل شهر ربيع الأول من عام 449هجرية، وعاده الطبيب المشهور أبو الحسن المختار(إبن بطلان)، وكان ممن يتردد عليه للزيارة والسماع، أثناء مقامه بديار الشام، ولعل إبن بطلان هو الذي وصف له كأسا من شراب أتاه به القاضي الأجل أبو محمد عبد الله (إبن أخيه) فإمتنع عن شربه، فحلف القاضي ايمانا مؤكدة لا بد أن يشرب ذلك القدح، فاعتذر وهو ينشد:

أعبد الله وخير من حياتي وطول ذمائها موت مريح

تعللني لتسقيني فذرني لعلي أستريح وتستريح

وأحاط به خاصة أهله من بني إخوته وبني عمه، ومر عليه يوم وثان والعلة لا تفارقه، فلما كان اليوم الثالث عرفوا أنها علة الموت، وكان أن سألهم أن يكتبوا فتناولوا الدوى (الدوى: جمع دواة وهي المحبرة في لغة هذه الأيام) والأقلام فأملى عليهم غير الصواب؛ فنظر بعضهم إلى بعض وكأنهم يتساءلون عما به، فما عهدوا عليه اختلالا في المنطق أو

سهوا بما يملي، عندئذ ألقى القاضي أبو محمد القلم من يده وأمسك دمعه، وهو يهمس لمن حوله من الأهل: أحسن الله عزاءكم في الشيخ فإنه ميت، ومات في غداة غده، تاركا وصيته في أن يكتبوا على قبره:

"هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد"

عثر في كتاب صدر أواخر عقد الأربعين من القرن العشرين - وهو من خزانة كتب المرحوم أبي - ويقع في أربعة أجزاء اشتمل على مؤلفات أبي العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري منها:

رسالة إبن القارح، رسالة الغفران، رسائل الإخوان، رسالة الملائكة، رسالة الشياطين، رسالة الأخرسين، وما جرى بين المعري وأبي القاسم المغربي، كما اشتمل الكتاب على دراسات علائية بقلم د. طه حسين، والأستاذ محمد فريد وجدي (1954)؛ وجاءت في الجزء الرابع منه، نصوص جديرة بالقراءة والتأمل، إذ من المعروف للباحثين أن داعي الدعاة الفاطمي، كان قد أرسل إلى المعري رسائل آذته نفسيا، وكان لهذه الرسائل صيت ذائع ودوي عظيم، وافتن الناس في أقوالهم، فقال بعضهم: إن داعي الدعاة أفحمه، ثم دس له السم، فمات.

استبعد أن يكون داعي الدعاة قد دس له السم، لأنه لم يكن يعنيه أن يفتك بالمعري قدر ما يعنيه أن يشنع عليه، ويظهره بمظهر المكابر المائل عن الشريعة ولقد لجأ المعري إلى كثير من عبارات الثناء التي الفناها منه، والتي نعتقد أنها كانت من أهم الأسباب التي حببت إليه سائليه... وقد ذكر بعض الرواة: إن المعري شرب السم بعد أن فضحه داعي الدعاة وأمره بالحضور إليه والإقرار أمامه بالإسلام! وهو قول لم يؤيده دليل، على أنه لو وقع لكان له صدى عظيم ولأشار إليه ولو واحد من الشعراء الذين رثوه، وقد نيفوا على الثمانين.

قال بعض الناس: ولعله مات غما بعد أن ظهر أمره وهتك ستره

وأقول بدوري: ولعل أجله المحتوم قد وافاه حينئذ، فأوّل الناسُ هذه المصادفة التي حملت شتى التأويلات واكثرها رجاحة هي أن رسائل داعي الدعاة قد آذته نفسيا، وهو الرجل الحساس، الذي ما أذى برغوثاً والذي امتنع عن أكل اللحم والبيض وكل حيواني المنشأ مدة زادت على الخمسة والأربعين عاماً. فزادت في علله علة، وجعلته يرتشف كأس المنون لا كأس السم أو الشوكران، وقد وصف المعري نفسه جوابا على الرسالة الرابعة "والعبد الضعيف العاجز قد افتقر إلى مثل ذلك، ولو مُثل في حضرته السامية لعلم أنه لم يبق فيه بقية لأن يُسأل، ولا أن يجيب لأن أعضاءه متخاذلة، وقد عجز عن الصلاة قائماً، وإنما يصلي قاعداً، وإني لأعجز- إذا اضطجعت- عن القعود، فربما استعنت بإنسان فإذا همّ بإعانتي وبسط يديه لينهضني، اضطربت عظامي، لأنهن عاريات من كسوة كانت عليهن، فعرّتهُن منها الأوقات المتمادية، وإنما عنيت ما كان عليهن من اللحم..."

المعري لا يريد هذا النقاش، وداعي الدعاة يلح ويلحف في استمرار هذا النقاش.

المعري لا يستطيع الإفصاح عن آرائه أمامه، وهو يحاصره نكاية به - وقد عرف العلة والأسباب - وزيادة في تعذيبه، فإذا أعتذر عن أكل اللحم بحجة أنه يمتنع عن شيء أحله الله، في حين أن ثمة من يبيح لنفسه ما حرم الله، وفرق ما بين الإثنين عظيم، فيقول داعي الدعاة: أليس النبات موضوعا للحيوان الذي يمتار منه - من الميرة؛ أي الطعام - وبوجوده

وجوده واستقامته حفظ أعوانه وولادة مواليده؟ وإنما يستولي الحيوان على النبات بالقوة الحساسة، التي ترجح بها على النبات من حيث كونه نامياً فقط وليس بحساس، وعلى ذلك فالقوة الإنسانية مستولية على الحيوان، استيلاء الحيوان على النبات لرجحانها عليه بالنطق والعقل، وما ينبغي أن يكون أرأف بها من خالقها (..) وإما أن يجد سفك دماء الحيوان خارجاً من أوضاع الحكمة، وذلك اعتراض منه على الخالق الذي هو أعرف بوجوه الحكمة". فإذا أعتذر منه عن أكل اللحم بقلة ذات اليد وبفقره، كان جوابه: "وقد كاتبتُ تاج الأمراء - حرس الله عزه - أن يتقدم بإزاحة العلة فيما هو بُلْغَة مثله من ألذ الطعام ومراعاته على الإدراد والدوام، لتتكشف عنه غاشية هذه الضرورة ويجري أمره على أحسن ما يكون من الصورة".

ولكن المعري اعتذر عن قبول الزيادة في رزقه بأبلغ اعتذار فقال:"وأما ما ذكره من المكاتبة في توسيع الرزق، فيدل عليه إفضال ورثه عن أب فأب وجد في إثر جد، حتى يصل النسب إلى التراب، فالعبد الضعيف العاجز ماله رغبة في التوسع ومعاودة الأطعمة، وتركها صار له طبعا ثانيا، وإنه ما أكل من حيوان خمسا وأربعين سنة.

والشيخ لا يترك أخلاقه

حتى يوارى في ثرى رمسه

وود العبد الضعيف العاجز لو أن قلعة حلب وجميع جبال الشام جعله الله ذهبا لينفقه تاج الأمراء (..) من غير أن يصير إلى العبد الضعيف من ذلك قيراط، وهو يستحي (..) أن ينظر إليه بعين من رغب في العاجلة من بعد ما زهد، وهو يرضى أن يلقى الله - جلت قدرته- وهو لا يطالب إلا بما فعل من اجتناب اللحوم، فإن وصل إلى هذه المرتبة فقد سعُد".

داعي الدعاة يحاصره ويعاتبه على كل شاردة وواردة، فإذا سجع عد هذا السجع عيبا، لكن المعري يدافع عن نفسه بقوله: "على أن الناس في الإسلام استحسنوا السجعات، وكثرت في خطبهم ومراسلاتهم فقلّ ما يخطب بخطبة على منبر إلا وفيها سجع، وأما خطباء العراق فمعهم خطب تكون من أولها إلى آخرها مسجوعة (..) وكذلك النوق - جمع ناقة- الموصوفة بأنها ساجعات، كما قال متيم بن نويرة:

إذا حنت الأولى سَجعْن لها معا

وفي الإجمال، فإن هذه الرسائل تفصح عن بون شاسع بين عقليتين، الأولى مرهفة حساسة محلقة مثل نسيم الفجر الندي رقة وعذوبة؛ والثانية، اعتيادية إن لم أقل بليدة متحجرة، تمشي على قدميها بين الناس، ومن أراد الاستزادة في الاطلاع على رسائل داعي الدعاة الخمس- ومن الباحثين من ذكر أنهما اثنتان- للمعري فبإمكانه العودة إلى الكتب التي تناولت هذا الموضوع، فضلا عما نشره الباحث المصري محب الدين الخطيب عام 1394 للهجرة، وطبع بالمطبعة السلفية ومكتبتها بالقاهرة، عنوانه (بين أبي العلاء المعري وداعي الدعاة الفاطمي) واحتوى على خمس رسائل مفيدة، دارت بين حكيم الشعراء المعري، والمؤيد في الدين أبي النصر بن أبي عمران داعي دعاة الفاطميين، حول فلسفة أبي العلاء واجتنابه أكل اللحوم. وما كتبه أبو العلاء هنا هو آخر ما أملاه من آثاره الأدبية.

إن السبب أو الأسباب، التي كانت وراء هذه المراسلات، حسب ما روى ياقوت الحموي في معجمه (معجم الأدباء) هي إن أبا نصر بن أبي عمران؛ داعي الدعاة بمصر، لما قرأ ما

قاله أبو العلاء:

غدوت مريض العقل والدين فالقني
لتسمع أنباء العقول الصحائح

فلا تأكلن ما أخرج الماءُ ظالما
ولا تبغِ قوتا من غريض الذبائح

ولا تفجعن الطير - وهي غوافل - بما وضعت فالظلم شر القبائح

ودع ضَرَبَ النحل الذي بكرت له
كَواسبُ من أزهار نبت فواتح

فما احرزته كي يكون لغيرها
ولا جمعته للندى والمنائح

إلى آخر القصيدة.

فكتب إلى المعري يقول: "أنا ذلك المريض رأيا وعقلا، وقد اتيتك مستشفيا فاشفني". ودارت بينهما مراسلات في ذلك.

قال ياقوت:"ولما وقفت على ذلك اشتهيت أن أقف على صورة ما دار بينهما على وجهه، حتى ظفرت بمجلد وفيه عدة رسائل من أبي نصر هبة الله بن موسى بن عمران، إلى المعري في هذا المعنى، انقطع الخطاب بينهما إلى المساكتة، ويذكر الأستاذ كامل الكيلاني (1959) أن محب الدين الخطيب قد عثر على نصوص هذه الرسائل في خزانة كتب أحمد تيمور باشا (1930) فنشرها في مجلته (الزهراء) ثم ظفر ناشر الكتاب بنسخة مخطوطة من مجالس داعي الدعاة المعروفة بـ(المجالس المؤيدية) ومجموعها سبعمائة مجلس، ووجد فيها نصوص رسائل داعي الدعاة.

إنّ قولة ياقوت الحموي، عن إهماله لرسائل المعري، ناعتا إياه بالتشادق والتفاصح، لتذكرنا بزهد المتعاصرين بجهد من يعاصرهم، لأسباب عدة، لعل منها الغل والتحاسد، إنها أنوية الإنسان الباحث عن أناه، وعن المجد له وحده، دون سواه هي التي دفعت بياقوت إلى إهمال تسجيل تلك الرسائل، بل رمى صاحبها بالتفاصح وربما بالتفيهق، وما ذلك بعيب إن جاء عفو الخاطر والسليقة ومن غير تعمّل وكد ونَصَب.

إن أبا العلاء، إذ الزم نفسه بما لا يلزم في شعره، كان أبعد الناس عن صفات التشادق ولا سيما في ديوانه (لزوم ما لا يلزم) حيث أضاف إلى القافية، وحرفها الأخير؛ الروي، قيدا آخر، حرفا آخر، وهو الذي قيد نفسه بقيود، ليكبح جماح النفس الأمّارة بالهوى والتفلت، فظل حبيس سجونه الثلاثة.

أراني في الثلاثة من سجوني
فلا تسأل عن الخبر النبيث

لفقدي ناظري ولزوم بيتي
وكون النفس في الجسم الخبيث

إن المعري تجرع السم من داعي الدعاة بعد أن استدعاه إلى القاهرة - كما قيل - لأن رحلة مثل هذه إلى القاهرة، لا بد أن يقف عندها الدارسون ومؤرخو الأدب، ولاسيما من عاصره مثل: الثعالبي والباخرزي، ومما يرجح أنه لم يرحل إلى القاهرة البتة، وإنما توجه إلى عاصمة العباسيين بغداد، عام ٣٩٨ للهجرة المباركة، وقد وثق سفرته تلك شعرا قائلا:

كَلفْنا بالعراق ونحن شرخ
فلم نلمم به إلا كهولا

وَرَدنا ماء دجلة خير ماء
وزرنا اشرف الشجر النخيلا

وأُبنا بالقليل وما اشتفينا
وغاية كل شيء أن يزولا

وقد توقف مؤرخو الأدب طويلا عند رحلته تلك، وتحدثوا عن لقائه بالشريفين الرضي والمرتضى، والخلاف الذي اشتجر بينه وبين

الشريف المرتضى، إذ تذكر مصادر الأدب إن أبا العلاء كان يوما بمجلس المرتضى، وقد جاء ذكر المتنبي فتنقّصه المرتضى، وجعل يتتبع عيوبه، فقال أبو العلاء، لو لم يكن للمتنبي من الشعر إلا قصيدته:

"لك يا منازل في القلوب منازل"

لكفاه فضلا، فغضب السيد المرتضى، وأمر فسحب برجله وأخرج مهانا من مجلسه، وسأل من يحضرون مجلسه: اتدرون أي شيء أراد الأعمى بذكر هذه القصيدة، فإن للمتنبي أجود منها لم يذكره؟

أجابوا: النقيب السيد أعرف. فقال: أراد قوله:

"وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل"

وقد تحدث المعري عن رحلته تلك إلى بغداد، فكان من عادته أن يوثق بعض الحوادث، برسائل يكتبها إلى بعض أصدقائه وخاصته، لا بل إننا لنعرف اليوم الذي بارح فيه المعري بغداد، إذ ذكر في إحدى رسائله إنه غادرها لستة بقين من شهر رمضان المبارك عام ٤٠٠ للهجرة، لا بل إن تاريخ الأدب حفظ لنا أبياتاً قالها أخوه؛ أبو الهيثم عبد الواحد، يحث أخاه على العودة إلى المعرة، ناقما على بغداد التي اجتذبت إليها ببريقها الخادع! ذلك الماجد الأبي، وهي قصيدة طويلة، نقل منها (ابن العديم) في كتابه (الإنصاف) أربعة وثلاثين بيتاً، وفيها يقول أبو الهيثم:

بغداد لا سقيت ربوعك ديمة
وغدت رياضك حنظلا ومرارا

أنت العروس يروق ظاهر أمرها
وتكن شينا في اليقين وعاراً

أضرمت قلبي باجتذابك ماجدا
كالسيف أعجب رونقا وغرارا

كل هذا يؤكد أنه لم يغادر المعرة، إلى مصر إذعانا لاستدعاء داعي الدعاة، كذلك لا أكاد أميل إلى أنه شرب السم لما أفحمه داعي الدعاة، ولم يسطع على محاجته صبرا، لكن من الثابت أن هذه الرسائل والرد عليها قد آذته نفسيا، وهو الرجل الحساس، بل مرهف الحس، وكان قد بلغ من الكبر عتيا، وناف على الثمانين، فزادته سقما على سقمه، وقربت نهايته.

وقد وقف أكثر من ثمانين شاعرا عند قبره، يشيدون بمناقبه ومنهم الأمير أبو الفتح الحسن بن عبد الله بن أبي حصينة المعري بقصيدة طويلة منها:

العلم بعد أبي العلاء مضيع
والأرض خالية الجوانب بلقع

ما كنت أعلم وهو يودع في الثرى
أن الثرى فيه الكواكب تودع

وعجبت أن تسع المعرة قبره
ويضيق بطن الأرض عنه الأوسع

رفض الحياة ومات قبل مماته
متطوعا بأبر ما يتطوع

قصدتك طلاب العلوم ولا أرى
للعلم بابا بعد بابك يقرع[1]

هوامش

1 – ينظر شرح التنوير على سقط الزند. تأليف أبي العلاء المعري. الجزء الأول. وقد روجعت هذه الطبعة وقوبلت على عدة نسخ صحيحة وطبعت على نفقة الحاج مصطفى محمد، صاحب المكتبة التجارية الكبرى، أول شهر ربيع الثاني 1358 من السنين الهجرية. والكتاب ضمن خزانة كتب المرحوم أبي.

ادانة الحرب

في رواية فيكتور أستافييف*"الراعي والراعية"

إيرينا ستريلكوفا**

ترجمة: تحسين رزاق عزيز

تحمل رواية «الراعي والراعية» لفيكتور أستافييف عنواناً فرعياً، "أنشودة رعوية حديثة". والرعوية فن قديم من القرنين الثالث عشر والرابع عشر يمتاز بالتصوير الشعري للرعاة والراعيات في أحضان الطبيعة. زمان حوادث الرواية أقرب إلى نهاية الحرب العالمية الثانية، حين صار الألماني ضعيفاً.

تجمع هذه الرعوية الحديثة ثلاثة أزواج. يتحدث بوريس كوستيايف مع لوسا عن المسرح ذي الأعمدة وعن رعويات الباليه "تصوَّري أنَّ الموسيقى كانت كلون أزهار الليلك. إنها بسيطة ومفهومة وليلكية... المرج أخضر والخراف بيض. والراعي والراعية يرتديان معاطف جلدية. أحبَّ أحدهما الأخر ولم يخجلا من الحب ولم تساورهما الخشية عليه". فالزوج الأول -هذان البطلان من رعوية الباليه. والزوج الثاني-العجوزان القتيلان "علِم المقاتلون من أبناء القرية أنَّ هذين العجوزين قَدِما إلى هنا من حوض نهر الفولغا في عام المجاعة". كانا يرعيان أبقار المزرعة التعاونية. إنهما راعٍ وراعية. والزوج الثالث-بوريس كوسيتايفً ولوسيا التي التقى بها في القرية واللذان أنهكتهما الحرب حد الموت.

بوريس كوستيايف- شخصية بطولية ومقاتل شاب. تبدأ حكاية بوريس ولوسيا من مأثرة متفانية لملازم شاب. وتبدأ الموضوعة الرعوية الحديثة وتصدح بشدة عند ظهور لوسيا في السهب عند قبر تغطية أعشاب وحشائش، وتساؤلها "لماذا ترقد وحيداً، في وسط روسيا؟" استمعوا إلى هذه الكلمات يبدو أنَّ ابسط الكلمات لها قوة تأثير غير اعتيادية... لم يجرِ الحديث في "الراعي والراعية عن حياة لوسيا قبل اللقاء مع بوريس كوستيايف ولا عن حياتها بعد الحرب. لم نعرف عنها شيئاً كما لم يعرف عنها بوريس كوستايف كذلك... بينما تبدو لوسيا وكأنها تعرف عنه كل شيء وتحس بكل شيء، "ماذا بك؟ أو...؟ - استندت لوسيا على مرفقها وصارت تنظر

إليه بذهول: أو أنّكَ... تخشى الموت؟" فأجابها بوريس "أمرٌ مرعب أنْ تتعود على الموت. التسليم له مرعب، خاصة عندما تصبح كلمة موت دارجة في الاستعمال ككلمات أكَلَ ونامَ وعَشِقَ...."

قاتل الملازم كوستايف جنباً إلى جنب مع رفاقه بالسلاح قتال الأبطال. فقد كان قادراً على حمل رفيق مصاب من ميدان المعركة أو تخليصه من طوق حصار العدو- لكن كوستيايف لم يقدر على سحب نفسه ويخلصها من الموت. فقد مات من إصابة تُعدّ في الحرب غير مميتة. مات لأنه صَعُبَ عليه جداً أن "يحمل روحه". ولا يمكن فِهم هذا الشعور إلا عند قراءة "الراعي والراعية" صفحة بعد صفحة. إذ لا يمكنك أن تفسر ذلك بأي تحليلات نقدية. وبطبيعة الحال كان ينبغي أن تعمل في ظروف الحرب طويلة الأمد غريزة حفظ الذات. ولا شك في كون بوريس كوستيايف شخص حنكته التجربة ومرهف الحس شديد الحذر. وقد وِهبَ هذه الحاسة ليس من اجل حفظ نفسه حسب. فالملازم كوستيايف يشعر بالذنب لأنه لم يحم من اللغم شكاليك، الجنديَ المهمِلَ، ومقتل هذا الصبي يزيد ألمه كثيراً.

لقد جسد النثر الحربي الروسي، فكرة الخير، وكان نثراً مضاداً للحرب. إنَّ "الراعي والراعية" أحد الأمثلة الساطعة للاحتجاج على الحرب وعلى كل أنواع الحروب. لقد عبَّر الكاتب عن فكره المكنون ليس في شخصية بوريس كوستيايف فحسب. فرئيس العرفاء موخناكوف - نقيض الملازم الشاب، إنسانٌ قاس. يقول موخناكوف: "أتمنى لو كنت جلاداً للألمان المجرمين". وهو كذلك يستدعي "رصاصته" بمرارة شديدة، إذ تضنيه الحرب حدّ الموت. وفيما بعد، في المعركة الأخيرة، يستبقي موخناكوف تحت الدبابة مع لغم معدّ سابقاً واضعاً في حقيبة ميدان (عسكرية) الأنواط ملفوفة بخرقة قماش قطني ورسالة مختصرة لكوستايف يطلب منه فيها أن يهتم بزوجته وأطفاله. هذا يعني أنَّ رئيس العرفاء موخناكوف الذي حنكته التجارب رأى مسبقاً أنَّ الموت ليس بعيداً عنه، حتى أنه حضّر الرسالة لكنه كتبها للملازم نفسه واثقاً أنَّ مثل هذا الطيب والشريف لا يُقْتَل.

يرى النقاد أنَّ فيكتور أستافييف يجيد دائماً خلق الشخصيات النسائية. يقول الناقد ألكساندر ماكاروف: "انه قريب من التقاليد الرفيعة للأدب الروسي المتمثلة بالانبهار بالمرأة – الأم، والمرأة – الزوجة". لقد جسَّد فيكتور أستافييف المثالية الروسية في شخصيات الجدة من "التحية الأخيرة" وأفغوستا من قصة "تدوي الحرب هناك في مكان ما" ونداديجدا من قصة "يد الزوجة" ... توجد عند فيكتور أستافييف قصة قصيرة رهيبة في "الخريف الممطر" كل شيء فيها حزين، إنها قصة عن قرية مهجورة في زمن ما بعد الحرب وهي شبيهة تماماً بالقرى في أيامنا هذه، حيث وحدة العجائز والسَّنة القاحلة (بلا محصول) والحريق في الحقل ومعاقرة الخمر بسبب المآسي: "ضاع كل شيء... نشرب - حتى ننسى". فلو قُدِّر لأحد الصحفيين أن يأتي إلى هنا لكتب بالسخام الأسود عن الإدمان في القرية. بينما فيكتور أستافييف كتب قصته القصيرة تلك لكي ينعش الإحساس بالخير والأمل. "لا تطلق الأحكام جزافاً ولا تلُم نساءنا.... إنَّ بهنّ حاجة للشفقة عليهنّ لما يُعانين من شظف العيش، ومد يد العون لهن" - يقول رئيس العمال يرمي تشيرداكوف "كما إن بي حاجة لهذه الشفقة والتعاطف الذي أود

سماعه". ولو أعَدتَ اليوم قراءة القصة حول القرية المهجورة بعد الحرب سينتابك شعور بالثقة بأنَّ الأمل موجود حتى في زماننا هذا. إذ تمكن الناس آنذاك من الارتقاء بآلاف القرى التي خربتها الحرب!

يفترق القارئ مع لوسبيا من الرعوية الحديثة "الراعي والراعية" عند قبر وحيد تغطيه الحشائش والأعشاب. مضت سنون طوال منذ نهاية الحرب، لكن حتى في أيامنا هذه ما زال البحث جارٍ عن قبور بلا أسماء وشواهد. من

يرقد في تلك القبور؟
تساعد قصة "الراعي والراعية" الجيل الشاب الحالي على فهم فكرة بسيطة ومهمة جداً، مفادها: أن الحرب أخذت من روسيا حياة الملايين، لكن يجب ألّا يقتصر الأمر على عد تلك الملايين بل ينبغي أن يكون لدينا تصور واضح أن حياة كل فرد من ذلك الكم الهائل هي حياة وحيدة ولا تتكرر -ولا شيء أثمن من هذه الحياة البشرية الواحدة.

كانت لدى أستافييف علاقة خاصة بالرعوية الحديثة التي كتبها. وفي ردٍّ على إحدى المقالات النقدية عن "الراعي والراعية" كتب: "ينتابني الشعور بالقرف عندما أعيد قراءة الكثير مما كتبت ولكن عندما سافرت بالقطار من بيرم قرأت الراعية ويعجبت من نفسي وأحسست فجأة بحبي للوسيا كذلك. أيْ أني على ما يبدو أحببتها طوال حياتي، أحببت هذه المرأة الخيالية حتى صارت قريبة مني حد الألم".

تتحدث هذه الرسالة كذلك عن حكاية أصل قصة "لراعي والراعية". إذ يبدو أنَّ فيكتور أستافييف بدأ يفكر بها منذ عام 1954. "كنت اعمل في إذاعة المحافظة وقد تخلفت عن القطار في مفترق طرق بعد كيزيل في الأورال. وكان معي كتاب "مانون لسكو" فقرأته في ذلك اليوم وقد صدمني ففكرت في نهاية المطاف: "فماذا، إذن؟ ..." فكرت، أحقاً إننا لم نعد نعرف الحب والإحساس والعفو، واختفى من علاقاتنا حتى الغموض؟ أحقاً غادرت الرومانسية روحنا؟ إذاً هي النهاية!" حمل فيكتور أستافييف فكرته سبعة عشر عاماً، بينما كتب المسودة في القرية خلال ثلاثة أيام، ثم عدّلها اثنا عشر مرّة وأعاد قراءتها. فقد أراد، كما قيل في الرسالة، ثم عدّلها اثنتا عشرةَ مرّة وأعاد قراءتها. فقد أراد، كما قيل في الرسالة "أن يكتب ببساطة عن الحب الخاطئ والدنيوي الأرضي". فهل خرج العمل-عن الحرب.

أو، كما أراد، عن الحب؟ يبقى السؤال موجهاً للقارئ.

• كاتب ومترجم عراقي يقيم حاليا في روسيا، يترجم " للثقافة الجديدة" لأول مرة

*فيكتور أستافييف: (1924-2001) كاتب روسي شهير. من أعماله، "الراعي والراعية، المفتش الحزين، ملعونون ومقتولون، الغسق الأزرق"... وغيرها كثير.

**إيرينا إيفانوفنا ستريلكوفا:(1924-2006) كاتبة سوفيتية وروسية، لها العديد من الدراسات في الأدب الروسي السوفيتي.

مطبوعات وصلتنا :

• فؤاد الطائي، الشكل والمضمون في الفلم الروائي العراقي ، دار ميزر - السويد 2023.
• محمد السيد محسن، الشاعر القرمطي ..مظفر النواب ذاكرة ومواقف - الطبعة الاولى، الذاكرة للنشر والتوزيع - بغداد 2023.
• محمد السيد محسن ،الأخيذ.. كنت اسيراُ في ايران -Adab Books -الطبعة الاولى 2019.
• نجم خطاوي، نخلة في قرجوخ، مطبعة ودار نشر شهاب – اربيل 2022.